المسؤولية الاجتماعية للشركات | الحوثية في اليمن | مدافعة الشبهات

مع العدد ملحق

مجلة إسلامية شهرية جامعة



AL BAYAN

السنة الخامسة والعشرون . العدد ٣٦٩ . محرم ١٤٣١ هـ . يناير ٢٠١٠ م

المــأزق الغــربي في أفغانســتان

وزير الصحة الفلسطيني:

- التعاطف لكسر الحصار بعد الحرب يتراجع
- الصومال بين الفشل الداخلي والمكر الخارجي





خدمة العملاء

السعودية

ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.

هـاتف الاشتراكات مباشـــر: ٢٢٥١٩٦٧

هـاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس:٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير

editors@albayan.co.uk

الاشتراكات

sub@albayan.co.uk

التسويق

sales@albayan.co.uk

المـوزعــــون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.

الإمارات العربية المتحدة : شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .

سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .

البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.

السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.

السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.

قـطــر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.

الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.

المغـرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.

اليمــن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجـامعة القـديمة، هــاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥

رئيس التحرير

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير

د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير

أحمد بن عبد العزيز العامر

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

د. يوسف بن صالح الصغير

فهد بن صالح العجلان

أحمد بن عبد المحسن العساف

فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير

إسلام السيد علي

الإخراج الفني

خالد حسن عمارة

عنوان المجلة على الشبكة العالمية

www.albayan-magazine.com

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي

أبيان : sa١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠ ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧ يورو
أوروبا	٥٥ يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥ يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥ يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠ يورو



معركة النَّص

نص شعري

المسلمون والعالم

خاطرة أدبية

عين على العدو

قراءة

اقتصاد

منتدى القرّاء

الورقة الأخيرة



[كلمة صغيرة]

البيان في عامها الخامس والعشرين

ها هو ذا العام الخامس والعشرون لمجلة البيان يهل، ولله الحمد والفضل والمنَّة أولاً وآخراً، وها نحن نُخرج مجلتكم بثوب جديد (شكلاً ومضموناً).

يحمل راية البيان ابتداءً من هذا العدد فريق جديد انضم لهيئة التحرير، يحمل رؤىً وتطلُّعات فكرية جديدة، بدأت باستحداث عدد من الزوايا (معركة النص) و (عين على العدو) و (الغرب: قراءة عقدية) والقادم بإذن الله دائم التجدد. ومع إطلالة هذا العدد ينطلق مُلحَق فَصْليٌّ بعنوان: (متابعات سياسية) نتابع فيه للقارئ الكريم أهم ما تنتجه مراكز الدراسات والبحوث في الدول المؤثِّرة عالمياً.

إننا ندرك التحديات الكبيرة التي تواجهها الكلمة المطبوعة (الكتاب - المجلة - الجريدة) في ظل الانفتاح الفضائي والإلكتروني، وسيادة الثقافة البَصَرية، وندرك أيضاً أن معدَّلات القراءة في عالمنا العربي في انحسار شديد؛ ومع ذلك كله نعلم أن هناك عدداً كبيراً من القراء الجادين لا زالوا يتطلعون إلى الكلمة الصادقة التي تعبِّر عن آرائهم وتعالج تطلُّعاتهم وطموحاتهم، ونرجو أن تكون مؤسسة البيان - بمجلتها وتقريرها الارتيادي السنوي وكُتُبها الدورية التي تصدر عن مركز البيان للدراسات والأبحاث - أحد المنابر الفكرية التي تُشبِع رغباتهم، وتلامس احتياجاتهم.

إن نجاح البيان واستمرار عطائها ومسيرتها الدعوية مرهون - بعد عون الله، تعالى - بمقدار حِرْص العلماء والمفكرين وطلبة العلم على التفاعل والتواصل البنَّاء مع مجلتهم، وسيزداد قوة وإشراقاً بتواصل القراء وتسديدهم، وكم يسعدنا أن نسمع ملحوظاتهم واقتراحاتهم التي ترتقي بمجلتهم، فأبوابنا مشرعة لكل نقد موضوعي ورأي هادف.

نسأل الله - تعالى - أن يستعملنا جميعاً في طاعته، ويوفقنا لخدمة دينه.





أيها الدعاة...!

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين،

إن إنجازات الصحوة الإسلامية بمختلف أطيافها الفكرية وتشكلاتها الإدارية، كثيرة جداً؛ ومن العدل المأمور به شرعاً الاعتراف بالفضل لأهله امتثالاً لقول الحق - جلَّ وعلا -: ﴿ وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[البقرة: ٢٣٧]. ومع تلك الإنجازات المحمودة المشكورة: هل نستطيع القول بأن الصحوة الإسلامية تعيش أزمة؟ وما معالم تلك الأزمة ومظاهرها؟ وما السبيل لعلاجها؟

والجواب: بالتأكيد هناك أزمة متعددة المظاهر والمعالم، سوف نقف في هذه الافتتاحية على مشكلتين من أخطر المشكلات التي تواجهها:

المشكلة الأولى: اضطراب الخطاب الدعوي:

وجد الإسلاميون أنفسهم بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في بؤرة الاتهام، فاستُهلكت طاقات كثيرٍ منهم في دفع الشبهات والتهم التي أثيرت حولهم، وسادت لغة الهزيمة الاعتذارية، واستُدرج بعضهم إلى سجالات عقيمة؛ ليقع في مآزق فكرية لم يحسب لها حساباً. ومن السهل عند غياب المنهج أو ضعفه، أن ينجرَّ الخطاب الإسلامي بعيداً عن ميدانه، ويتيه في غير سبيله.

وفي هذه الأثناء تجددت الدعوة إلى بناء خطاب دعوي عصري يستوعب التحديات السياسية والثقافية التي تواجهه، وهذا حَسَن بلا شك؛ فالتجديد مطلب شرعي، وأساليب الخطاب وقضاياه وأولوياته ينبغي أن تتجدد من عصر إلى عصر، ويخاطَب الناس على قَدْر عقولهم، ولا يجوز الانكفاء أو الانغلاق على أسلوب واحد مهما كان ناجحاً في وقت من الأوقات. لكنَّ بعض المهتمين بشأن تجديد الخطاب الدعوي يغفلون عن قضية من أهم المرتكزات المنهجية، وهي: أن التجديد لا يعني تحريف الدين، أو كتم بعض أحكامه ومعالمه، أو تطويعه؛ ليتوافق مع أهواء الناس وقيم الفلسفة البشرية. كما أن التجديد لا يعني التكلُّف في مداراة الفكر الغربي ومجاراة التيارات العلمانية والليبرالية في شعاراتها وقيمها المادية، كما قال المولى - جلَّ وعلا -: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾

[الشعراء: ١٥٠ - ١٥٢]، وكما قال - عز وجل -: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، وكما قال - سبحانه وتعالى -: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

لقد ركب هذه الموجة ثلة من المفكرين المحسوبين على الصحوة الإسلامية، وكانت البداية في ترجيح الاختيارات الفقهية الضعيفة بحجة التيسير، دون التزام المنهج العلمي عند الفقهاء والأصوليين، ثم انتهى عند بعضهم إلى الوقوع في إشكالات عقدية تناقض أصول أهل السُّنة والجماعة المتفق عليها.

إن الاضطراب والتذبذب في خطابنا الدعوي من علامات ضعف اليقين وقلَّة البضاعة، وليس أضرَّ على الأمة من التفريط بثوابت الدين ومحكَمات الشريعة، وقد أدى هذا الاضطراب إلى تضييع الفرص، وتشتُّت الجهود، وانتشار الحيرة والقلق في صفوف كثير من أبناء الأمة، خصوصاً عند النوازل والمسائل الكبيرة!

تجديد الخطاب الدعوي المأمور به شرعاً، إنما يكون على منهاج النبوة بالوحي المنزَّل؛ وذلك بفهمه وتعظيمه والاستسلام لأمره ونهيه، وعدم التقدم بين يديه، وتنقيته من شوائب الضلالة ومفاسد أهل الأهواء، ثم بحُسْن توظيف قواعده وكلياته، وتنزيل أحكامه ومقاصده على واقع الأمة بفهم وبصيرة. قال الله - تعالى -: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فالاستقامة على الهَدْي النبوي والتمسك بمحكمات الشريعة من الكتاب والسنة الصحيحة، هي الطريق الصحيح لبناء خطاب دعوي متماسك يواجه طوفان الشبهات التي يثيرها بعض أدعياء الليبرالية ورؤوس التغريب في مجتمعاتنا.

المشكلة الثانية: الأزمة الأخلاقية:

اذهب إلى أي بلد شئت، وتأمَّل حال الدعاة بمختلف أطيافهم الكبيرة والصغيرة، المنظمة أو غير المنظمة، فإنك ستجد شرخاً متجذراً فرَّق الصفوف وأذهب ريح الأمة؛ فبين آونة وأخرى نسمع عن خلافات حادة بين الرموز الدعوية القيادية - فضلاً عن القواعد والأنصار - ثم تمتد هذه الخلافات والنزاعات إلى وسائل الإعلام التي تجد فيها مادة مثيرة للتسويق والتصعيد، فيزداد التشنج والانفعال، وتُشحَن الساحة الدعوية بالقيل والقال، وتنتهي بعد ذلك إلى تصدُّعات وانشقاقات صاخبة.

ومع شدة المراء والجدل تبدأ بعض كوامن النفوس المريضة بالظهور؛ فيعلو صوت الأثرة والأنانية، ويكثر التهارش والتدابر والبغي، وتُغلق أبواب الحوار والتصالح، وربما تطلَّع بعضهم إلى الصدارة والرئاسة.

> ” تجديد الخطاب الدعوي إنما يكون على منهاج النبوة بالوحي المنزَّل؛ وذلك بفهمه وتعظيمه والاستسلام لأمره ونهيه، وعدم التقدم بين يديه، وتنقيته من شوائب الضلالة ومفاسد أهل الأهواء “

لقد عشنا فترة من الزمن نتألم من الخلاف والصراع الذي قد يحدث بين بعض السلفيين والإخوان، وندعو إلى الحوار الجاد بعلم وعدل، ونسعى لرأب الصدع وتقريب الإخوة لبعضهم، ثم ها نحن نسمع الآن عن تصدعات مؤلمة داخل التيار السلفي نفسه من جهة، وداخل التيار الإخواني من جهة أخرى، ليس في بلد واحد فقط، بل في عدد من البلدان.

ما الذي يجري أيها العقلاء؟

لقد زهَّد بعضهم بالتربية، وأُهملَت مناهجها الدعوية، وهُجِرَ كثير من محاضنها الجادة، ثم استُهلكت طاقات الدعاة في جوانب مفضولة لم تتذوق فيها حلاوة العبادة، وأنس الصلة بالله، جلَّ وعلا. فكانت هذه بعض الثمار.

إنها حقاً أزمة أخلاقية تؤكد أن التربية الإيمانية هي الركيزة الأساس التي ينبغي أن تبنى عليها الدعوات.

نعم! إنها التربية التي تهذِّب النفس البشرية، وتداوي أمراضها، وتكبح جماحها، وتسمو بها بعيداً عن الحظوظ والشهوات، وهي الضمانة الحقيقية التي تبني الصف وتوحد القلوب، حتى عند الاختلاف وتباين الاجتهادات.

إنها مهمة عظيمة شُرِّف بها الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كما قال الله - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]. وفلاح الأمة أفراداً وجماعات منوط بتزكية النفس وتطهيرها. قال الله - تعالى -: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠].

فهل يدرك الدعاة هذه الغاية العظمى ويجعلونها أصلاً أصيلاً في برامجهم الدعوية؟





د. عبـد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف(*)
www.alabdulltif.net

أجهش العلامة إبراهيم بن جاسر[1] - رحمه الله - (ت ١٣٣٨هـ) بالبكاء، لما قرئ عليه في كتاب (منهاج السُنة النبوية في نقض الشيعة والقدرية لابن تيمية)؛ حيث جاء قول ابن المطهِّر الحلي[2] وما فيه من شبهات ومغالطات، ثم قال الجاسر لطلابه: أيها الإخوان! لو لم يقيِّض الله لهذا الطاغية وأمثاله مثل هذا الإمام الكبير؛ فمن الذي يستطيع الرد والإجابة عن هذه الشبهات[3]؟

وإذا تجاوزنا ما قاله العلاَّمة ابن جاسر؛ إذ لا تخلو الأرض من قائم لله - تعالى - بحجة، ويحدثنا عن السبيل إلى التعامل مع الشبهات ومدافعتها.

فالشبهة إن كانت واضحة البطلان، ظاهرة العوار لكل ذي عينين، لا يُلتفت إليها؛ فإن الخوض في إبطالها تضييع للزمان، وإتعاب الحيوان[4]، وإنما المدافعة للشبهات التي يَضِل بها بعض الناس[5]؛ «إذ لا يشبه على الناس الباطل المحض، بل لا بد أن يُشاب بشيء من الحق»[6].

كما ينبغي التوسط مع الشبهات في حدِّ ذاتها؛ فالشبهات المغمورة، والاعتراضات المطمورة لا يُلتفت إليها بدعوى الرد والمناقشة؛ إذ في ردِّها إظهارٌ لها بعد اندراسها، وإحياءٌ لرميمها، ولكن الشبهات التي استفحلتْ وأوقعت حيرة ولبساً عند فئام من المسلمين، فالمتعيَّن مدافعاتها ومناظرة أربابها ومجادلتهم. قال ابن تيمية: «كل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم، لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس...»[7].

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

(١) انظر ترجمته في علماء نجد للبسام: ١/٢٧٧ - ٢٩٣.

(٢) في كتابه - المردود عليه - منهاج الكرامة، وقد سمَّاه ابن تيمية: منهاج الندامة، كما سمى مؤلفه بابن المنجِّس، ووصفه بأنه أجهل خلق الله بالسُّنة، انظر: منهاج السُّنة: ١/٢١، ٤/١٢٧.

(٣) علماء نجد للبسام: ١/٢٨١.

(٤) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب: ٤/٩٣.

(٥) انظر: التدمرية، ص: ١٠٦.

(٦) مجموع الفتاوى: ٨/٣٧.

(٧) درء تعارض العقل والنقل: ١/٣٥٧، وانظر: زاد المعاد: ٣/٦٣٩.





إن تربية الأمة على الاستعلاء بالإيمان، والاعتزاز بالإسلام ولزوم السُّنة، لَيُحقق مَنَعة وسلامة من الشبهات؛ فالشبهات تَعْلق بالقلوب الضعيفة والنفوس المنهزمة

وكذا التوسط مع الشبهات أثناء سماعها من الآخرين، أو ورودها من المخاطبين؛ فلا يزجر كل سائل تَعَرض له شبهة، ولا يُهمَل كل من وقع في حيرة أو اشتباه؛ فهذا الإعراض والإهمال قد أفضى ببعضهم، إلى زندقة، وخروج عن الإسلام والسُّنة. وكذا الحذر مما يقابل ذلك، من تَقَصُّد الشبهات، أو دعوة الناشئة إلى إثارة أي شبهة أو إشكال، كما يفعله بعض المعاصرين؛ فإن تتبُّع الشبهات وحصرها ليس مقدوراً ولا مشروعاً؛ فالشبهات لا تنقضي ويستحيل حصرها. ولا يكلِّف الله نفساً إلا وُسعها؛ «فالمعارضات الفاسدة التي يمكن أن يوردها بعض الناس على الأدلة لا نهاية لها؛ فإن هذا من باب الخواطر الفاسدة، ولا يحصيه أحد إلا الله... فالخواطر الفاسدة التي تقدح في المعلومات لا نهاية لها، ولا يمكن استقصاء ما يَرِد على النفوس من وساوس الشيطان»[1]. «والقرآن لا يُذكر فيه مخاطبة كل مبطل بكل طريق، ولا ذَكر كلَّ ما يخطر بالبال من الشبهات وجوابها؛ فإن هذا لا نهاية له ولا ينضبط»[2].

كما لا تُذكر الشبهة ابتداءً واستقلالاً، بل يقرر الحق، ويبيِّن الهدى بأدلته وبراهينه (النقلية والعقلية)، ثم يجيء الجواب عن الشبهات الواردة عَقِب هذا التقرير والتأصيل[3].

ومن مدافعة الشبهات: تحقيق اليقين، وترسيخ الإيمان؛ فإذا انشرح القلبُ بالإيمان وخالط بشاشة القلوب؛ فلا يقع انتكاس أو ارتداد. قال ابن القيم: «ومتى وصل اليقين إلى القلب، امتلأ نوراً وإشراقاً، وانتفى عنه كلُّ ريب وشك وسخط وهمٍّ وغمٍّ، فامتلأ محبة لله، وخوفاً منه، ورضاً به»[4].

قال الله - تعالى -: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢ - ١١٣]. يقول العلَّامة محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله -: «في هذه الآية ترتيب غريب عجيب، بالغ في الحُسْن؛ لأن السبب الأول: هو الغرور والخديعة، فتسبَّب عن الغرور والخديعة أن صغت إليه قلوبهم ومالت، ثم تسبب عن صوغ القلوب وميلها أنهم أحبوه ورضوه، ثم تسبب عن كونهم أحبوه ورضوه أن اقترفوه... والمؤمنون يعرفون زخارف الشيطان ووحيه؛ فيتباعدون منه ويجتنبونه»[5].

ومفهوم الآية أن الإيمان باليوم الآخر يحقق مجانبة الإصغاء إلى هذا الخداع والتزويق؛ فالمؤمنون بالآخرة قد استنارت بصائرهم، فنظروا في حقائق الأمور؛ فلا يهوِّلون زُخرُف القول، أو معسول الكلام.

وكذا؛ فإن تربية الأمة على الاستعلاء بالإيمان، والاعتزاز بالإسلام ولزوم السُّنة، لَيُحقق مَنَعة وسلامة من الشبهات؛ فالشبهات تَعْلق بالقلوب الضعيفة والنفوس المنهزمة؛ فهي محل قابل لتلك الشبهات، وكم جرَّت الهزيمة النفسية من ضعف وخَوَر، وانسياق مع الشبهات، وانصياع للاعتراضات!

ومن الحقائق الإيمانية التي ينبغي استصحابها في مدافعة الشبهات أن في القرآن العظيم ما يردُّ على كل مخالف، كما قال - تعالى -: ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣]. قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله -: «لو تدبَّر إنسان القرآن كان فيه ما يردُّ على كل مبتدع وبدعته»[6]. كما أن أهل السُّنة يجزمون أن أهل البدع لا يكادون يحتجون بحجة سمعية أو عقلية إلا وهي عند التأمُّل حجة عليهم[7].

ومن الأجوبة المهمة تجاه الشبهات عموماً: الاحتجاج بمحكمات الشريعة، والتمسك بجُمَل الإسلام والسُّنة؛ إذ لا يحتج بالمتشابه المحتمل على المحكَم القطعي الجلي إلا أهل الزيغ، وقد احتفى الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - بهذا الجواب المجمل، كما في رسالته المتينة: «كشف الشبهات».

ومن سبل المدافعة ما قرَّره يحيى العمراني (ت ٥٥٨هـ)

(١) الدرء: ٣/١٦٢، ٢٦٢.
(٢) الدرء: ٨/٨٨.
(٣) انظر: كتاب الإيمان لابن تيمية، وكتاب فقه الرد على المخالف لخالد السبت، ص: ٢٨٣.
(٤) مدارج السالكين: ٢/٣٩٨.
(٥) العذب النمير، تحقيق: خالد السبت: ٢/٥٨١، ٥٨٤ = باختصار.
(٦) أخرجه الخلَّال في السُّنة: ١/٥٤٧.
(٧) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٦/٢٥٤، وحادي الأرواح لابن القيم، ص: ٢٠٨.



قائلاً: «ولا تزول الشبهة عن قلوب العامة إلا من حيث دخلت، وقد كان ﷺ يزيل الشبهة من حيث علم دخولها»[1]. (ثم ساق الأدلة على ذلك).

ومما ينبغي مراعاته في هذا المقام: النظر في أحوال أرباب الشبهات، ومدافعتهم بالأسلوب الأقوم والملائم، والذي يحقق دفع الشبهة وإظهار السُّنة: «والألفاظ في المخاطبات تكون بحسب الحاجات، كالسلاح في المحاربات، فإذا كان عدو المسلمين - في تحصُّنهم وتسلُّحهم - على صفة غير الصفة التي كانت عليها فارس والروم، كان جهادهم بحسب ما توجبه الشريعة التي منباها على تحري ما هو لله أطوع وللعبد أنفع»[2]. وقال العلاَّمة ابن الوزير (ت ٨٤٠ هـ) - رحمه الله -: «المحامي عن السُّنة، الذابُّ عن حماها كالمجاهد في سبيل الله - تعالى - يُعدُّ للجهاد ما استطاع من الآلات والعدة والقوة، كما قال - تعالى -: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]»[3]. كما يُحذَّر من السِّباب والشتائم وبذاءة القلم واللسان أثناء معالجة الشبهات: «فإن الرد بمجرد الشتم والتهويل لا يعجز عنه أحد»[4]. وكذا يجانب البغي والعدوان، ويتحرى العدل والإنصاف؛ «فالإنسان إذا اتبع العدل نُصِر على خصمه، وإذا خرج عنه طمع فيه خصمه»[5]. وليحرص على مطالعة أحوال السلف وآدابهم في التعامل مع الشبهات، وجدال المخالفين ومناظرتهم[6]، كما يتعين الرسوخ في العلم الشرعي، والتمكُّن من الفقه لدين الله تعالى، والدراية بأساليب الحوار، وطرائق دفع الشبهات، والدُّربة على المحاورات والمناظرات. قال ابن عبد البر: «ليس كل عالم تتأتى له الحجة، ويحضره الجواب، ويسرع إليه الفهم بمقطع الحجة» ومن كانت هذه خصاله، فهو أرفع العلماء، وأنفعهم مجالسة ومذاكرة»[7].

ثم إن عليه - أولاً وأخيراً - أن يستعين بالله وحده؛ فما لم يكن بالله لا يكون، وكما قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله -: «لكن إذا أقبلت على الله، وأصغيت إلى حججه وبيناته، فلا تخف ولا تحزن، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً، والعامي من الموحدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين، كما قال - تعالى -: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]»[8].

---

(١) الانتصار (الجزء الأول): ١/ ٩٤.
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٤/ ١٠٧.
(٣) إيثار الحق على الخلق، ص: ٢٠.
(٤) مجموع الفتاوى: ٤/ ١٨٦. والكلام البذيء يدل على انقطاع صاحبه وقلة علمه، كما قال العمراني في الانتصار: ١/ ٩١.
(٥) الدرء: ٨/ ٤٠٩.
(٦) انظر: كتاب فقه الرد على المخالف لخالد السبت، وقد انتفعت به في هذا المقال. ومنهج الجدل والمناظرة لعثمان علي حسن.
(٧) جامع بيان العلم: ٢/ ٩٦٨.
(٨) كشف الشبهات، ص: ٣٩.



مقدِّمات في خدمة المذهب

هـشـام ولـشـكـر(*)
Abu_amro1@hotmail.com

ولما كان للمذهب أهميته العلمية في نفسه أولاً، وآثاره الإيجابية في ضمان وحدة البلاد، وتوحيد منهج التفقُّه في دينها، والحفاظ على نسيجها الاجتماعي والنفسي ثانياً؛ اخترت من خلال هذه الورقات بيان ست مقدمات أحسبها - بحول الله - خادمة لما نحن فيه.

إن استشعار كثير من الدول الإسلامية اليوم لخطر الفتاوى التي تهدِّد أمنها النفسي والروحي، وتماسكها الاجتماعي نتيجة الأحداث التي يشهدها العالم، والآثار المترتبة على سياساتها في تدبير الشأن الديني، دَفَعَها إلى اتخاذ مجموعة من الإجراءات لخدمة مذهبها الفقهي والعقدي وتثبيت مظاهرها.

المقدمة الأولى: في مصطلح (المذهب):

إذا كان مصطلح (مذهب) يدل في أصل وَضْعِه اللغوي على مكان الذهاب؛ أي: الطريق، واشتُهر اصطلاحاً في الدلالة على الأحكام التي اشتملت عليها المسائل، والجامع بين المعنيين هو: أن الطريق توصل إلى المعاش، وتلك الأحكام توصل إلى المعاد؛ فإن حقيقته العلمية، وبُعدَه الاصطلاحي الدقيق يتجاوز ذلك إلى الدلالة على المنهج الأصولي المعتمَد في استنباط أحكام المسائل؛ لأن الذي يميز مذهباً عن مذهب آخر، ليس مجموع هذه الأحكام التي انتهت إليها اجتهادات علمائه وحواها تراثه الفقهي، وإنما الذي يميز المذهب: هو ذلك المنهج المعتبَر [1] في تخريج الفروع وبناء الأحكام. وما الأحكام بهذا الاعتبار إلا نتيجة للتطبيق العلمي لأصول وقواعد هذا

(*) دكتوراه في الفقه وأصوله – المغرب.

(١) يجب التنبيه إلى أن أصول هذا المنهج أصول شرعية استُمدت حجيتها من نتائج الاستقراء للغة العرب ومسالك فَهْم الكتاب والسنَّة ودلالتهما عند الصحابة، رضي الله عنهم. ومن اطلع على ذلك في مظانه تبينت له حقيقته.

المنهج في آحاد المسائل ومناطاتها الجزئية. ومن تأمَّل تراث المذاهــب، أدرك أنهم - كما تركوا للأمــة تآليف في الفقه - تركــوا أيضاً تآليـف في علـم أصــول الفقــه؛ حتــى لا تكاد تجد مذهبـاً من مذاهبهــم إلا واشــتُهر أعلامه بتآليف في هذا الفن أسســت لأصول وقواعد النظر الفقهي ضمن منهج علميٍّ تجلت حقيقته بصــورة عملية واضحة في كتب فقه الحديث.

وإذا تحصَّــل مما تقدم، أنه لا يمكــن الحديث عن المذهب إلا باعتبــاره منهجاً علمياً أصولياً يضبــط العملية الفقهية الاســتنباطية؛ تبــيَّن لنا خطــأ العدول عن هــذه الحقيقة الاصطلاحية، وآثاره السلبية المتمثلة في ما يلي:

أولاً: غياب أو نــدرة القيادات العلمية المؤهَّلة للاجتهاد بناءً على أصول المذهب بسبب ما اشتُهر من أن عالم المذهب: هو مَــن حفظ المتون وعرف الأقوال والآراء التي انتهى إليها علمــاؤه المتقدمون، لا مَن علم أصولــه وامتلك القدرة على توظيفها واستثمارها.

ثانيـاً: اعتبار كل اجتهاد على خلاف مشــهور المذهب خروجــاً عنه؛ وهو خطأ مردُّه إلى عدم إدراك الفرق الدقيق بين الاجتهــاد في إطار أصول المذهــب، وبين الخروج عنه إلــى مذهب آخر؛ لأن التقليد في الأصول لا يعني بالضرورة التقليد في الفروع، ولو سلَّمنا بذلك الاعتبار الذي لا يستقيم على ميــزان العلم ولا على واقع حركــة الاجتهاد في تاريخ المذاهــب الفقهية، لأخرجنا أكثر أهــل العلم عن مذاهبهم؛ مــع أن الدارس لتراث المذاهب واجتهادات علمائها: كمحمد ابن الحســن الشيباني وأبي يوســف من الحنفيــة، وابــن عبد البر القرطبي، وابن العربي المعافري، وابن رشد الحفيد من المالكية، والمازري من الشــافعية، وابن تيمية وتلميذه ابن القيم من الحنابلة، يقف على مسائل كثيرة خالف فيها هؤلاء الأعلام أئمتهم مــن غــير أن يقــدح ذلـك في حنفيتهــم أو مالكيتهم أو شــافعيتهم أو حنبليتهم، وإنما ظلوا منتسبين إلى مذاهبهم ملتزمين بأصولها نظراً واستنباطاً.

إن التمذهب أو الالتــزام بالمذهب لا يعني - في الرؤية المذهبيــة المبنية على قواعد العلــم وأصوله، لا على النزعة العصبية أو التقليد الأعمى أن الاختلاف أمر مقصود لذاته؛ فلا ينبغي باسم المذهب أو المذهبية التعصب لأقوال المذهب، وطَرْح ما خالفها من أقوال المذاهب الأخرى، أو الحكم بخطئها ابتــداءً من غير تبيُّن؛ فكم من قول مخالف كان مرجوحاً في زمن وحال معين، صار راجحــاً لاعتبارات اقتضت ترجيحه فــي دليل الحكم أو مناطه، وكم من قول مخالِف قال به غير واحد من أئمة المذهب نفسه، أو قول مخالِف صارت مراعاته أمراً مطلوباً جارياً على أصول الشريعة ومقاصدها [1].

ثالثـاً: تخريج حَمَلَة للفقه ليســوا بفقهاء؛ ومثل هؤلاء غيــر قادرين على اقتحام باب الاجتهــاد في قضايا العصر ومستجداته، فضلاً عن التصدي لكل فِكْر دخيل أو منحرف، أو حتى امتــلاك القدرة على الاســتدلال على صحة حُكْم مســألة؛ لكونهم تلقَّوه جاهزاً من غير دراية لأصله وطريقة اســتنباطه، وحتــى إن علموا ذلك؛ فهم غيــر قادرين على النظر في غير الصور والشــواهد العالقة في محفوظهم إلى مثيلاتها قياساً واستصلاحاً، مما أضفى على المذهب صفة القصور والجمود في إنتاج فقه معاصر يخدم واقعه، ويجيب عن قضاياه.

من هنا ندرك سبب الموقف الصارم لابن رشد من متفقهة زمانــه، والذي دفعه إلى وَضْع كتــاب (بداية المجتهد ونهاية المقتصــد) عندما أخرجوا الفقه عــن مدلوله الاصطلاحي العلمــي وحملوه علــى حفظ الأحكام والمتون والمســائل من غير أن يحصِّلوا مَلَكَة الفقه التي تمكِّنهم من استثمار أدوات النظر والاستنباط وقواعد الاجتهاد في مقارنة عجيبة ذات دلالة بين بائــع الخِفاف الذي لا حظَّ له من عمله إلا إمداد المشــتري بنوع الخف المــراد جاهزاً، وبــين صانع الخِفاف الــذي امتلك القدرة والخبرة اللازمة لإنتــاج وصُنْع خِفاف جديدة بحسب الطلب (نوعاً ومقاساً ولوناً) كما يُنتِج الفقيه المســتجمع لشــروط الاجتهاد وأدوات الصناعــة الفقهية حُكْم ما اســتجد من نوازل ووقائع؛ فيُلبســها أحكاماً تليق بخصوصياتها المحيطة بها بحســب الزمان والمكان والعـوائد والأحــوال. قـال - رحمه الله - في هذا الصدد: « فإن هذا الكتاب إنما وضعنــاه ليبلغ به المجتهـد في هـذه الصنــاعة رتبــة الاجتهــاد؛ إذا حصَّــل ما يجب له أن يحصِّل قبله من القدر الكافي له في علم النحــو والـلغة، وصناعة علم أصول الفقه، ويكفي من ذلك ما هو مســاوٍ لجــرم هــذا الكتــاب أو أقل. وبهذه الرتبة يســمى فقيهاً؛ لا بحفظ مسائل الفقه، ولو بلغت في العدد أقصى ما يمكن أن يحفظه إنســان، كما

(١) من شواهد ذلك مراعاة الإمام مالك - رحمه الله - لقول أبي حنيفة في مسألة وقوع نكاح الشغار، عملاً بأصل مراعاة الخلاف.

نجد متفقهة زماننا يظنون أن الأفقه هو الذي حفظ مسائل أكثر، وهؤلاء عَرَض لهم شبيه ما يَعرض لمن ظن أن الخَفَّاف هــو الذي عنده خِفاف كثيرة لا الذي يقدر على عملها، وهو بَيِّن أن الذي عنده خِفاف كثيرة ســيأتيه إنسان بقدم لا يجد في خِفافه ما يصلح لقدمه؛ فيلجأ إلى صانع الخِفاف ضرورة، وهو الذي يصنع للقدم خُفّاً يوافقه؛ فهذا هو مثال أكثر المتفقهة في هذا الوقت»[1].

رابعاً: التعصب في الأحكام التي اشــتُهر العمل بها في المذهب مع العلم بوجود المخالف لها من علماء المذهب نفســه، فأحرى بذلك أهل المذاهب الأخرى. مما يُفقد العالم مرونة وسَــعَة في استيعاب الأقوال المخالفة أو التعامل معها من غيــر تجريح وتنقيص لأهلها. ومن تأمَّل ســيرة أئمة المذاهب - رحمهم الله جميعاً - وتتبع أقوال كل واحد منهم في حــق من خالفه، وقف على نماذج راقية، ومستويات عالية في تدبير الاختلاف.

المقدمة الثانية: فقه أصول المذهب:

لـــا كان كل مذهب محكومــاً بأصول ضابطـــة لعملية الاجتهــاد فيه، وكانت أية محاولة للتصدي إلى الفتوى خارج هذه الأصول ضَرْباً في عماية وتجرءاً على دين الله، وتوقيعاً باسمه على غير علم وبصيرة، كان فِقْه هذه الأصول مطلوباً لتقلُّد منصب الفتوى في المذهب. غير أن تمام الفقه المقصود هنا؛ هو الفقه الذي يجمع بين العلم بها في نفســها، والعلم بمســالك فَهْمها، ثم العلم بكيفية إجرائها وتنزيلها وَفْقَ حال الزمان وأهله؛ فهو إذن فِقْه مقيد بشرطين:

- **الأول:** العلم، درءاً لما يقع بســبب الجهل بهذه الأصول من انحراف منهجي في الفهم والاستنباط، والتنزيل.
- **والثاني:** العمل، لئلا يصير العلم نفسه مقصوداً. والمراد بالعمل امتلاك القدرة على اســتثمار هذه الأصول وإعمالها فيما يَعرِض للنظر من قضايا مستجدة ونوازل طارئة.

ومَن خَبرَ هذه الأصول اكتشــف ما تنطوي عليه من منهج علمي تقعيدي مستغرِق لجميع مجالات النظر، وكليات متحررة (نظرياً) من قيود الزمان والمــكان غير قاصرة عليهما... مَنْ أحكَــم فقهها بضوابطها تحصَّل له الجــواب كما تحصَّل لمن قَبْلَه من فقهاء المذاهب المتقدمين؛ غير أن من استقرأ واقعنا اليــوم، وتأمَّل حصيلة الجهود التي تُبذل وبرامج التكوين التي تُعَد، ومستوى الأعداد التي تُخَرَّج سنوياً في مجال الشرعيات في الجامعات والمــدارس والمعاهد الدينية يتحصل لديه وجه القصور في تحقيق هذا الشرط.

ومـتى كان العالم المسـتجمع لشـروط العلـم النظرية مخلًا بشــروطه التربوية، لم يثق الناس به وإن حوى من أسـفار العلم ما لا يحصى كثرةً، وصارت إساءته إلى الدين قبل المذهب أكثر من خدمته

المقدمة الثالثة: القيادة التربوية:

إذا كان العلمــاء ورثة الأنبياء في القول والفعل والتقرير؛ فإن علــى العالم المنتصب لهــذه الوراثة العلميــة والإمامة التربويــة، أن يتخلــق - قبل غيره - بخِلالِهــا الربانية؛ فهي الميثاق الذي أخذه على نفســه، والعهد الذي سيُسأل عنه بين يــدي ربه؛ فلا خير في علم لم يُكسِــب صاحبه حِلْماً يتخلق به، وليأخذ بحـظ وافــر من ســيرة ســـيد العلماء، وأسوة الدعـــاة، وإمام الخطباء، وأمين خاتمة الرســالات محمد بن عبد الله ﷺ الذي كان لِخُلُقه ومعاملته أثر في خدمة دين الله، والتمكين لــه قبـل البعثة تمهـيداً، وبعدهـا تأسيســاً، فما كان ﷺ يلقى أصحابه إلا حَسَنَ السريرة، طَلْق الوجه، صادقاً في القول، مســارعاً في الفعل، حريصاً على الخير والنصح، مشــفقاً على الكل، أميناً عليهم فــي الدين والنفس والعِرض والمال حتى شــهد له الحق - جل وعلا - بحُسْــن الخُلُق في قوله - تعالى -: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُــقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وليتأمل بعده ســيرة أئمة المذاهب الذين تخلَّقوا بهدي النبوة؛ فجمعوا بــين القيادتين العلمية والتربوية، وهو ما كتب الله لهم به نوراً في الفهم، وذِكراً في الأرض، وإمامة في الدين، وشــهادة على الناس، وجعلهم مقصداً لطلب العلم والتخلُّق بآدابه.

ومتى كان العالم المستجمع لشروط العلم النظرية مخلًا بشــروطه التربوية، لم يثق الناس به وإن حوى من أســفار العلــم ما لا يحصى كثرةً، وصارت إســاءته إلى الدين قبل المذهب أكثــر من خدمته، ومثل هــذا لا يعوَّل عليه لا في خدمة الرســالة التي حُمِّل بها، ولا في خدمة المذهب الذي تصدَّر للإفتاء باسمه.

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد: ٢/ ٣٤٠.

المقدمة الرابعة: صِدْق التوجهات والأهداف:

وهو أمر موكول للحكومات والجهات المشرفة على تحديد البرامج وإعداد المخططات، و تنفيذ التوجهات:

فأما على مستوى برامج التكوين الخاصة بإنتاج العلماء، فـإن القاعدة في هــذا الباب هي أنــه: «لا يُنْتِج العالمَ إلا العالمُ»؛ إذ الأهلية فيما نحن فيه بشقيها (العلمي والتربوي) شـرط أساس، وأي اعتبـارات أخـرى تنقض هذا الشـرط، أو لا تبقي إلا رَسْمه تُعَد مجـازفة بمجـال لا يقبل ذلك؛ إن كنا – حقاً – نروم إنتاج علماء قادرين على تثبيت وحدة البلاد المذهبية، والتصدي لكل ما يهددها من شبهات وأفكار.

وأما على مســتوى الإجــراءات المتخَــذة (وأقصد بها التصرفات التي جــرى اللجوء إليها فــي المتابعات الأمنية والبرامج الإعلامية)؛ فعلى الحكومات أن تتحمل مسؤوليتها الدينية والأخلاقية؛ إذ ما نلمســه اليــوم من ازدواجية في الخطاب على مســتوى الإعلام الرســمي الذي يســتخف بقضايا المواطنين المســلمين ويخدش مشــاعرهم وقيمهم، يجلِّي مــدى مصــداقية الشــعارات المرفوعة بخصــوص المواطَنة وثوابت الأمة، ومذاهبها، مما يفضي – مــن حيث نعلـم أو لا نعلم – إلى عزوف وجداني وســلوكي عـن كـل ما هو رسمي. يضاف إلى ذلك سوء الإجراءات الأمنية التــي تعاطــت بها بعض الحكومات مع ملف (الإرهاب) والتزامهــا لمنطــق المحاكمات الجاهزة والمبيتة بــدل المحاكمات العادلة التي تجري على استصحاب أصل البراءة ما لم يثبت خلافه؛ ممــا أدى إلى اعتقالات فاق عددها أحيانــاً ما تم اعتقاله في أمريكا نفسها إثر أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ومثل هذا الإجراء في معزل عن منطق العدل والحوار تزيد من تأجيج مشــاعر الحقد والتطرف والنقمة على البلاد والعباد حتى ممن ثبتت إدانتهم؛ لأن القناعات والاعتقادات التي تشربتها العقــول والقلوب يصعب محوهــا أو التأثير فيها بغير حوار جاد، وإن تأثر الجسد بشكل من الأشكال.

المقدمة الخامسة: تفعيل دور مؤسسة الفتوى:

مــدار الكلام في هذه الفقرة حــول ضرورة تفعيل دور مؤســســة الفتوى لتكون أكثر حضوراً وواقعية في تجســيد اســتقلاليتها بالفتوى ورعايتها لخصوصيات البلاد المذهبية والعقديــة؛ حتى تضطلــع بدورها المنوط بهــا، وتقوم بحق الأمانة الملقاة على عاتقها، ولا تظل انشغالاتها حبيسة قضايا محدودة، ونوازل معدودة، أو رهينة مناســبات معينة وردود أفعال تتحكم فيها توجهات سياسية ظرفية.

إن ما يلقيه الواجب الشرعي على عاتق مؤسسة الفتوى من مسؤولية البيان للناس فيما يَعرِض لهم من قضايا، ويروج بينهم من آراء ومواقف، أو يُتداوَل بينهم من عقود ومعاملات، يتطلب منها تطوير عملها وتحسين أدائها؛ ليكون أكثر فعالية وأقوى من جهة، والاســتفادة – من باب ما لا يتم الواجب إلا بــه – من خبرة الثقات من أهلهــا في مختلف التخصصات لصناعــة الفتوى على منهج علميٍّ ســديد يجمع بين النظر فــي أدلة الحكم، والنظر في مناطاتهــا، أو قُل: بين الخبرة الشــرعية والخبرة الواقعية من جهة أخرى؛ لأن أي حديث عــن الفتوى خارج هذا المنهج يعــد إخلالاً بأصول الاجتهاد وقواعده المعتبَرة باتفاق أهل المذاهب؛ إذ كيف يُسْــتَقل في النظر في استنباط حكـم مادة معينـة أو معاملة مصرفيـة أو قضيــة اجتماعيــة أو نازلة طارئة من غيــر خبرة كافية بطبيعتهــا وعناصرها ودراية عميقــة بتفاصيلها وصورها، وفقه لحالها ومآلها وإحاطة شــاملة بملابساتها السياسية والاقتصادية والاجتماعيــة. يقول ابن قيم الجوزية – رحمه اللــه – تنبيهاً على ما نحن فيه في مجال العقود والمعاملات المصرفية: «وقول القائل: إن هــذا غرر مجهول؛ فهذا ليس حظ الفقيه ولا هو من شــأنه، وإنما هذا شأن أهل الخبرة بذلك؛ فإن عدُّوه قِماراً أو غرراً؛ فهم أعلم بذلك. وإنما حظ الفقيــه يُحِل كذا؛ لأن الله أباحه ويُحرِّم كذا؛ لأن الله حرَّمه، وقال الله، وقال رســوله، وقال الصحابة. وأما أن يرى هذا خطــراً أو قِماراً أو غرراً فليس من شــأنه، بل أربابه أخبر بهذا منه، والمرجع إليهم فيــه كما يُرجَع إليهم في كون هذا الوصــف عيباً أم لا، وكون هذا البيع مربحاً أم لا، وكون هذه السلعة نافقة في وقت كذا وبلد كذا ونحو ذلك من الأوصاف الحسية والأمور العرفية؛ فالفقهاء بالنسبة إليهم فيها، مثلهم بالنسبة إلى ما في الأحكام الشرعية»[1].

إن مساهمة مؤسسة الفتوى في خدمة المذهب والحفاظ على وحدة البلاد يقتضي أن يتسم دورها – فضلاً عن أهلية القائمين عليها – بوصفين:

الأول: الفاعلية؛ لتحقيق حضور قوي ينسجم ومقاصد إحداثها.

(١) إعلام الموقعين: ٤/٥.

والثاني: العلميــة؛ للتعاطي مع ما يُعْــرَض عليها من قضايا ونوازل بمنهج علميٍّ شرعي بعيداً عن العـواطـف؛ إذ كثيـراً ما نقف أمام أقوال وأحكام مخالفة للمذهب؛ سواء في مسائل الفقه أو العقائد لايقدَّم فيها جواب شافٍ ورأي واضح وقول فَصْل - خاصة - أمام الأفكار والشبهات المثارة أحياناً من الداخل والخارج، مما يضـر بالمذهـب نفسـه ويظهـره - أحياناً - في صورة أقوال وأحكام أُخذت مســـلَّمة على ســبيل التقليد، لا على أصول شرعية واستدلالات صحيحة وتعليلات معتبَرة، واستنباطات دقيقة.

المقدمة السادسة: تجديد الحركة الدعوية:

إن علاقة العمل الدعوي بما نحن فيه أشــد إن لم يكن آكد؛ إذ من الخطأ أن نفصل بــين الحركة العلمية المذهبية والحركــة الدعوية؛ فنعُدُّ إعادة هيكلة المؤسســات العلمية وتنظيــم مجال الفتوى كافياً وحــده في الحفاظ على وحدة البلاد المذهبية؛ مع أنه مطلوب لأهميته، كما تقدم.

إن مــا تتعرض له البلاد الإســلامية اليوم من هجمات شرسة تَمَسُّ الوعي الديني للأمة، وتضرب في عمق وجدانها التربوي، وتفســد صفاء فطرتها وتســلبها هويتها العربية والإســلامية وتهدد أمنها الروحي وانتماءها الديني، أشــبه بمعركة تدور رحاها على الإنســان شكلاً ومضموناً، شــعوراً وســلوكاً، طيناً وروحاً؛ معـركة لا تهـدد المذهــب وحســب، بل تهدد دين الأمة وثوابته العقدية والعملية؛ إنها هذه قضية حِفْظ الدين الذي يُعتبَر من كليات الإسلام الواقعة في أعلى رتب المقاصد الدينية وأصول المصالح الشــرعية، والأساس الــذي تنبني عليه وحــدة البلاد الدينيــة والمذهبية، قضية هي مــن أوجب الواجبات وآكدها علــى كل حركة مذهبية؛ إنهــا قضية تتجاوز كل رؤية مذهبيــة جزئية أو نظر فقهي تفصيلي لمن كان له أدنى علم بمراتب الأمور أو بصيرة بفقه الأولويات؛ إذ كيف نتحدث عــن حِفْظ المذهب وخدمته إذا اندرســت ثوابت الدين وانخرمت أمهــات الفضائل، وضاع الإحســاس بقيمة الانتماء للإسلام، وصار المعلوم من الدين بالضــرورة كغير المعلوم، وتعلقت القلوب والمشــاعر بولاءات غير ولاءات الإسلام وأهله؟

إذا كانت القضية - باختصار - هي قضية حفظ الإسلام التي تضافر على قطعيتها ما لا يحصى من نصوص الكتاب والســنَّة النبوية، فإن واجب الأمانة والشهادة يفرض يقظة اســتعجالية تقوم على بذل الجهد واســتفراغ الوسع؛ لبناء الحركة الدعوية وتجديد سَــيْرِها على منهج القرآن؛ ليعيد إليها حياتها وينفخ فيها من روحه وتهتدي بعلاماته وتقتبس من أنواره وتسترشد ببياناته، وتلمس من روعة خطابه الرباني الذي يضفي على القلوب صبغة وجدانية جمالية تصل الخلق بالخالق والأرض بالسماء والدنيا بالآخرة.

كيف يُسْتَقل في النظر في استنباط حكم مادة معينة أو معاملة مصرفية أو قضية اجتماعية أو نازلة طارئة من غير خبرة كافية بطبيعتها وعناصرها ودراية عميقة بتفاصيلها وصورها، وفقه لحالها ومآلها وإحاطة شاملة بملابساتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

إن القرآن، والقرآن وحده، لو أُخِذ بشرطه كفيل بإعادة نفخة الروح إلى هذا الطين؛ حتى يكتمل استواؤه خَلْقاً مكرَّماً، وتثبيتِ صلته بمعاني الدين وقيمــه الكلية، والارتقاءِ به من درجة العبودية الاضطرارية إلــى مقام العبودية الاختيارية، ولتصنع فيه آيــات الله ما صنعته فــي الجيل الأول؛ حيث لم تنطلق جهود التربية النبويــة ومجالس الدعوة وحركاتها إلا مسترشــدة بآيات الكتاب التي أعادت صناعة الإنســان على عين الله، وجددت سَيْرَه على صراطه، فأنطقت فطرته، وأســمعته نداء خالقه، وبصَّرَته بحقائق الوجود، وأقامت في نفسه معاني الدين، وأذاقت قلبه حلاوة الإيمان وطعم الصلة بالله، ولذة الأنس به، وعرجت به في مدارج السالكين ومنازل المؤمنين.

كان ذلك صنع آيات الله في الخلق وما يزال.

وكان ذلك منهج رسول الله ﷺ وما يزال.

وكان ذلك منهج ورثته من أهل العلم والفضل وما يزال.

فماذا بعد العلم إلا العمل؟



من يستنهض كوامن الخير في الأمة الإسلامية؟

أ. د. عبد الوهاب بن لطف الديلمي(*)

إن المتتبع لتاريخ الأمة الإسلامية والمتأمل في ما تعرضت له من هزات عنيفة على مدى التاريخ، سواء بسبب عوامل خارجية: من حروب طاحنة، ومؤامرات ماحقة، وكيد بليغ الغاية في النكاية، وعوامل داخلية: من تمزُّق وحروب، واختلاف وجهل وغير ذلك، إن المتتبع لذلك يرى أنها الأمة الوحيدة التي ظلت عصية أمام العواصف؛ فكلما أصابتها كبوة، ونزلت بها عثرة، قامت معافاة، سليمة، تستجمع قواها، وتلملم جراحها، وتستأنف السير في طريقها إلى الله، عز وجل. فلم تخضع لذوبان، ولم تدخل في قاموس قانون الحضارات التي تمر عليها سُنَّة (سادت ثم بادت) كما هو شأن كل حضارة تمر بمرحلة الشباب ثم الشيخوخة ثم الانقراض؛ فعلى الرغم مما أصابها من محاولة مسخ شخصيتها، وتعرضها للاحتلال الذي حاول أن يستلب منها كل مقومات حضارتها، وأن يذيبها في الانحلال الخلقي، وأن يصرفها عن مقومات وجودها، وعزتها، إلا أنها دائماً تنهض وتستعيد عافيتها.

(*) وزير العدل اليمني سابقاً، ونائب رئيس جامعة الإيمان - صنعاء.

ذلـك أن الدرع الواقي لها من السـقوط هـو «العقيدة المستمدَّة» من كتاب الله - تعالى - وسنَّة رسوله ﷺ، كما كانت القوة الدافعة لها في مواصلة السير، وتناسي الآلام والجراح، وهذا يكشل أملاً مشرقاً بمستقبل مضيء مليء بالتفاؤل.

إن هـذه الأمـة ذات قـدرة وأهلية، على استعادة حضارتها بمقوماتها المادية والمعنوية، وأن تقوم بمهماتها في إشاعة الرحمة في العالمين، كما هو شأن دينها خاتم الأديان.

إنها وحدها صاحبة القيم المستَمَدة من شرع الله، تعالى. كما أنها صاحبة الوراثة النبوية. ومعنى ذلك أنها هي المؤهَّلة دائماً لإمداد العالم بما عندها من مشارق الأنوار التي تضيء الدرب لكل سائر إلى الحق وعلى الحق. وكم رأينا على مدى التاريخ أن شمسها كلما أفلت من جانب أشرقت من جانب آخر.

وإذا كنا نـدرك اليوم ندرة العلمـاء الربانيين المجدِّدين بسبب عوامل كثيرة عصفت بهذه الأمة، إلا أن مقومات القدرة على استعادة القوة في هذا الجانب ما تزال حية.

فعند هذه الأمة الكثير الكثير من الإمكانات التي تؤهلها إلى أن تدفع بكثير من شبابها المنطلق إلى غدٍ مشرق، المحترق على أوضاع أمته، والغيور علـى دينه إلى الهمم العالية وإلى أن يتسـلم الراية من جديد؛ ليجدد معالـم هذا الدين بعلم وبصيرة نافذة متوقدة، وعمـل دؤوب، وفقه غزير ورؤية إلى الواقع صائبة، وقدرة على مواكبة الأحوال، ومعالجة المشكلات المسـتجدة، وإعادة الطمأنينة والثقة إلـى نفوس هذا الدين وعودتهم من جديد إلى الله.

وأولى النـاس بالقيام بهـذه المهمة العظيمـة، العلماء الربانيون الذين أخذوا على عواتقهم النهضة بالأمة في جانب العلم، والمعرفة، مدركـين أن حاجة الأمة اليوم إلى من يأخذ بيدها إلى شـاطئ الأمان في أمور دينها ودنياها، أشـد من حاجة العطشان إلى الماء البارد في اليوم الحار.

فالأمل إذاً معقود - بعد الله - على المجددين والمصلحين في العالم العربي والإسلامي، أن ينهضوا بهذا العبء الثقيل، ذي الشرف الرفيع، في الدنيا والآخرة، وأن يسدوا هذه الثغرة العظيمة من حياة الأمة.

إن الإنسـان اليوم يعاني من أزمات شتى تكاد تعصف به؛ فالخواء الروحي، والتمزق المهول، والأثرة، وتفشي الظلم، والغرائز البهيمية البارزة في مناحي الحياة، والضياع الذي تعيشـه كثير من شـعوب العالم، بسـبب البعد عن دين الله، وشيوع الجهل، وغلبة الأهوال، واسـتحكام البدع، والإعراض عن الاحتكام إلى شرع الله، سبحانه. كل هذا وغيره يستدعي المبادرة إلى التفكير الجاد في تأهيـل العلماء والدعاة، والمفكريـن الربانيين الذي يصبحـون منارة للناس، ومعالم يهتـدي بهم الحيران، وقدوات سامية يحذوحذوها كل عاشق للخير والفضيلة.

ومحاضن التربية الجادة القائمة اليوم في عدد من أقطار العالم الإسـلامي، قادرة على أن تسهم إسهاماً كبيراً في إنجاح هذا الهدف العظيم إذا ما تآزرت كلها في تحقيق هذه الأهداف الجسيمة، ثم من خلال: «المشاركة في تأهيل الرعيل المطلوب»؛ إذ بعد المرحلـة الأولى التي تكون حافلـة بالتأهيل من خلال التلقي، والحفظ، يدخل الشاب الناشئ مرحلة أخرى لا تَقِل عن سابقتها، وذلك من خلال حَمْله على ممارسة الحياة العلمية في جوانب كثيرة، خاصة في المسـتجدات التي تستعصي على كثير من الناس كيفية التعامل معها من الناحية الشرعية حتى تتفتح الآفاق أمام الشاب، ويستطيع من خلالها الوقوف على قدميه.

إننا نحن نرى واقع الأمة الإسلامية وكيف أنها قد أصيبت بقلّة العلماء الربانيين؛ لعـدم وجود منابع للعلم تنتج النوعية المثالية من العلماء، إلى جانب ما يلامسـه الجميع من عزوف الشـباب عن الانكباب على طلب العلـم لوجود عوامل كثيرة في العصـر الحاضر، الذي فُتن فيه كثيـر من الناس بكثير من مظاهـره، وفُتِحت الدنيا عليهم، فأنصرفوا إليها يبحثون عن شـيء من متاعها، وزينتها في تنافس محموم، مع غياب القدوة الحسـنة التي تضرب الأمثلـة الرائعة، فتجدد بذلك منهج وسلوك السلف الصالح.

إن التجديد يعني إحياء ما اندرس من معالم الدين في حياة الناس، وما اندرس كذلك من علوم الشرع، بسبب ندرة حَمَلته الربانيين.

وما تزال النفوس مطمئنة كل الإطمئنان إلى وعد رسـول الله ﷺ الذي لا يتخلف وذلك في الحديث الذي رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يبعث لهذه

الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[1].

والسعي إلى إيجاد العلماء الربانيين، هو سعي إلى تحقيق من يسد ثغرة في حياة الأمة؛ إذ التجديد لدين الله - عز وجل - يفتقر إلى من يتمتعون بصنوف كثيرة من أمور الدين: كالعلم، والجهاد، ونشر العدل، والدعوة إلى الله - عز وجل - وغير ذلك.

قال الإمام النووي في حديث الطائفة[2]: ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة في أنوع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدِّثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض[3]. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح بعد أن ذكر كلام الإمام النووي: ونظير ما نبَّه عليه ما حمل عليه بعض الأئمة حديث: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»، أنه لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط، بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة؛ فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد؛ إلا أن يُدَّعى ذلك في عمر بن عبد العزيز؛ فإنه كان القائم على رأس المائة الأولى، باتصافه بجميع صفات الخير، وتقدُّمه فيها. ومن ثَمَّ أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه. فعلى هذا كل من كان متصفاً بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد سواء تعدَّد أم لا» انتهى باختصار[4].

وقال المناوي تعليقاً على قول السيوطي: «الحمد لله الذي بعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها». قال: «أي مجتهداً واحداً، أومتعدداً، قائماً بالحجة، ناصراً للسُّنة، له مَلَكة رد المتشابهات إلى المحكمات، وقوة استنباط الحقائق والدقائق والنظريات من نصوص الفرقان، وإشارته ودلالته، واقتضاآته: من قلب حاضر، وفؤاد يقظان». وعند قوله: «أَمْر دينها» قال: أي ما اندرس من أحكام الشريعة، وما ذهب من معالم السنن وخفي من العلوم الدينية الظاهرة والباطنة، حسبما نطق به الخبر الآتي، وهو: «إن الله يبعث... إلى آخره»[5]؛ وذلك لأنه لما جعل المصطفى خاتم الأنبياء والرسل وكانت حوادث الأيام خارجة عن التعداد، ومعرفة أحكام الدين لازمة إلى يوم التناد، ولم تفِ ظواهر النصوص ببيانها، بل لا بد من طريق وافٍ بشأنها، اقتضت حكمة الملك العلاَّم ظهور قَرم[6] من الأعلام في غرة كل قرن ليقوم بأعباء الحوادث إجراء لهذه الأمة مع علمائهم مجرى بني إسرائيل مع أنبيائهم» انتهى[7].

وقال في عون المعبود بعد أن سرد أقول كثير من أهل العلم في معنى التجديد: «فظهر أن المجدد لا يكون إلا من كان عالماً بالعلوم الدينية، ومع ذلك من كان عزمه، وهمته، آناء الليل والنهار، إحياء السنن ونَشْرها، ونَصْر صاحبها، وإماتة البدع، ومحدثات الأمور ومحوها، وكسر أهلها باللسان، أوتصنيف الكتب، والتدريس، أوغير ذلك. ومن لا يكون كذلك لا يكون مجدِّداً البتة، وإن كان عالماً، مشهوراً بين الناس مَرْجعاً لهم»[8].

إن وجود علماء ربانيين يتولون القيام ببيان حكم الله - تعالى - بالاستناد إلى كتاب الله - تعالى - وسُنة رسوله ﷺ، ومراعاة المقاصد الشرعية، والمصالح المرعية، وخضوع الحاكم والمحكوم لهذه الأحكام، كفيل بإشاعة الأمن والطمأنينة، وحماية الأرواح، والدماء، والأموال، والأعراض، والظفر بالحياة الكريمة الآمنة.

ومن خلال ذلك تبرز محاسن الإسلام ومكارمه التي طَمَرها فشوى الجهل، وغياب أهل العلم، وعدم سلامة التطبيق في ممارسات الناس، وهو ما أوجد ثغرة لأعداء الإسلام ينفذون من خلالها لتشويه الإسلام والتشكيك في عالميته، وفي صلاحيته

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم: ٢/٥١٢/٤٢٩١، والحاكم: ٤/٥٢٢، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: ٥١٢.
(٢) إشارة إلى حديث: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين لا يضرهم من خذلهم... الحديث.
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٣/٦٧/١٩٢٠.
(٤) فتح الباري: ١٣/٢٩٥.
(٥) إشارة إلى الحديث المتقدم.
(٦) في القاموس: القرم (بالفتح) السيد.
(٧) فيض القدير شرح الجامع الصغير: ١/٩.
(٨) عون المعبود شرح سنن أبي داود: ١١/٢٦٣-٢٦٤، رقم الحديث: ٤٢٩١. كتاب الملاحم.

لا بد للأمة اليوم أن تتجاوز حدود الجهود الفردية في معالجة مشكلاتها، وأن تتضافر الجهود في النهوض بالأعباء الجسمية التي تحتاج إلى صبر، وجَلَد وتضحيات.

لكل زمان ومكان، وفي قدرته على مسايرة الأحداث وتطورات الحياة. والجميع يدرك أن الأمم تتداعى على أمة الإسلام اليوم، وأن كل شيء في هذا الدين أصبح مستهدَفاً، حتى وُجِدت معاول الهدم من داخل بيئة المسلمين.

إن المسلمين اليوم لا بد أن يدخلوا في حقبة جديدة متميزة من تاريخهم؛ بحيث يستعيدون مجدهم وعزتهم، ومكانتهم السابقة بين الأمم، وأن لا يظلوا دائماً في مؤخرة الركب، وهم أصحاب والريادة والقيادة للإنسانية كلها.

لا بد للأمة اليوم أن تتجاوز حدود الجهود الفردية في معالجة مشكلاتها، وأن تتضافر الجهود في النهوض بالأعباء الجسمية التي تحتاج إلى صبر، وجَلَد وتضحيات، وذلك شرف وأي شرف يحظى به الصادقون المخلصون من أبناء هذه الأمة.

إن تضافر الجهود في خدمة الإسلام يعبر تعبيراً صادقاً عن وحدة الأمة الإسلامية وتماسكها، وحُسْن تعاملها وتعاونها على البر والتقوى، وشعورها بالمسؤولية الملقاة على عاتقها.

إن نداءات المشفقين اليوم من هذه الأمة تتداعى لإعادة النظر في أحوال الأمة والقيام من الكبوة التي وقعت فيها، والالتفات إلى ما أكرمها الله به من مقومات وكفاءات في مجالات شتى، يمكنها أن تفعل الكثير في خدمة الإسلام وإعادة الصف، وجمع الكلمة، وشدِّ آصرة الأخوة الإيمانية، وحل المشكلات.

إنني أعتقد جازماً أن الهموم مشترَكة، وأن الحديث عنها قد فاض واستفاض، غير أن الأمر يحتاج إلى همم عالية؛ ذلك أن العجز والكسل، ليس من طبيعة المؤمنين، وكما أن الله - تعالى - لا يمكن أن يهب النصر والتمكين لأمة استسلمت لهذين الدائين العظيمين (العجز والكسل)، فكذلك التفاؤل، وعدم اليأس، هوالأصل في شأن المؤمن الصادق الواثق بوعد الله، المعتصم بالله، المتمسك بحبله، السائر على هداه.

لقد كان الناس ييأسون من ثمرة اللقاءات المتنوعة التي تُعقَد هنا وهناك بين الحين والآخر لـِمَا يرون من عدم الجدية في العمل لـِمَا تخرج به من قرارات وتوصيات، ونحن لا نريد أن يكون أهل العلم، والمعرفة، من المساهمين، في صنع اليأس في النفوس، بل يجب أن يكونوا مثالاً يحتذى، وأن يخرجوا من إطار الشكليات والأنماط المتكررة المجوجة إلى الجد وصدق العزم والبدء بخطوات عملية تنتقل بالأمة من إطار الكلام، والحوار، والنقاش، وتسويد الصفحات، إلى التطبيق والعمل الجاد المثمر.

إن (العلم) هوالقاعدة الصلبة التي تقوم عليها نهضة الأمم والشعوب، لكن لا على أنصاف المتعلمين، ولا على المتعالمين. وإنما على أصحاب الرسوخ في العلم، وأعني بـ (العلم) هنا: معناه الشامل الذي يخدم كل مصالح الدين والدنيا.

وبهذا يمكن الدفع بالأمة إلى حياة أفضل في مستقبل مليء بالخير والأمن، والاستقرار، والعدل الوفير، وكل هذا لا يمكن تحقيقه إلا بإشاعة الأخوة الإيمانية، وأن تهيل التراب على التعصب المقوت بكل أشكاله وصوره. قال - تعالى -: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠].

ولا يفوتني هنا أن أُشيد بالجهود الإصلاحية التي يقوم بها كل غيور على دين الله - عز وجل - ممن آثروا الآخرة على الدنيا، وتطهرت نفوسهم من درن حظوظ النفس واستعلت هممهم على الاستشراف إلى حطام الدنيا: من جاه، أوسمعه، أومال... أوغيرها.

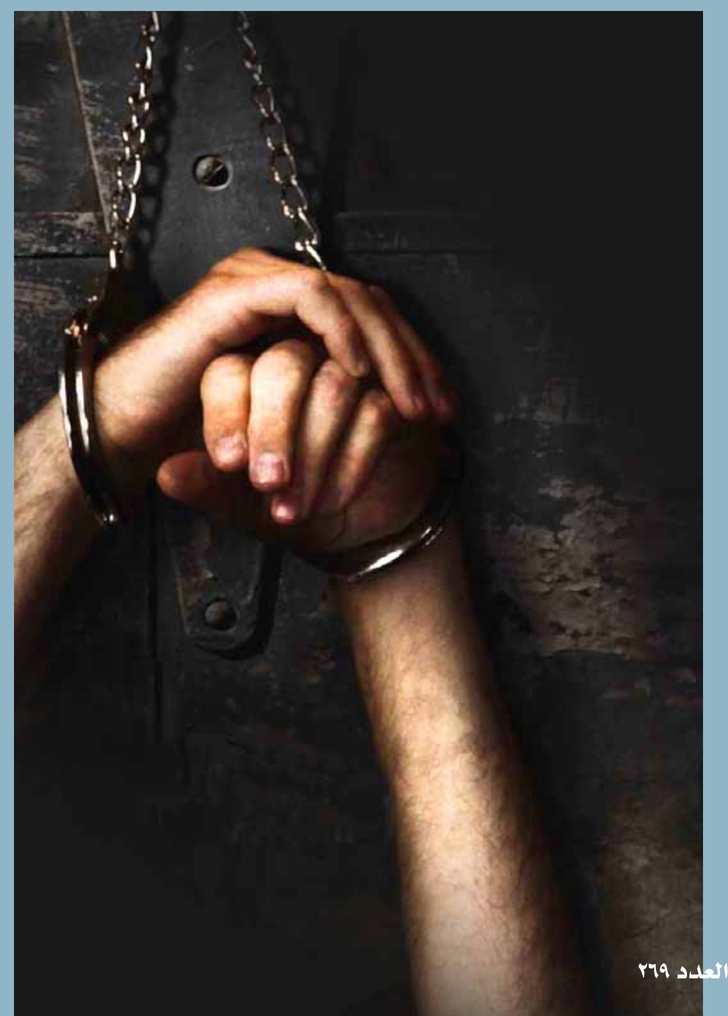
كما أقول للذين سقطوا في حمأة السراب الساطع، إيثاراً للسلامة وحباً للدعة، وانطواءً على النفس، أقول لأمثال هؤلاء، مذكراً بقول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨]، وقوله - تعالى -: ﴿ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٩]. وقوله - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

اللهم! اعصمنا من الزلل، واستعملنا في أحب الأعمال وأرضاها إليك، ولا تَفْتِنا بهذه الحياة الدنيا، ونعوذ بك من أن ننشغل بها عن الآخرة آمين.

سِـوار الوَهْـن

فيصل بـن علـي الكاملي

في إطـار اهتمام مجلة البيان بتبصير القارئ العربي المسـلم بما يحيط به من أمواج متلاطمة من العقائد الضالة والأفكار المنحرفة، تـبـرز أهمية وجود نواة لدراسـة متخصصة في عقائـد الغرب، من شـأنها أن تُسهم في نقلِ المعركة الفكرية إلى ساحة الخصم، فتحرِّرَ المسـلم من الأزمة الدفاعيـة الاعتذارية، وتُصحِّـحَ بعض المفاهيم الخاطئة لديه، والتي تراكمت من جراء كتاباتٍ مُرتَجَلة، كما تلقي الضـوء علـى دَوْر هذه العقائـد في توجيه المجتمع الغربي «رؤسـاء ومرؤوسـين»، وترصد الجديد في هذا الميـدان. من هنا جاءت فكرة زاويـة «الغـرب: دراسـة عقدية» بـذرةً جديدةً تغرسـها المجلة في بستانها الوارف عسى أن تؤتي أُكُلها، ولو بعد حين.



وبينمـــا كنت أُزوِّر كلماتٍ أســـتهلُّ بها هـــذه الزاوية، إذ دعاني أحد الإخوة إلى مكتبه ليريني شـــيئاً مقلقاً هذه المرة، بعد أن كان نحَلني نســـخة من كتاب «هركولوبوس أو الكوكب الأحمر» لـ «ف. م. رابولو». أدخل صاحبي يده في درج مكتبه وأخرج صندوقاً صغيراً. ناولني الصندوق قائلاً: «شـــاع هذا بين الشـــباب، فأحببت أن أُطلعك عليه؛ ولنتحدث حوله في الأسبوع القادم إن شاء الله».

خالجني شعور غريب عندما قلَّبت محتوى الصندوق الذي بدا مألوفاً جداً. كان الصندوق يحوي سواراً وعِقداً صُنعا من أنبوب مطاطي تصل طرفيه قطعةٌ معدنية. كُتب على الصندوق بالإنجليزية «Energy Ring»؛ أي: «سِوار «أو حلقة» الطاقة»، وفيه نشرة تؤكد على أن السوار والعِقد يحويان «مواد طبيعية»، «تلك المواد لها خواص غامضة؛ حيث إنها تســـتطيع امتصاصَ الطاقة الطبيعية وتكديسَـــها وتكثيفَهـا ثم إعادة بثِّها مضاعفة مئات المرات»؛ فما حقيقة هذا السوار؟

إن الـــدارس للعقائد الباطنية يجد أن «ســـوار الطاقة» المعـــروفَ منذ القِدَم، يقـــوم على مبدأ وثنـــي يزعم أن كل شـــيء في الوجود - بما في ذلك الإنســـان - تنســـاب فيه «قوة خفية» تدعـــى باللاتينية: «نومن» Numen. وأن هذه القـــوة أو الطاقة ذات ارتباط بالآلهـــة التي هي الجـن فـي الحقيقة؛ فمن استطاع أن يحرك تلك القوى الخفية استطاع أن يتحكم في العالم المادي المرئي بشكل يُحصِّل له أعلى قَدْر من النفع. وهـــذا المعتقَد الباطني أصلٌ عند القائلين بوحدة الوجود وتناسخ الأرواح.

فإذا نظرنا إلى الهندوسية - مثلاً - وجدناها تعتقد وجود «طاقة كونية» تسمى: «برانا» Prana تنساب في الهواء الذي نستنشـــقه. ولهذا نجد جُل ممارسات ما يعرف بـ «الـيوجا» Yoga يعتمد على هذا المبدأ؛ فهذه الممارســـات - كما يزعم أصحابها - تركِّز هذه الطاقة المنتشـــرة في الهواء لتوزعها في الجسد؛ فـ «الـيوجا» ليســـت مجرد ممارسات رياضية لزيادة مرونة الجســـم، بل هي معتقَد يَســـعى «اليوجيُّ» من خلاله إلى «الاتحاد» مع الإله؛ ولـــذا فإن الأوضاع المختلفة التي يتخذها تسمى بأســـماء الآلهة. ويشترك مع الهندوس في هذه الطقوس البوذيون والجَينيون[1].

(1) Tigunait, Rajmani. Seven Systems of Indian Philosophy, (Honesdale, Pennsylvania: Himalayan Institute Press, 1983), p. 171.

هذا المبدأ الـــذي تقـوم عليـه تلـــك الطقـوس هو عين ما يعتمده مُروِّجو «ســـوار الطاقـــة» ذي «الخواص الغامضة «التي تســـتطيع» امتصـــاص الطاقة الطبيعية وتكديســـها وتكثيفها ثم إعـــادة بثِّها مضاعفة مئات المرات». ولهذا نص أحـــد المواقع الإلكترونية التي تبيـــع مجوهرات الطاقة على أن ســـوار الطاقة - بالتحـديد - يوظِّـــف مبـدأ: «التقـاء الطبيعـة بما وراء الطبيعة» وأنـــه يُســـتخدَم من قِبَل حكماء «ريكي» Reiki وحكماء «تْشَكرا» Chakra[2]، وكلتاهما من الممارسات الباطنية الشرقية التي تعتمد مبدأ الطاقة الخفية في «الأثير» وأن للإنسان المادي المحسوس «توأماً روحياً» في الفضاء؛ فمتى أمكن الوصول إلـــى ذلك التوأم الروحي عن طريق الطقوس الباطنية وبعض الطلاسم انعكس ذلك على طاقة الجسد المادي، فشعر بالخفة. وقد لقيَتْ هذه الترهات رواجاً في بلاد الغرب[3].

وهناك ممارســـة رائجـــة أخرى تُعرَف بـــ: «كُنداليني» Kundalini وتقـــوم علـــى مبـــدأ مماثل، هـــو: أن العمود الفِقْري للإنســـان يحوي طاقة كامنة تمتد من عَجْب الذَّنَب إلى أعلى الرقبة. فإذا تخللت الـ «برانا» المنتشـــرة في الهواءِ العمودَ الفِقْري عن طريق بعض الممارسات الباطنية نهضت عند المرء «كُنداليني» - التـــي هي: «إلاهة، أفعى» تلتف في قـــاع العمود الفِقْري، ممتدة إلى أعلى الرقبة فيشـــعر المرء بنشوة و «استنارة»[4].

لقد بدأت الدعوة إلى الباطنية والســـحر باسم الطاقةِ وتحريكِ كوامنها تأخذ أشكالاً عدة، لعل شكلاً منها يرُوج بين أهل الإسلام، فيصـــابون في مقتـل. مـــن هـــذه الأشـــكال ما شـــاع بين النـــاس مـــن خبـــر «الكوكـــب الأحمر» الذي «يوشـــك» أن يصطدم بالأرض! وكان ســـبب هذا الإرجاف المؤلِّـــف البـاطنـــي: «ف. م. رابولو» وكتـابـه «هركـولـوبوس أو الكوكـب الأحمر» الذي وُزِّع مجاناً بلغات شتى.

يزعـــم «رابولو» فـــي كتابـــه أن كوكباً أحمـــر يُدعى: «هركولوبوس» يوشك أن يصطدم بالأرض، وأنه لا ملجأ من هذه القارعة إلا ما يسميه: «الكشف أو «الإسقاط» النجمي» Projection (Astral Unfolding) الـــذي يرتكز حول

(2) http://www.energy-ring.com/

(3) Leadbeater, C.W. The Chakras (Wheaton, Illinois: Theosophical Publishing House, 1926), p. 1.

(4) Krishna, Gopi|James Hillman. Kundalini: The Evolutionary Energy in Man (Taylor|Francis, 1971), p. 98.

«الجسد النجمي» في «البعد الخامس»؛ حيث القوى الباطنية الخفية التي بـ «الإمكان إخضاعها للقوى البشرية». ثم يعرِّف هذا «الجسد النجمي» بأنه: «جسد شبيه تماماً بالجسد المادي، ولكنه مصنوع من الطاقة وهو يسير بسرعة هائلة كما تسير الفكرة»[1]. ولممارسة «الإسقاط النجمي» والخلاص من تلك القارعة يمكنك ربط جسدك المادي بالجسد النجمي المصنوع من الطاقة ومن ثَمَّ بالقوى الخفية «الجن والشياطين» في «البعد الخامس» عن طريق ترديد بعض «الكلمات السحرية، ومتى شعرتَ بأن تياراً يسري في جسدك كله من أخمص قدميك حتى قمة رأسك، فانهض واقفز إلى أعلى قليلاً وسترتفع في الحال»[2]. وهو كما ترى شعوذة تدور حول مبدأ الطاقة الخفية والتوأم الروحي.

إن مثل هذه الشعوذات التي تدَّعي حبس الطاقة وبثَّها في الجسم البشري، ينبغي ألا تجد طريقها إلى قلوب أهل التوحيد، كما ينبغي أن ينبَّه لخطرها الآباء والأمهات على وجه الخصوص؛ فنحن نرى أشكالاً مختلفة لها فيما يُعرض للأطفال في الرسوم المتحركة من قيام البطل - مثلاً - برفع يده ذات السوار فتتركز حوله أطياف النور الأخَّاذة الباهرة ويُشع سواره بالطاقة التي اكتسبها من الطبيعة، وبذا يصبح قادراً على سحق خصمه، بل لقد رأيت بعض الشخصيات الكرتونية تطلب من الطفل المشاهد أن يركض معها ليُكسِب سوارها مزيداً من «الطاقة»!

ولما تصفَّحت بعض مواقع الإنترنت التي تروِّج لمثل هذه الزندقة وجدت الكثير منها يبيع أَسورة الطاقة وقلائدها جنباً إلى جنب مع الطلاسم والتمائم، بل إن منها ما يُصرِّح بأنها تُحصِّن حاملها من الشرور وتمنحه قوة سحرية. ولعل هذه الصراحة هي ما دعا المتربصين بالإسلام إلى أن يستبدلوا بـ «سوار الطاقة» سواراً آخر عَلَّه يكون أكثر رواجاً، فظهر ما يعرف بسوار «ابن سينا» الطبي، ولا أدري لِـمَ اختير «ابن سينا» ليكون «علامة تجارية»؟ أَلأنه كان طبيباً؟ أم لأنه كان باطنياً؟

يكاد «سوار ابن سينا» يطابق في شكله ومضمونه السوار النحاسي Copper Bracelet الذي تسوِّقه مواقع الـ «أيورفيدا»[3] والـ «يوجا» الهندوسية[4]. كما أنه شبيه بما يُعرف في القبالاه (الباطنية اليهودية) باسم: «سوار القبالاه» The Kabbalah Bracelet. ولا شك عند المختصين أن كليهما من قبيل الشعوذة باسم «الطب البديل»؛ فها هو أحد المتاجر الإلكترونية يصف أحد أسورته بأنه: «يساعد على التواصل مع الإله ويربط الفردَ بالفيض الروحي الذي ينساب في الحقيقة حولنا»[5]. وهذا «الفيض الروحي غير المتناهي» من حولنا هو ما يحاول البعض تزويقه باسم: الطاقة المنسابة في الطبيعة. ولسوار القبالاه - خاصةً - انتشاره بين «نجوم» الرياضة و«الفن».

إن وراء هذا الترويج للوثنية والسحر حركةً عالميةً تُعرَف بـ: «حركة العصر الجديد» New Age Movement أو: «الوثنية المُحدَثة» Neo - Paganism تسعى إلى إحياء المِلَل الباطنية والقضاء على توحيد الله، عز وجل. وقد آلمني أن زلَّت في هذا المقام أقدام بعض المسلمين فنعتوا «سوارَ الطاقة» بالفاعلية، بل توهم بعضهم أنه آنَسَ خفة وارتياحاً منذ أن لبسه بسبب ما يحويه من «مواد طبيعية»! ولم أكن أظن أن شاباً مسلماً في بلاد التوحيد يعود ليتعلق حلقةً من صُفْرٍ[6] يستجلب بها «الطاقة» ويدفع بها الوهن؟ «انزعها! فإنها لا تزيدك إلا وهناً؛ فإنك لو مت وهي عليك، ما أفلحت أبداً»[7].

---

(١) فكرتا: «الجسد النجمي» و«التوأم الروحي» شبيهتان بنظرية «المُثُل» عند أفلاطون، والتي تذهب إلى أن المحسوسات مجرد ظِلال للحقائق الأسمى المجردة التي لا نحسها.

(٢) م. رابولو. هركولوبوس أو الكوكب الأحمر (A. Prats Publishers)، ص ٤٥، ٤٦.

(٣) أيورفيدا (Ayurveda): هو الطب البديل المبني على عقائد الهندوسية.

(4) http://ayurvedayogashop.com/ayurvedic-magnetic-copper-bangle-p-591.html

(5) http://www.hibuki.com/servlet/the-106/72-Names-Kabbalah-Bracelet/Detail

(٦) الصُّفْر: النحاس الجيد، لسان العرب مادة: صَفَرَ.

(٧) أخرجه أحمد: ٤/٤٤٥، وابن حبان: ٧/٦٢٨، والحاكم: ٤/٢١٦.



إحياء العفة

د. محمد بن عبد الله الدويش
dweesh@dweesh.com

لقد أخبر النبي ﷺ بأن فتنة النساء من أشدِّ الفتن على أمته، فقال: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»[1]. وأخبر بأن هذه الفتنة من أكثر أسباب دخول الناس النار؛ فحين سُئل ﷺ عن أكثر ما يُدخِل الناس النار قال: «الأجوفان: الفم والفَرْج»[2].

وهذه الغريزة أمر طبعي في النفس الإنسانية؛ فكيف إذا أضيف إلى ذلك تنوُّع المثيرات والمغريات؟

إن جيل الأمة اليوم يواجه سيلاً جارفاً من المثيرات والمغريات، وتتنوع وسائلها وأدواتها، ويجري توظيف ما أنتجته التقنية المعاصرة في ترويج هذه الفتنة والدعوة إليها. ولقد غدت الصورة المثيرة والمغرية جزءاً لا ينفصل من معظم الوسائل الإعلامية حتى في البرامج الوثائقية والإخبارية، أما البرامج الفنية والدعائية، فحدِّث ولا حرج.

وهذا الواقع يفرض تحدِّياً على المربِّين في إعداد الجيل القادر - بإذن الله - على الثبات أمام هذه الفتن.

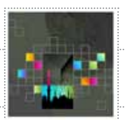
وضخامة هذه الفتن واتساعُ دائرة تأثيرها، يفرض على المصلحين جهداً أوسع من مجرد التحذير العابر من مخاطرها. ومن أهم ما ينبغي أن يعتني به المربون في ذلك ما يلي:

- الاعتناء بتربية النفوس على الإيمان والتقوى ومخافة الله - عز وجل - ومراقبته؛ فلا يزال هذا الصوت ضعيفاً وخافتاً.
- الاعتناء بتنمية الإرادة والقدرة على ضبط النفس.
- الاحتساب على مثيري الفتنة ومؤجِّجي الغرائز، والاجتهاد في التقليل من وسائل الإثارة.
- تنوُّع مستويات مواجهة هذه الفتنة؛ فيعتني بذلك المفكرون وأهل الرأي والأقلام الفكرية، والباحثون الأكاديميون، والفقهاء، والوعاظ.
- تنوُّع الفئات المستهدَفة بالتربية والتأهيل؛ فيُستهدَف في ذلك الناشئة بدرجة أساس باعتبارهم أكثر الفئات تأثُّراً، ويُستهدَف الآباء والأمهات؛ لتأهيلهم في التعامل الفاعل مع أولادهم، ويُستهدَف المعلمون والمربون؛ لتثقيفهم وتنمية مهاراتهم.
- ضرورة اتساع شريحة الجمهور المستهدَف في برامج التوعية؛ إذ كثير مما يقدَّم إنما هو في قالب الوعظ والتذكير، وهو - رغم أهميته - لا يحظى باهتمام فئة عريضة من غير المتدينين ممن لا ينبغي إهمالهم وتجاهلهم، بل هم أكثر عرضة للتأثُّر، وهم بحاجة إلى خطاب لا يضعهم أمام خيارين: إما التوبة والتدين، أو التجاهل.
- الاعتناء بإبراز العفة كقيمة وصِفَة إيجابية تعلي قيمة صاحبها ورجولته وترفع شأنه، وتَجْلِية محاسنها وآثارها على الفرد والمجتمع. وهذا مدخل مهم ينبغي أن يتوازن مع مدخل التحذير وبيان مخاطر الاستجابة للشهوات.
- توسيع دائرة المهتمين بمواجهة هذه الفتنة؛ فلا ينبغي أن يكتفي الدعاة وطلبة العلم بأنفسهم، بل يجب أن تُستَنفَر همم العقلاء والغيورين في الأمة، ولو كانوا من غير أهل التدين الظاهر.
- توظيف العديد من الوسائل والأدوات: كالقصة، والرواية، والشعر، والرسم، والمسرح، ومخاطبة الشاب والفتاة، والأطفال والكبار.

---

(١) أخرجه البخاري: (٤٨٠٨)، ومسلم: (٧١٢١).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، والبيهقي في شُعَب الإيمان.



لمن الحكم؟

للخالق أم للمخلوق؟(*)

أ. د. جعفر شيخ إدريس

jsidris@gmail.com

من أقوى الأدلة على أن الحكم لا يكون إلا لله أن البشر الذين يعطون أنفسهم حق الحكم أو يعطيهم إياه غيرهم يضطرون لِأَن ينسبوا لأنفسهم صفات إلهية لا يكون الحاكم حاكماً إلا بها. ويكون هذا أحياناً بادعاء صريح للألوهية كما كان فرعون يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] أو ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

ولكن حتى عندما لا يكون هذا الادِّعاء صريحاً؛ فإن الحاكم الدكتاتور المستبد يضطر لِأَن يعطي نفسه بعض صفات الخالق؛ كأن يطلب من المحكومين أن يطيعوه طاعة مطلقة، وأن يدَّعي أن كل ما يأمرهم به إنما هو لمصلحتهم التي هو أعلم بها. ومما لا شك فيه أن كل هذه دعاوى باطلة؛ فلا أحد من البشر (فرداً كان أو مجموعة أفراد أو حتى الناس جميعاً) يمكن أن يعرف مصالح الناس كلها، وإنما الذي يعرف هذا هو خالقهم.

هذا عن الدكتاتوريات؛ فماذا عن الديمقراطيات؟

(*) تفضَّلَ بقراءة نسخة أُولَى من هذا المقال ابننا الشيخ الفاضل ماجد الجوير وعلَّق على الجزء الثاني منه تعليقات مفيدة جعلتني أعيد النظر فيما كتبت؛ لأضمنه كثيراً من تعليقاته واستدراكاته. فجزاه الله خيراً.

تقول الديمقراطية: إن الحكم للشعب. لماذا؟

هنا أيضاً يضطر منظرو الديمقراطية وفلاسـفتها أن ينسـبوا إلى من يسمونه بالشـعب صفات لا تكون إلا لله، تعالى؛ فهم يقولون - مثلاً -: إن الشعب يجب أن يكون حاكم نفسـه؛ لأن الذي يرضى بأن يحكمه غيـره كما هو الحال في الحكم الدكتاتوري أو الحكم الذي يسمونه بالثيوقراطي، يكون عبـداً لذلك الحاكم، وهذا صحيـح. ولكـن بمـا أن اللـه - تعالى - هو خالق الناس، فهو المالك لهم وهم عبيده حقيقة؛ فهم حين يقبَلون تشريعه يُقرُّون بأمر حقيقي، لا كما يرضون بأن يكونوا عبيداً لبشر مثلهم لا يملكونهم حقيقة.

ثم ما معنى أن يقال: إن الشعب حاكم نفسه؟ إن الشعب ليس شيئاً واحداً، وإنما هو مكوَّن من عدد من الأفراد؛ فهل يمكن أن يكون كل فرد في المجتمع حاكماً لنفسه مشرِّعاً لها؟ إذن لا يكون هنالك مجتمع، وإنما تكون فوضى.

الـذي يحدث في الواقع هـو أن بعض الأفراد يحكمون غيرهـم. فإذا قلنا: إن الذي يرضى بحكم غيره من البشـر يكون قد جعل من نفسه عبداً له؛ فإن هذه نتيجة لا مفر منها حتى في أحسن البلاد تطبيقاً للديمقراطية!

لماذا؟ لأن التشـريع فـي النظام الديمقـراطـي يكـون: إما باسـتفتاء الشـعب كله، أو بقوانـين يُصدرُها نوابه في الهيئات التشريعية، أو بقرارات يتخذها حكامه التنفيذيون.

أما في الاسـتفتاء؛ فإن القرار الذي يحكم به الشـعب هو قرار الأغلبية. ماذا عـن الأقلية؟ هل يكونون معبـودين للأغلبيـة؟ ثم هـب أن القـرار كـان بإجمـاع المسـتفتين لا بأغلبيتهـم. هنـا أيضاً يقـول بعضهـم: إن المشـكلة لم تُحَل؛ لأن كـل فرد من الذيـن صوتوا للقرار كـان معتمداً على غيره في جعل ذلك القرار قـانوناً للبـلاد؛ وإذن؛ فهـو لم يكن حاكماً لنفسه، بل أشرك معه غيره في ذلك الحكم.

أما في قرارات المجالس، فالأمر واضح؛ فممثلوا الشعب ليسـوا هم الشعب، ثم إنهم لا يستشـيرون الشعب في كل مسـألة تُعرَض عليهم، وإن كانوا في بعض الأحيان يراعون أثر تصويتهم على الدوائر التي انتخبتهم. والقرارات سـواء كانـت بالإجماع، وهو أمر نادر جداً، أو كانت بالأغلبية؛ فإنه يقال عنها ما قيل عن الاسـتفتاء. وفي كلا الحالين لا يكون الشعب حاكم نفسه وإنما حكامه بعض أفراده.

الصفة الثانية التي يذكرونها هي صفة العلم: فهم يقولون كلامـاً صحيحـاً، هو: أن الـذي يحكم يجب أن يكـون عالماً بمصلحـة من يحكم قاصداً لتحقيقها، ثـم يقولون في الدفاع عن حكم الشـعب: إن كل إنسـان أدرى بمصلحته؛ فيجب أن يكون الحكم له، لكـن المعترضين على هذه الحجة يقولون: إن القرارات الديمقراطية ليست قرارات فردية، وإنما هي قرارات تتعلق بالجماعة؛ فهل كل فرد في المجتمع هو الأدرى بمصلحة المجتمع في مسـائل السياسـة الداخلية والخارجية ومسائل الاقتصاد والقانون والتقنية وغير ذلك مما تتخذ فيه الدولة من قرارات؟ نزيد: وهل صحيح أن كل إنسـان أعلم بكل مصالحه؟ أما كون الإنسـان يعلم بعض مصالحه فأمر لا شك فيه، وأما كونه يعلم كل مصالحه فأمر يكذِّبه الواقع؛ إذ لو أن كل إنسـان عالـم بمصلحته لما احتاج أن يتعلم، ولا أن يشـاور، ولَـمَا غير رأيـه في بعض ما كان يرى، لكن الواقع أن الإنسـان يفعل كل



هـــذا. إن العالم علماً محيطـاً بكـل ما يصلـح الإنســـان وما يفســـــده لا يكون إلا خالقه: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. أما البشـــر، فليس لهم مثل هذا العلـــم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومن أقوى الأدلة على أن الشـــعب لا يحكم نفســـه حتى في الدول الديمقراطيـــة، بل يحكمه أفراد منه، أن القوانين والدســـاتير التي يحكم بها الجيل الراهن كثيراً ما تكون قد وضعهـــا أفراد في أجيال ماضية. من أبْيَن الأمثلة على ذلك أن الدستور الذي يُحكَم به الشعب الأمريكي الآن وضعه في القرن الثامن عشر بعض من يسميهم الأمريكان بالآباء.

لكنَّ المعترضين على حكم الله - تعالى - يثيرون شبهات، منها:

قولهم: أيـــن نجد هـــذا الحكم؟ هذه مشـــكلة خاصة بالغربيـــين الذين ليس لهم كتاب هـــم موقنون بأنه من عند الله، تعالى. أما المســـلمون، فعندهم كتاب لا يشك حتى من درس الإســـلام من الغربيين في ثبوت نسبته التاريخية إلى الرسول الذي أُنزِل عليه.

الشبهة المهمة الثانية التي يثيرونها، هي: أنه على فرض أن حكم الله - تعالى - مسجَّل في كتاب معروف؛ فإنه يكون شـــيئاً محدوداً مع أن ما يحدث للبشـــر من حوادث ونوازل شـــيء غير محدود؛ فكيف يكون حكم الله شاملاً لها؟ يكون شاملاً لها؛ لأن هنالك فَرْقاً بين النصوص والأحكام:

أولاً: لأن النـــص الواحـــد قد يدل على عـــدة أحكام؛ فالنص - كما يقول الشيخ في تعليقه ملخِّصاً لكلام لابن قيم الجوزية في إعلام الموقعين -: «له ســـياق، وله إشارة وتنبيه، وإيمـــاء، واعتبار، واقتضاء، وكل تلك دلالات نصية تؤخذ من النص الشرعي، وتشـــمل بعمومها أحكاماً كثيرة، مبيَّنة في كتب أصول الفقه».

ثانيـــاً: إنه يمكن اســـتخراج حكم جديد بضم نص إلى نـــص من نصوص أخرى، كما فَهِم الشـــافعي أن أقل الحمل ســـتة أشـــهر من ضم قوله - تعالى-: ﴿وَالْوَالِـدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُـنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَـيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] إلى قولـه ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

ثالثاً: هنالك قواعد فقهية عامـــة. قال العلماء: إنها قطعيـــة الثبوت، مثل قاعدة: لا ضرر ولا ضِرار، وقاعدة: رفع الحرج، وقاعدة: اليقين لا يزول بالشك.

فيمكـــن للفقيه أن يســـتدل على تحـــريم الدخان - مثـــلاً - بقاعدة لا ضرر ولا ضـــرار بعد أن ثبتت علاقته بالسرطان.

ثالثاً: هنـالك أحكـام قيـاسية، وهي - باختصار -: أننا إذا وجدنا الشـــرع قد حكم على شيء ما بالتحـــريم - مثلاً - وعرفنا العلة التي من أجْلِها حُرِّم، ثم وجدنا هذه العلة نفســـها في شـــيء جديد؛ فإننا نعطيه حكم الأصل الذي دلت عليه النصوص؛ فالعلـــة في تحـــريم الخمـــر - مثلاً - هي كونها مسكرة، فإذا وجدنا شيئاً جديداً فيه هـــذه العلة؛ فإننا نُحرِّمه بغضِّ النظر عن اســـمه أو لونه أو كونه ســـــائلاً أو جامداً. هذا؛ لأن الشـــريعة متَّسِقـــة لا تناقض فيها: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

قال ابن قيم الجوزية: (شَرْع اللهِ ووحيُه وثوابُه وعقابه قائم على إلحاق النظير بالنظير، واعتبار المِثْل بالمِثْل) وهذا أيضاً باب واسع يشمل ما لا يكاد يحصى من الحوادث.

رابعاً: ثم هنالك الإباحة؛ فإنها تشمل كلَّ أمر لم يذكر اللـــه حكمَه، ولم يدل عليه القياس، ولا النصوص العامة؛ فهو باقٍ على أصل الإباحة، كما قال ﷺ: «وما سكت عنه، فهو عفو». وهذا أيضاً باب واسع جداً.

هذا الذي أوجزناه هنا، إنما هو قطرة من بحر ما كتب الفقهاء في هذا الأمر مثبتين أن الشـــريعة تفي بمصالح العباد كلها في دنياهم وأخراهم.

والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد.

أما المسلمون، فعندهم كتاب لا يشك حتى من درس الإسـلام من الغربيين في ثبوت نسـبته التاريخية إلى الرسول الذي أُنزِل عليه.



تواضعوا يا «جماعة الخير»!

إبراهيم بن سليمان الحيدري(*)
alhaidari5@hotmail.com

غريب أن يكون الماء العذب سبباً للتلوث، وأن يكون الهواء النقي مصدراً للوباء، ويكون العمل الخيري بما يحمله من نُبْل ورُقيٍّ سبباً لنمو أمراض القلوب وانحرافات السلوك.

إنها معادلة غير منطقية، لكنها قد تحدث، وحال يصعب تخيُّله، لكنَّ بعضاً يعيشه ويتلبس به.

عندما تعشعش الآفات بين الأفراد في المنظمات الربحية وتنمو المنافسة بين الأقران ويعلو صوت الأنا، فلأحد منَّا أن يتفهم ذلك الوضع؛ حيث المادة هي الدافع والهدف والطموح. وعندما يصطحب بعض العاملين خصالهم غير الحميدة إلى داخل المنظمات الخيرية، فهذا وَضْع يمكن تفسيره بسيادة بعض الطباع البشرية وصعوبة تغييرها، لكن أن تكون ممارسة العمل الخيري ذاتها، هي سبب نشوء بعض الأمراض القلبية، ومصدرٌ لآفات سلوكية؛ فهذا ما لا يمكن تفسيره وتقبُّله.

أولئك الذين دب في قلوبهم الغرور؛ لمنصب تولَّوه في منظمة خيرية أو غلَّف العُجب شخصيتهم لإنجاز حققوه في عالم الخير، أو نفخ الشيطان فيهم كبرياءً لعلم حصَّلوه، أو مهارة أحسنوها... أولئك لم يفقهوا فلسفة العمل الخيري على حقيقتها ولم يكتشفوا جوهر القطاع الذي يعملون فيه، وهُمْ بهذا يقدِّمون لنا دليلاً واضحاً على ذلك.

إن العمل مع المحتاجين على اختلاف أنواعهم يرقق القلوب، والاطلاع على نوايا المحسنين وأعطياتهم يستصغر الجهود، والتعامل مع المحتسبين والمتطوعين يجلو النوايا وينقِّي الدوافع.

فما بال أقوام غرَّهم منصب زائل وأغراهم إنجاز راحل وقد أحاط بهم المحتاجون والمحسنون والمتطوعون من كل جانب.

إننا - يا جماعة الخير - بعد كل نجاح نحققه ينبغي أن نركن إلى أصغر مكاتبنا مرددين بكل تواضع: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] وأن نجلس بعد كل إنجاز تم لنا أو بنا على أقصر كراسينا ارتفاعاً منكسين رؤوسنا معترفين بالفضل لصاحب الفضل، جل وعلا.

لو كان العمل الخيري مبنىً، لكان التواضع أهم أعمدته، ولو كان التطوع سفينة، لكان التواضع شراعها، ولو كانت المنظمات الخيرية زهرة لكان جميع ألوانها التواضع.

قال الماوردي - رحمه الله -: (وأما الإعجاب فيخفي المحاسن، ويُظهر المساوئ، ويُكسب المذامَّ، ويصدُّ عن الفضائل، وليس لما يُكسبه الكبر من المقت حدٌّ، ولا إلى ما ينتهي إليه العُجب من الجهل غاية، حتى إنه ليطفئ من المحاسن ما انتشر، ويسلب من الفضائل ما اشتهر، ناهيك بسيئة تحبط كلَّ حَسَنَة ، وبمذمة تهدم كل فضيلة ، مع ما يثيره من حَنَق ، ويُكسبه من حقد).

وقديماً قال القائد الأسبق في الاحتساب والرائد الأول في التطوع ﷺ: «ثلاث مهلكات: شحٌّ مطاع، وهوى متَّبع، وإعجاب المرء بنفسه»[1].

أسأل الله العظيم أن يحمينا من العُجب والغرور والكبر وأن ينقي قلوبنا من الآفات.

(*) ماجستير في الإدارة، وباحث في إدارة العمل الخيري.

(١) أخرجه البيهقي وحسَّنه الألباني.



د. باسم نعيم وزير الصحة الفلسطيني للبيان: التعاطف لكسر الحصار بعد الحرب يتراجع

الدكتور باسم نعيم من قيادات الحكومة الفلسطينية الشرعية في قطاع غزة، رجل هادئ ومتزن، لكنه في الوقت نفسه قامة سياسية كبيرة، ويحمل، رؤية ناضجة بعيدة النظر. تحدث في البيان بحرقة وألم عن الوضع الصحي في قطاع غزة، وأبرز جزءاً من المأساة الصحية التي يعاني منها الشعب هناك. وعتب بأدب شديد على إخوانه خارج فلسطين، الذين ضعف تعاطفهم بعد الحرب لكسر الحصار الجائر على القطاع، وأكد أن حكومة غزة لا يمكن أن تتنازل عن الثوابت مهما اشتد الحصار وازداد التواطؤ على القضية الفلسطينية. ويسعدنا في مجلة البيان أن نرحب به ونجري معه هذا الحوار.

البيان: بدايةً: نرحب بكم معالي الدكتور في مدينة الرياض، ونسأل الله أن يبارك في جهودكم. وإذا رأيتم أن نبدأ سؤالكم عن الوضع الصحي في قِطاع غزة بشكل عام بعد الحصار والحرب، ثم الحصار مرة أخرى: ما حقيقة الوضع الصحي في قطاع غزة بشكل عام؟

■ بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله. نشكر لكم إتاحة هذه الفرصة كي نتحدث للمسلمين عامة عبر مجلة البيان حول أوضاع فلسطين بشكل عام وقطاع غزة بشكل خاص. أما الحديث عن الوضع الصحي، فهو حديث متشعب وشائك، ولكن باختصار نقول: الأوضاع الصحية تتردَّى يوماً بعد يوم والسبب في ذلك، هو: أننا اليوم في السنة الرابعة للحصار: الحصار السياسي، والحصار المالي، وإغلاق المعابر، وانعدام حرية الحركة بما في ذلك سفر المرضى، مع صعوبة في إدخال الاحتياجات الإنسانية: من الأدوية والأجهزة وقِطَع الغيار وغيرها، وهناك صعوبة بالغة في السفر للخارج من أجل العلاج.

الشيء الثاني: أنه وفوق هذا الحصار، فقد عاش قطاع



غزة الحرب الأخيرة لمدة اثنين وعشرين يوماً استُنزفت فيها معظم إمكانات وطاقات القطاع العامة وخاصة الصحية؛ فقد دُمِّرت المستشفيات ودُمِّرت مراكز الرعاية الأولية، ودُمِّرت سيارات الإسعاف، وقُتِل بعض فِرقها الطبية. وهناك صعوبة كبيرة في تعويض كل ذلك.

اليوم كثير من الدول بما فيها المملكة العربية السعودية رصدت أموالاً ضخمة لأجل إعادة الإعمار، سواء للمستشفيات أو مراكز الرعاية الأولية، لكن حتى الآن نحن غير قادرين على الإعمار. كل ما قمنا به بعض ترميمات في بعض المواقع بمواد أولية بسيطة، لكن ما هُدِم من المستشفيات، ومراكز الرعاية الأولية، والمدارس، والمساجد لا تُصلِحه المواد الأولية؛ وحتى الآن هناك إشكالية كبيرة في إعادة الإعمار. وهذا الوضع - طبعاً - يتوافق مع الوضع العام للمجتمع الفلسطيني.

إن نسبة الفقر تزداد يوماً بعد يوم. إن هناك عشرات الآلاف من الأُسر تعيش تحت خط الفقر؛ وآخر دراسة أُجريت أفادت بأن نسبة فقر الدم عند الأطفال ما بين (٦ - ١٨) عاماً تصل في القطاع إلى ما بين الستين والسبعين بالمائة. طبعاً فقر الدم متولد عن سوء التغذية وقلة ذات اليد، وهذا مؤشِّر من مؤشرات الوضع الصحي العام. وبالمناسبة؛ فإن معظم مشاريع الصرف الصحي متوقفة، وهو ما يؤدي إلى ضخٍّ كميات ضخمة من مياه الصرف الصحي: إما إلى الشوارع أو المزارع أو في البحر وهو المتنفس الوحيد للناس هنا.

التيار الكهربائي ينقطع يومياً من (٦ - ١٢) ساعة وبناءً على ذلك؛ فإن معظم البيوت لا تصلها مياه الشرب بسبب ضعف وصول الماء، ومعظم المحلات التي فيها أطعمة تفسد بسبب انقطاع الكهرباء. وهو ما يسبب المشاكل الصحية؛ ولذلك فإن الوضع الصحي معقد جداً ويتراجع ويتردَّى. ومع ذلك فإننا نحرص بكل ما أوتينا من قوة وبمساعدة إخواننا في الخارج من العرب والمسلمين أن نحافظ على هذا الكيان الصحي من الانهيار ونجحنا بفضل الله - عز وجل - في أن نحافظ عليه من الانهيار، لكن الصعوبة في أن نتخذ خطوات كبيرة إلى الأمام.

البيان: لكن كيف تفاعل الشعب مع الحكومة ومع الجهات الرسمية في مثل هذه الظروف القاسية؟ وهل يمكن أن يسبب قلقاً أو ثورة من الشعب ضد الحكم؟

■ في الحقيقة: لا. وكانت الحرب الأخيرة أكبر اختبار لذلك؛ لقد ضُغط الناس خلال السنوات الثلاث التي سبقت الحرب ضغطاً شديداً: بالحصار وبالإغلاق وبالتجويع وبقطع الكهرباء والماء، ولم يتحركوا ضد الحكومة، ثم جاءت الحرب لتُتوج هذه الحالة من الضغط المستمر. ولم يحدث شيء من ذلك، بل العكس لقد شعرنا أن هناك استقراراً وهدوءاً وسكينة، سواء أثناء الحرب أو الحصار.

الناس هنا مقتنعون بأن الدافع الحقيقي للحصار والحرب هو تمسُّك الحكومة بالثوابت والحقوق. ولو ثار الناس على الحكومة، فما هو البديل؟ البديل هو تضييع الثوابت؛ لذلك أعتقد أن القضية لا تتعلق بتغيير هذا الوزير أو ذاك أو حتى رئيس الوزراء، وحتى لو غيرناهم فلن تُحَل المشكلة. وإنما هناك ضغط شديد على الشعب الفلسطيني للتنازل عن الثوابت وبيع المتبقي من الأرض؛ ولذلك الناس صابرون ومحتسبون. وأنا أتصور أنه لن يكون هناك ضغط أكثر من ذلك.

البيان: وفي المقابل فإن أهل الضفة الغربية لا تقل أحوالهم سوءاً عن أحوالكم من حيث الضغط الأمني، وصعوبة المعاش اليومي، أليس كذلك؟

▪ عندما نتكلم عن الضفة الغربية اليوم، إنما نتكلم عن ٥٧٠ حاجزاً في الضفة الغربية، كل مدن الضفة الغربية مطوَّقة بحواجز، والسور يلتهم الكثير من الأراضي؛ حيث يعيش أكثر من ٢٠ ٪ من الشعب الفلسطيني خلف السور، وهؤلاء الناس مقطوعون تماماً عن كل الخدمات الحكومية والرسمية؛ ولذلك: إما أن يرحلوا إلى المدن أو ينقطعوا تماماً. ولا تستطيع أن توصل أولادك إلى المدارس بسهولة. وإذا مرضوا فلا تستطيع أن تعالجهم إلا بشق الأنفس. والمستوطنات تلتهم الأرض، والقدس تُهوَّد، والناس يهجَّرون، والاعتقالات والمداهمات ليل نهار، بما فيها مدينة رام الله. أضف إلى ذلك تدهور الموقف السياسي؛ فالطرف الفلسطيني الذي أبدى مرونة غير عادية مع العدو لم ينل شيئاً في النهاية، وخرج صفر اليدين، بل العكس؛ فالموقف الأخير للأمريكان والأوربيين أضعفَ من مكانة السلطة كثيراً؛ فحين هدد الرئيس أبو مازن بالاستقالة، قالوا: سنتعامل مع من يأتي بعده، وسنتعامل مع أبي مازن حيث كان.

الوضع الاقتصادي في الضفة الغربية أيضاً صعب جداً، والغلاء فاحش. فالمقارنة بين حال القطاع وحال الضفة تدفع الناس للصبر. إضافة إلى ذلك: صحيح أن هناك حصاراً وضيقاً في القطاع، لكن في المقابل يوجد أمان، واستقرار، هناك حرية حركة على الأقل داخل القطاع وهذا يوجِد شيئاً من الراحة النفسية، وإذا فُتحَت المعابر فسيكون الوضع مريحاً.

أنا أتوقع أن هذه العوامل مجتمعة هي التي تدفع الناس إلى السكينة والاستقرار والصبر على الواقع.

البيان: سمعنا عن عدد من المحاولات الناجحة خلال الفترة القريبة الماضية لفك هذا الحصار: ما تقويمكم لهذه الخطوات؟ وهل تتوقعون أن يكون هناك محاولات أخرى مشابهة؟

▪ في الحقيقة: أن أهل غزة يعتبون كثيراً على الناس في الخارج؛ لأنه قبل الحرب كان هناك اهتمام بالحصار، وتفاعل الناس في الخارج؛ في بلاد العرب والمسلمين خاصة، وفي أوروبا مع مشكلة الحصار. أما بعد الحرب؛ فإنه بالرغم من أن الوضع أسوأ؛ إذ دُمِّرَ في الحرب عشرون ألف بيت، خمسة آلاف منها دُمرت تدميراً كلياً وخمسة عشر ألفاً دمرت تدميراً جزئياً. إغلاق المعابر ما زال هو هو، ودخول الاحتياجات لا زال فيه صعوبة كبيرة، ومع ذلك فإن تعاطُفَ الناس وحماستهم فيما يخصُّ موضوع الحصار بدأت تتراجع وتضعُف. وكذلك المحاولات الأخيرة للدخول إلى القطاع من جهة البحر بالسفن، كلها باءت بالفشل. ولم ينجح سوى ثلاث قوافل برية جاءت عبر مصر، بعد انتظار طويل، فآخر قافلة انتظرت ٣٥ يوماً في بور سعيد والعريش ورفح. وطبعاً هؤلاء الناس كلهم متطوعون، تركوا أعمالهم ومسؤولياتهم، وأتو متضامنين مع القطاع، ويصعب على أي أحد البقاء في العراء ٣٥ يوماً ينتظر؛ لذا فإن من الواجب أن تكون هناك محاولات أكثر قوة وعزيمة وإصراراً من الناس في الخارج للمساعدة والدفع؛ لفك الحصار.

أهل القطاع لا يألون جهداً في استغلال كل فرصة لكسر هذا الحصار، ولا أدل على ذلك من وجود حوالي ١٠٠٠ نفق تحت الأرض من أجل إدخال المواد وإدخال الاحتياجات رغم أن الأنفاق ثمنها غالٍ جداً، وفي عام ٢٠٠٩ فقط قدَّم القطاع ٥٠ شهيداً: إما نتيجة القصف الإسرائيلي وانهيار الأنفاق أو انهيار الأنفاق أثناء الإنشاء؛ ومع ذلك الناس مصرون على كسر الحصار والحصول على لقمة العيش الكريمة، إنهم يستمرون في حفر الأنفاق وإدخال احتياجات الناس.

ويجب أن تكون هناك محاولات جادة وقوية من الخارج للضغط، سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي والأهلي لفك الحصار.

البيان: هل أنتم تعوّلون على الاتجاه الرسمي العربي الذي أثبت خلال الفترة الماضية أنه عاجز عن اتخاذ القرار المناسب؟

▪ بالتأكيد نعوِّل على النظام العربي الرسمي؛ لأنه في النهاية بدون قرار عربي رسمي لن يُفَك الحصار؛ إذ المحاولات الشعبية دورها أن تدفع النظام العربي الرسمي من أَجْل فك الحصار ومساعدتنا، لكن القرار النهائي في يد النظام العربي الرسمي، سواء من طَرَفهم هم مباشرة، أو من خلال الضغط على دولة الاحتلال لفتح المعابر وتسهيل الإجراءات على المعابر لتسهيل حركة الناس ودخول احتياجاتها.

أيضاً النظام العربي الرسمي قادر أن يضغط على أوروبا وعلى أمريكا؛ فكثير من الأوراق في يد الأنظمة العربية والتي من الممكن أن تضغط فيها على أوروبا وأمريكا من أَجْل فك الحصار؛ لأنه يوجد هناك فَرْق بين خلافات سياسية وعدم قناعاتهم برؤية حماس لحل المشكلة الفلسطينية وبين أن ما يُرتكب بحق قطاع غزة هو جريمة بحق الإنسانية.

القانون الإنساني الدولي عندما أُوجِب وكُتِب في الأعوام ١٩٤٩ و ١٩٥١ و ١٩٥٢ إنما كُتِب نتيجة للمعاناة الإنسانية التي حدثت في الحرب العالمية الثانية؛ إذ وُضِع ليضمن حداً أدنى من الحقوق الإنسانية بين الدول المتحاربة؛ أي: هو لم يوضع في حالة السلم. والأصل في هذا القانون أن يُحترَم في حالة الحرب؛ فلذلك: الأصل أن يُضغَط على الكيان الصهيوني. ليحترم هذا القانون الإنساني الدولي ما دام أن الأمم المتحدة هي من وَضَعَته؛ فلذلك نحن نتوقع أن يكون هناك ضغط على الأمريكان وعلى الأوروبيين؛ لإجبار الاحتلال على احترام القانون الدولي:

أولاً: بوصفه قوة احتلال.

وثانياً: بوصفه ملتزماً أمام القانون الدولي؛ فما يرتكبه الاحتلال جريمة ضد الإنسانية.

البيان: ولكن في المقابل: ألا يمكن أن تتحول الضغوط إلى جهة الحكومة؛ بحيث تتنازل عن بعض الثوابت، فيكون هذا سبباً لفك الحصار؟

▪ أولاً: نؤكد مرة ثانية أن من تنازل عن الثوابت لم ينل شيئاً، بل خرج صفر اليدين، وهذا مشاهد ومعلوم.

ثانياً: لو كانت الحكومة تفكِّر بالتنازل، لما دفعت هذا الثمن الغالي: من أربع سنوات حصار واغتيالٍ للقيادات والوزراء وأبناء الوزراء، ومن عزلة سياسية وعزلة مالية؛ فلا أتوقع أن يخطر للحكومة الحالية نهائياً مهما اشتد الضغط عليها أن يتراجعوا أو يتنازلوا عن الثوابت؛ لأنهم في النهاية لم يدخلوا هذا المشروع من أجل التنازل، هم دخلوا هذا المشروع من أجل كبح جماح وفرملة مسيرة التنازل.

البيان: بالنسبة للمصالحة، وتأخير التوقيع على الاتفاقية المصرية: إلى أين تسير الأحداث؟

▪ الحكومة في غزة وحركة حماس، قرارها بالنسبة للمصالحة قرار إستراتيجي وليس تكتيكياً؛ فالحكومة والحركة مُجْمِعتان على ضرورة المصالحة وضرورة إعادة لَمِّ الشمل؛ لأن الوضع الذي نحن فيه وَضْعٌ استثنائي وليس وضعاً طبيعياً؛ فالانقسام قَسَم العائلات وقَسَم الحارات وقَسَم البيوت، لكن لا يُعقَل أن تكون المصالحة هي طريقاً التفافياً من أجل تحصيل ما لم يكن تحصيله مستطاعاً لا بالحصار ولا بالحرب؛ وهذا يعني: في النهاية أن نصل إلى النتيجة نفسها بالتنازل عن الثوابت أو بالتفويض وإعطاء الشرعية لمن يمكن أن يتنازل عن الثوابت؛ لذلك لا بد من ضمانات؛ لتكون المصالحة مقابل أن تكون هناك قيادة فلسطينية مشترَكة من كل الأطراف الفلسطينية بما فيها حماس والجهاد؛ لنضمن قراراً فلسطينياً جامعاً يُرضَى عنه.

الحركة لن تتردد في التوقيع على الاتفاقية ولو للحظة، ولكن الذي أعاق التوقيع في الآونة الأخيرة، هو أنه تم التوافق على الخطوط العامة للمصالحة أثناء جلسات الحوار، وبقيت بعض النقاط عليها خلاف، والإخوة المصريون اقترحوا حلاً وسطاً للجمع بين الرأيين، وخرجوا بنقاط معقولة يمكن التوسط بين الطرفين حولها. وهذه النقاط وافقت عليها الحركة في بداية الأمر، ولكن لَـمَّا استلمت الحركة الورقة كان هناك تغيير في نقطتين جوهريتين تمسان صُلْب عملية المصالحة، منهما: موضوع إعطاء الشرعية الكاملة في كل المواقع للرئيس أبي مازن؛ أي: أنه مرجعية منظمة التحرير والحكومة الفلسطينية واللجنة المشتركة التي سوف تنسق بين الطرفين. حدث ذلك رغم أنه كان يوجد اتفاق سابق، على أن الفترة ما بين توقيع المصالحة وعَقْد الانتخابات التشريعية والرئاسية والوطنية، تُشكَّل فيها لجنة من الأمناء العامِّين تُمَثِّل قيادة فلسطينية مؤقتة إلى حين انتخاب قيادة منظمة التحرير الجديدة، هذه القيادة المؤقتة هي مرجعية الشعب الفلسطيني في القرارات المصيرية الكبرى، وتبقى القيادة الحالية الموجودة مرجعية في القرارات الميدانية التنفيذية. أما القرارات الكبرى: كالتفاوض وعَقْد الاتفاقيات، فتكون مرجعيتها القيادة المؤقتة. هذه النقطة تم رَفْعُها للأسف، وأُعطيت جميع الصلاحيات للرئيس أبي مازن.

طبعاً توجد نقاط أخرى متعلقة بحق الشعب الفلسطيني بالمقاومة وآلية العمل... إلخ؛ لذا طُلِبَ بعض التعديلات بناءً على ما تم التوافق عليه.

البيان: هل تعتقدون أن السلطة جادة في المصالحة أم

أنها تُناور من أجل مزيد من الضغط على حماس وكسب الوقت؟

■ اعتقد أن القيادة الموجودة تريد أن تصل من خلال المصالحة إلى صندوق الانتخابات مرة أخرى، حتى تُخرِج حماس من الباب نفسه الذي دخلت منه وهو الانتخابات، لكن اقتناعي باحتمالية إجرائها ضعيفة؛ لأسباب:

أولاً: الحكومة الحالية في إسرائيل لن تسمح بانتخابات في القدس.

ثانياً: وجود ضمانة لانتخابات شفَّافة ونزيهة في الضفة الغربية صعبة، والأهم أنه لا يوجد حتى الآن طَرَف عنده استعداد أن يعطي ضمانات لاحترام نتائج الانتخابات؛ وهذا سؤال وُجِّه لكثير من القياديين: لو أُجريت الانتخابات وفازت حماس مرة أخرى فما هو الموقف؟ لا يوجد أحد يعطي ضمانات بأن تُحتَرم نتيجة الانتخابات. وبناءً على ذلك أتوقع أن المصالحة قد يكون الهدف منها لدى السلطة هو الانتخابات.

أما على المستوى الشعبي فإني أتوقع أن كثيراً من الناس – سواء من فتح أو حماس – معنِيون بالمصالحة؛ لأن هذا الوضع – كما أسلفنا – غير مقبول. أما صُنَّاع القرار، فأتوقع أن الهدف لديهم هو محاولة الوصول للانتخابات لإخراج حماس من اللعبة السياسية.

وإن كانت قناعتي بأن مشروع حماس أكبر من مشروع أوسلو؛ أي: إذا خرجت حماس من الانتخابات، فلن تكون نهاية المطاف، وتصبح حماس حزب معارضة صغيراً ينتقد على هامش الطريق. حماس من الأصل أكبر من مشروع أوسلو وأكبر من الحكومة وأكبر من الانتخابات، وبناءً على ذلك لن يعطل حماس خروجها من الانتخابات، ولكن لن تقبل أيضاً أن تخرج بهذه الطريقة المهينة من اللعبة السياسية: إما بانتخابات مزيفة أو انتخابات جزئية، أو أن لا تتزامن الانتخابات الرئاسية والتشريعية والوطنية في آن واحد؛ لأنه كان قبل ذلك تَوافُق في مارس عام ٢٠٠٥ في القاهرة، على انتخابات بلدية وتشريعية ورئاسية، والتحضير لإعادة تأهيل منظمة التحرير. فَجَرت الانتخابات التشريعية والرئاسية، وتم تعطيل مشروع إعادة تأهيل منظمة التحرير منذ ذلك التاريخ إلى الآن.

البيان: تزورون الرياض هذه الأيام، هل لكم أن تُطلعونا على أسباب الزيارة؟

■ السبب الرئيسي لزيارة مدينة الرياض، هو اللقاء مع بعض الإخوة المسؤولين عن بعض المؤسسات الخيرية السعودية الداعمة للشعب الفلسطيني وعلى رأسها حملة خادم الحرمين الشريفين لدعم الشعب الفلسطيني. ومن ذلك مشروع ضخم قامت به المؤسسة في قطاع غزة، وهو: مركز الأمير نايف لعلاج مرضى السرطان، وكان هناك لقاء مع الإخوة المسؤولين لتطوير هذا المركز وإعادة تشغيله وتهيئته، فكانت فرصة لشكرهم على ما بذلوه من جهود أثناء الحرب وما يبذلونه في ظل الحصار وما يقدمونه من مساعدات عينية أو مالية أو مشاريع وإنشاءات لدعم الشعب الفلسطيني بشكل عام وأهل القطاع بشكل خاص.

البيان: بهذه المناسبة ما معدلات مرضى السرطان وخاصة بعد استخدام القنابل الفسفورية بشكل واضح في الحرب الأخيرة؟

■ توجد زيادة في معدَّلات مرضى السرطان، ولكن من الصعب الآن ربط هذه الزيادة بالحرب الأخيرة؛ لأن ذلك يحتاج إلى وقت أطول. ولكن ما هو مؤكَّد من خلال العيِّنات التي وصلتنا نتائجها أخيراً أن كل المناطق التي أُخذَت منها عيِّنات ثبت أن فيها يورانيوماً منضباً استُعمل أثناء الحرب؛ لأن كل المقذوفات التي سقطت على القطاع أثناء الحرب كان فيها يورانيوم منضب، ولذلك نتوقع في السنوات القادمة زيادة في حالات السرطان، وقد يكون تأثيره حتى على البيئة بشكل عام، سواء البيئة الزراعية أو البيئة السمكية أو التربة، وبناءً على ذلك يؤدي هذا إلى انتشار أمراض لا زلنا نجهلها.

طبعاً هناك أشياء مؤكدة، مثل: استخدام العدو الصهيوني لسلاح جديد سام يسمى: سلاح الديم، وهو عبارة عن متفجرات معَدَّة للقضاء على الأشخاص: إما أن تقتل الشخص مباشرة وتقطِّعه إرباً إرباً، أو تؤدي إلى بتر الأطراف، والذي ثبت علمياً أن العضلات في تلك الأطراف تصاب بسرطان العضلات خلال أشهر، وقد أكد حدوثَ ذلك في العراق خبراء، وهو ما يدفع إلى التخوف بشأن بعض الشباب الذين بُترت أطرافهم ولم يستشهدوا، أن تكون لديهم بعض أنواع السرطان مستقبلاً، نسأل الله أن يلطف بالجميع، ويرد كيد العدو في نحره.



في يوم الأحد ٢٠ من رجب ١٤٢٢هـ (٢٠٠١/١٠/٠٧م)، وبعد ٢٦ يوماً من الهجوم على بُرجَي التجارة العالمية، شنت البارجات والطائرات الأمريكية هجوماً تعلن فيه للعالم أن المعركة قد بدأت بين أقوى جيش على وجه الأرض، وبين شعب أعزل ضعيف إلا من إيمانه واتصاله بربه وخالقه. وبأقل من أربعين يوماً احتلت كابل، وبعدها بأيام خرجت طالبان من مركزها (قندهار)، ليشهد العالم انتهاء حقبة خمس سنوات من حُكْم طالبان ساد فيها الأمن والإيمان في أرض أفغانستان. وخرج بعضهم يصفِّق لهذا الانتصار، واستهزؤوا بإمكانات طالبان، وغمزوا المنهج الذي ارتضته. والتفتت أمريكا بعدها فَرِحة بنشوة النصر إلى العراق المنهك من الحصار والحروب. ولم يُعقِّب أحد إلى ما خلَّفته الحرب: من قَتْل آلاف الأبرياء في أفغانستان، وتهجير مئات الآلاف منهم، والمجازر التي ارتُكِبَت في حق المدنيين والأسرى. وجاء مَنْ رضي بالدنيَّة ليحكم أفغانستان. لقد وعدوا العالم بالحرية والأمن والعيش الرغيد. وتمضي السنون، وإذا العالم يستيقظ على حقيقة مؤلمة له، وإن كانت قد شفت غيظ قلوب المؤمنين، وهي: «أن الانتصار في المعركة لا يعني الانتصار في الحرب»؛ فها هي ذي طالبان تعود بقوة، وها هي ذي أمريكا تضطر لزيادة قواتها بما يقارب ٥٠٪، وتطلب من الآخرين أن يحذو حذوها، ثم تضع لنفسها خط رجعة يحفظ ما تبقَّى من ماء وجهها - إن كان ثمة ماء وجه - للخروج مهزومة (بإذن الله)، فتحدد الفترة بـ ٣٠ شهراً. أما الحكومة المصطنعة، فقد شهد من نصَّبوها بفسادها وتزويرها للانتخابات، حتى اشتد تقريعهم لها.

إنه «مأزق أفغانستان» للولايات المتحدة ومن تحالف معها، ترصده البيان في ملف شامل، يغطي الصراع الدولي في أفغانستان، ويخص الدور الإيراني بمقالة خاصة لأهميته وخطورته على المنطقة بأكملها، كما يشمل تحليلاً لوضع قوى التحالف المتأزم في أفغانستان، وكيد الولايات المتحدة لإشعال النار بين الأخوة هناك، وتوريط دول إسلامية في ذلك المستنقع. سائلين المولى - عز وجل - أن يلطف بالمسلمين ويرد كيد عدوهم في نحره، وأن ينصر عباده الصادقين، ويسدد رأيهم ويجمع كلمتهم.

الكرسي المتحرك

د. يوسف بن صالح الصغير(*)

مـع أن المقال الـذي كنت سـأكتبه يتناول الأوضـاع في أفغانستان ودراسة الإستراتيجية الغربية الجديدة أو ما يسمى: خطة أوباما حول أفغانستان، إلا أنني لم أستطع تجاوز تصريحات ديك تشيني (نائب الرئيس الأمريكي السابق والرجل الأول في أمريكا أيام إدارة بوش) التي يصب جزء منها في المزايدة السياسية حول تردُّد أوباما وضَعفِه وخطورة الحديث عن الخروج من أفغانستان، وأنه سيؤدي إلى دعم الأفغان لطالبان؛ حيث قال: «إن المواطن الأفغاني العادي يسمع كلاماً حول إستراتيجيات للخروج ومتى نخرج من هناك (أي: أفغانستان) بسرعة؟ بدل التركيز على كيفية كَسْب الحرب هناك». ولم يسأل نفسه ولم يسأله أحد أنه: إذا كانت إدارته التي دخلت أفغانستان ورفعت شعار «النصر لنا» لأكثر من سبع سنوات قد فشلت في تحقيق الأهداف المعلنة؛ فلماذا يطالب إدارة أخرى وصلت إلى الحكم بسبب فشل سياسات إدارته باتباع خطاه أو خطاياه؟ لقد وجدت أمريكا نفسها في محيط متلاطم من المشاكل التي سببها محاولة السيطرة الأحادية على العالم، والقائمة على فكرة التفوق وادعاء الحق المطلق؛ ففي معرض هجومه (أي: ديك تشيني) على أوباما قال: «إنني أؤمن أكثر من أي وقت مضى بالفكرة القائلة: إن أوباما لا يؤمن بالاستثنائية الأمريكية، وأن الأمة الأمريكية أمة خاصة، وأننا الأعظم، وأن الشعب الأمريكي هو الأكثر حرية بين الشعوب التي عرفتها الإنسانية»، وأضاف: «عندما أرى الطريقة التي يعمل بها يزداد اقتناعي بأنه غير ملتزم بالمفاهيم التي التزم بها الرؤساء الذين عرفتهم، سواء كانوا من الديمقراطيين أو الجمهوريين».

إنها شعارات قوية، ولكنه رفعها من على كرسيِّه المتحرك؛ فهو لم يعد قادراً على المشي. والسؤال المهم هنا، هو: هل لنا أن نذهب بعيداً ونقول: إن أمريكا نفسها لم تعد قادرة على المشي دون مساعدة الآخرين وأن نسمي سياسة أوباما بـ: سياسة الكرسي المتحرك؟

(*) أستاذ مشارك في كلية الهندسة، جامعة الملك سعود، الرياض.

نظرية أوباما:

هناك قناعة متزايدة لدى صناع القرار في أمريكا، وهي: أنها وإن كانت قوية، فإنها لم تعد قادرة على الادعاء بقدرتها على تحقيق ما تريد؛ فقد ولَّى عصر القبض على فلان حياً أو ميتاً، ومن ليس معنا فهو ضدنا، وضمان نجاح تحقيق أي مخطط أمريكي؛ فالقوة وحدها كافية؛ فهي الحق وهي الحجة.

إن المشكلة الجديدة التي تواجه أمريكا حالياً هي توفُّر القوة وانتفاء القدرة، أو بكلمة أخرى: إن القوة لا تكفي ومن ثَمَّ فالسياسة بحاجة للتفكير بعمق، سواء للخروج من الأزمات أو تنفيذ المخططات. وحيث إن الخروج من الأزمة مقدَّم على تنفيذ المخططات، فقد بدأ أوباما بالقاهرة وركب فيها كرسيه وبدأ يبشر بأمريكا الجديدة التي تأخذ برأي الحلفاء ولا تفرض عليهم تنفيذ الأوامر وأن المعركة هي معركة الجميع وبعد بضع كلمات حول عظمة الإسلام طلب من الدول الإسلامية المُحِبة للسلام أن تساعد أمريكا في حربها ضد (تيار العنف) ولم يختلف كلامه في إستانبول كثيراً وأبان الموقف من القضية الفلسطينية؛ فقد أعطانا كلاماً نتلهى به حتى ينتهي من ورطتَي (العراق وأفغانستان).

أثناء الحملة الانتخابية كان الطرح الديمقراطي قائماً على أساس أن الحرب على الإرهاب انحرف مسارها بسبب غزو العراق التي لم يجد (أي: أوباما) لها تبريراً يمكن التصريح به ما عدا تكراره لمقولة بوش: إن العراق أحسن حالاً بدون صدام حسين. وأن الهدف الأول لإدارته مواجهة القاعدة والتركيز على أفغانستان؛ ولذا رفع شعار الانسحاب من العراق والتركيز على أفغانستان؛ ولذ فإنه بعد انتخابه قام بمضاعفة القوات الأمريكية التي دخلت في صراع عنيف تكبدت فيه خسائر فادحة دفعت قائد القوات الأمريكية إلى أن يطلب زيادة جديدة تبلغ أربعين ألف جندي.

تردد أوباما كثيراً في التجاوب مع هذا الطلب لقناعته بأن

زيادة القوات بدون إستراتيجية، إنما هي مجرد جعل الهزيمة أكثر فداحة؛ ولذا طلب المهلة تِلْو المهلة لرسم إستراتيجية جديدة حول أفغانستان تقوم على ثنائية جديدة تجمع بين (المكر والقوة)؛ فقد بدأ النسر أخيراً يفكر بعقلية ثعلب شرير.

وقبل أن نتكلم عن الخطة الأمريكية الجديدة في أفغانستان يَحْسُن بنا أن نُلقي بعض الضوء على الأوضاع الحالية في أفغانستان.

تعيش أفغانستان حالياً وضعاً فريداً؛ فالبلد مقسَّم إلى مناطق نفوذ متداخلة ومتغيرة على النحو التالي:

مناطق نفوذ قوات الاحتلال:

نتيجة للرغبة الأمريكية في تجميع أكبر عدد من البلدان وتشجيعها على المشاركة ولو كانت اسمية، فقد سُمح للبلدان المترددة باختيار أماكن تواجدها؛ ولذا يلاحَظ تركُّز العمليات العسكرية في المناطق التي ترابط فيها الدول المرتبطة بقوة مع أمريكا كـ (بريطانيا و كندا و أستراليا)، أما الدول الأخرى فقد اختارت مناطق ترى أنها يمكن أن تكون هادئة: إما لأنها مناطق نفوذ لقوى مناوئة لطالبان أو أنها مناطق لا تحرص طالبان على تسخينها حالياً؛ فمثلاً القوات الألمانية اختارت المناطق الشمالية ورابطت في ولاية قندز التي يسيطر عليها التحالف الشمالي، ويسود فيها الهدوء. ونظراً لحرص الحكومة الألمانية الشديد على استمرار الهدوء، فقد تم فتح تحقيق حول تصرُّف القوات الألمانية بطلب دعم جوي أمريكي كانت نتيجته مقتل حوالي مئة مدني من سكان المنطقة، وهو ما عرَّض أمن القوات الألمانية للخطر؛ لتردِّي العلاقة مع السكان المحليين وقد استقال نتيجة لذلك أحد الوزراء وتبعه رئيس الأركان: إنها أحداث توحي بأن المهم هو الوجود الظاهري وليس بالضرورة المشاركة الفعالة. أما القوات الإيطالية، فقد كانت ترابط في منطقة ساروبي قرب كابل التي تتميز بالهدوء، وعلى هذا الأساس رضيت القوات الفرنسية باستلامها وعلى الفور وقعت دورية فرنسية في كمين قُتل فيه حوالي ستة جنود. ومن الغريب أن تداعيات الحادث بدأت في إيطاليا التي وُجِّهت فيها الاتهامات للمخابرات الإيطالية بعدم الشفافية مع الفرنسيين وعدم إطلاعهم على أن الهدوء كان عن طريق علاقات واتصالات سرية مع طالبان. وكنت استغرب دفاع وزارة الدفاع الفرنسية عن الإيطاليين وأنهم تعاونوا بشكل كامل، وأخيراً كشف ناطق باسم طالبان عن أن الفرنسيين يحاولون السير على خطى الإيطاليين ولو بكفاءة أقل؛ فقد صرح قائد جبهة كابل لقناة الجزيرة بأن القوات الفرنسية العاملة في أفغانستان عرضت على الحركة أموالاً طائلة مقابل تعهُّدها بعدم شن هجمات عليها، وأضاف: إن الحركة ترفض مثل هذه العروض، وتصر على انسحاب كافة القوات الأجنبية من الأراضي الأفغانية. وأشار في هذا الإطار إلى أن هناك مجموعات كثيرة تأخذ الإذن من طالبان وتتعهَّد باستلام الأسلحة من القوات الأجنبية عبر الحكومة ونَقلها إلى الحركة، مضيفاً: إنهم أوفوا بوعودهم وأحضروا تلك الأسلحة للحركة. ويبدو لي أن طالبان حريصة على السيطرة الحقيقية على المناطق المحيطة بكابل واستتباب الهدوء فيها حتى لو كان الثمن السماح بالتواجد الظاهري لقوات الاحتلال غير الأساسية؛ لكون هذه المناطق منطلَقاً لأي عمليات يراد تنفيذها داخل كابل.

حالياً لم يعد سراً أن المال سلاح مهم في أفغانستان ويصرِّح العسكريون والساسة، بل المشرعون بأهمية دفع المال وبرَّروها بأسباب متعددة: مرة بأن ما يُصرَف للأفغان، هو البديل الأجدى من زيادة عدد القوات، وأخرى بدعوى تقليل دعم عامة الأفغان لطالبان، وثالثة بدعوى أنه الوسيلة الوحيدة لتشجيع المسلحين على وَضْع السلاح والانخراط في المجتمع الجديد، وقد أكد وزير الحرب الفرنسي أن بلاده لن ترسل تعزيزات إضافية إلى أفغانستان، واعتبر أن الخطوة الأصح، هي تخصيص مزيد من الأموال لمحاولة استمالة الشعب الأفغاني ومواجهة التعاطف مع حركة المقاومة الإسلامية طالبان بدلاً من إرسال مزيد من التعزيزات العسكرية. وكشف الوزير الفرنسي عن أن إرسال جندي واحد إلى أفغانستان يكلِّف الخزينة الفرنسية ١٥٠ ألف يورو سنوياً. أما الجنرال الأمريكي ستانلي ماكريستال (قائد القوات الأمريكية والناتو، فقد كلَّف الجنرال جريمي لامب (الرئيس السابق للقوات الخاصة البريطانية) بأن يتولى برنامجاً لتشجيع المقاتلين على التخلي عن المقاومة والقبول بالاحتلال؛ إذ يقول الجنرال لامب: إنه يجب أن نقدِّم للمتمردين أمناً وتدريباً مهنياً ووظائف وعفواً عن جرائمهم السابقة، مضيفاً: «لقد جرى عقد مصالحة في السابق مع المتمردين، وتم إعادة دمجهم مرة أخرى في المجتمع في حالات سابقة؛ لذا يجب عقد حوار معهم يرون من خلاله أن هناك أملاً وفرصة؛ لأن الطريقة الوحيدة لمكافحة التمرد، هي توفير حياة أفضل لهم. ولكي تؤتي عملية إعادة الدمج أُكُلها، فإن الأفغان بحاجة إلى حكومة يقاتل الناس من أجلها وليس مقاتلتها هي، وحتى الآن لا توجد تلك الحكومة. إن الحديث مع طالبان سوف يؤتي ثماره فقط إذا صاحب ذلك برنامج مكثَّف لإعادة بناء البلاد، يمكنه أن يؤدي إلى إفراز حكومة نظيفة تحمي شعبها وتعطيهم فرصاً حقيقية، ولكن للأسف هذا هو الالتزام طويل الأمد الذي تحاول الولايات المتحدة أن تتجنبه في أفغانستان». وكانت واشنطن قد كشفت الشهر الماضي عن مشروع قانون

الإنفاق الدفاعــي الأميركي الذي يتضمن بنـداً جديداً يقضي بدفع أموال لمقاتلــي طالبان الذين ينبــذون العنف. ومن جانب آخر قال ناطق باســم وزارة الدفــاع البريطانية: إن الحديث عن رشــوة طالبان الذي أوردته صحيفة تايمز «عــارٍ عن الصحة». وأوضح أن ما ورد في الدليل العسكري الجديد، هو التركيز على أهمية تمويل مشاريع تُدِر فوائد ســريعة على المواطنين الأفغان وتعطي نتائج سريعة لكسب ثقة أبناء القبائل. وأضاف المتحدث: إن ذلك يتم عبر تمويل المشــاريع التنموية ومشاريع إعادة البناء التي من شــأنها الوفاء بالاحتياجات الآنيــة للمواطنين الأفغان، لكنها لا تعني أن تلك الأموال ســتُدفع لشــراء المسلحين لكسب ولائهم. لكن الذي لم يذكره الناطــق البريطاني، هو: أن القوات البريطانية كانــت متفاهمة مع طالبان لضمان الهدوء في هلمند قبــل أن تدخل القوات الأمريكية علــى الخط وتُحوِّل هلمند إلى أكثر المناطق ســـخونة. وببساطة: إن أمريكــا لا تريد أن تخوض الحرب لوحدها.

مناطق نفوذ طالبان:

تُقِر قوات التحالف على لســان قادتها بأن طالبان تسيطر بصورة متفاوتة علــى أغلب الولايات الأفغانية وخاصة المناطق الريفية ويُلقون باللوم في ذلك:

أولاً: على فساد الحكومة الأفغانية.

وثانياً: على قلة عدد قوات التحالف.

ولا يتكلمــون عن نجاح طالبان في ضبط الأمن في المناطق التي يسيطرون عليها مع اعترافهم بعودة طالبان القوية.

ومما يدل على اتساع نفوذ طالبان، هو إصدار طالبان كتيب تعليمات يحدد الإطار الذي تســير عليــه الحركة في المرحلة الحالية، وهو ما يوحي بأن مســتوى سيطرة طالبان يحتِّم رسم الأطر التي يتعامل وَفْقَها المنتمون للحركة لأهمية الســير وَفْقَ التوجيهات الشرعية، وعدم السماح بالتجاوزات غير المنضبطة، خاصة في التعامل مــع جنود الحكومة العاديين والمتعاملين مع الاحتــلال، وقَصْر معاقبتهم على الإمام أو نائبه. وإليك - أخي القارئ - بعض ملامح هذه التعليمات، كما نُشــرت في وسائل الإعلام مع بعض التعليقات عليها:

اسمها: «لائحة المجاهدين في الإمارة الإسلامية في أفغانستان» التي أصدرها أهل الحل والعقد في الإمارة الإســلامية. وأوضحت اللائحة في مقدمتهــا أن الداعي لها مقتضيات الوضع الراهن في أفغانســتان، وأن مصدرها الشريعة الإســلامية، وأن قيادة الإمارة الإسلامية وعلماءها وضعــوا هــذه المبــادئ حتــى يتمكن المســلم أو المجاهد من تحقيق هدفه ومواجهة الأعداء. وجاءت اللائحة في ١٣ فصلاً و ٦٧ مادة مفصَّلة، ودُوِّنت في كُتيب مؤلَّف من ٦٥ صفحة:

الفصل الأول من اللائحة: حمل عنــوان: «القضايا الأمنية»، وتضمَّن موادَّ ونصوصاً عدة، أهمها: «أنه يمكن لأي مسلم أن يوجِّه الدعوة لموظفي الحكومة العميلــة لكي يتركوا وظائفهم. ومَن يقبل هذه الدعوة يعدُّ آمناً على نفسه بأمر مسؤول طالبان في الــولاية أو المديريــة» وفي مادة أخرى من هذا الفصل ورد أنه: «إذا تعرَّض أحد المجاهدين لـِمَن أُعطي الأمان، فإنه يُقدَّم للمحاكمة».

الفصــل الثانــي مــن اللائحــة: جــاء تحت عنــوان: «الســجناء» ومن المــواد الواردة فيــه أنــه: «إذا اعتُقل كافر محــارب، فــإن قَتْلــه أو مبادلتــه أو أَخْذَ الفديــة من باب مصلحــة المســلمين. وصلاحيــات ذلــك للإمــام أو نائبه». وفي مادة أخرى من هذا الفصل جاء أنه: «إذا استســلم جنود للمجاهدين، فإنهم لا يُقتلون، ويكافؤون إذا سلَّموا أسلحتهم».

أما الفصل الثالث من اللائحة: فقد خُصِّص لـ «العملاء»، ومِن مواده أنه: «إذا ثبت أن شــخصاً يتجسس لصالح الأعداء، فإنه يعدُّ مفسداً ومن حق الوالي أن يعذِّره أو أن ينفيه. ومن حق الإمام وحده أو نائبه أن يقرر في قتله».

أما الفصل الثالث عشــر والأخير فــي هذه اللائحة: فقد تضمَّن توصيات بشأن هذه اللائحة؛ حيث «لا يحق لأحد تغيير بنودها، ويُعَدُّ أي تغيير من صلاحية الإمام».

من الواضح أن هذه اللائحة تؤكد على مرجعية الملاَّ (محمد عمر) كزعيم لحركة طالبان ويُطلق عليه لقب: الإمام.

إن هذا الكتيــب يحدد ملامح تعامل الإمارة الإســلامية مع الواقع والتوازن بين هدف تطهير البلاد من المحتلين وعدم الانجرار نحو صراعات جانبية نتيجة التعامل غير المنضبط مع المتعاملين مع حكومة في ظل الاحتلال أو المحتلين مباشرة، سواء كان تعامُلهم من بــاب التأوُّل أو النفاق، ورَبْطُ التعامل معهم برأس الإمارة. ولنتذكر هنا صبر الرســول ﷺ على رأس النفاق ابن أبي ســلول وأهمية ســدِّ الباب أمام النعرات وردود الأفعال القائمة على العصبية عند التعــرُّض للزعامات إنــه باب فُتح في العــراق وأنتــج ما يســمى بـ: (الصحوات) وإنَّ ســدَّه مهم لمنع العــدو من تكرار التجربة في أفغانستان تحت اسم: «مبادرة الدفاع».

لا شــك أن محاولة تكرار التجربة في أفغانســتان ســتكون لها الأولوية القصوى لضمــان التحول من قتال المحتل الكافر إلى حرب داخلية يتراجع فيها الشــعار الإسلامي كلما طال زمنها، كما حصــل من اقتتال بين المجاهدين بعد خــروج الروس، وهنا أوجِّه كلمة لطالبان وأقولها صريحة: إنني أدعوهم للتفاهم مع حكمتيار وتأليف قلبــه؛ فهــو من القـــوى التي تجــاهد العــدو ولا يجوز

تجاهله؛ فلا تُسبقوا إليه.

نفوذ الحكومة:

لا يعجب الإنسان من تسارُع الأحداث وتحوُّل الحكومة الديمقراطية والشرعية إلى عنوان الفساد، ومن تصوير حق الناخب الأفغاني في المناطق النائية في المشاركة في اختيار الرئيس وتصوير الحمير وهي تحمل صناديق الانتخاب: «إنها مهزلة أن تُعلَن النتائج بسرعة لا تتناسب مع سرعة الحمار في طريق العودة» ثم بسرعة تتوالى الطعون في النزاهة وفي لجنة الانتخابات التي تُشرف عليها وتزكيها الأمم المتحدة، ويتحول قرضاي وحكومته إلى عنوان الخداع والفشل، ومع ذلك أُعيد تنصيبه مع الطلب منه أن يحسِّن سلوكه. وباركت هيلاري كلنتون تنصيبه؛ فلا بديل له ولا أهمية للخونة إذا لم يتقنوا الدور المرسوم وعاد ممثل الطاجيك (عبدالله عبدالله) إلى الخلف؛ فلم يحن دوره بَعْد وقد لا يحين. لقد تم إسقاط طالبان بدعم مباشر من تحالُف الشمال من (الطاجيك والأوزبك) ولكن ما لم يفهموه، هو: أن أفغانستان إذا فشل في حُكْمها العميل البشتوني فغيره سيكون أكثر فشلاً. وما دام الجيش الأفغاني تغلب عليه الأقليات، فهو غير فعَّال في مناطق البشتون الملتهبة؛ ولذا فالخيار هو ميليشيات من القبائل البشتونية؛ إذ ما زالت طالبان هي التي تُحدد المناطق الهادئة أو الملتهبة وليس الحكومة. وما دام الأمريكان لهم دور حتى في حراسة الرئيس، فإننا لا نستطيع أن نتكلم عن نفوذ حكومة منفصل عن مقدار من قوات الاحتلال في كل منطقة؛ فوزير الخارجية البريطاني يقدِّر مدة بقاء الحكومة الحالية بعد انسحاب التحالف بأسابيع معدودة.

خطة أوباما:

تقوم خطة أوباما على أساس القيام بحملة عسكرية كبيرة لتقليل حجم طالبان ومن ثَمَّ إعطاء الحكومة الأفغانية فرصة للثبات، وبالطبع لا بد من الكلام عن حرمان القاعدة من الملاذ الآمن في أفغانستان: إنها خطة غير عملية ومبسطة ويقصد منها إرضاء كافة الأطراف؛ فقد وافق على طلب العسكريين زيادة القوات وفي الوقت نفسه حدد بدء الانسحاب بعد ثمانية عشر شهراً لإرضاء معارضي الحرب من حزبه والسؤال هو: ماذا بعد الانسحاب؟ هل ستبقى طالبان مقزَّمة أم أنها ستمتص ضربة أوباما كما امتصت ضربة بوش؟

نعم: إنها خطة ساذجة بالنسبة لأفغانستان، ولكنها في قمة المكر والخطورة على باكستان التي أرى أنها هي الهدف؛ فقد تعرضت باكستان للضغط وحتى التهديد من أجل الدخول في صراع مع القبائل البشتونية بدعوى التضييق على القاعدة وطالبان. وبدأ مسلسل يذكِّرنا بالعراق: إنها تفجيرات مفهوم بعضها وبعضها الآخر غير مفهوم. وحتى أكون واضحاً؛ فإن حزب الشعب الحاكم قائم على زعامات غير سُنية ولا أستطيع أن أفهم كيف يقوم الجيش بتدمير مناطق القبائل وتهجيرهم، سواء من وادي سوات أو جنوب وزيرستان: إنه حَفْر لأخدود من الحقد والكراهية بين الجيش والسكان ومن ثَمَّ تمرير مخطط إضعاف الجيش وإضعاف القيادات السُّنية فيه. وهنا لا أتصور كيف يكون استهداف كبار الضباط أثناء صلاة الجمعة! والسؤال هو: من سيحل محلَّهم في مناصبهم: هل سيكون ضابطاً شيعياً أو إسماعيلياً أو علمانياً؟ إنه مجرد سؤال يبرز إلى جانب ضرورة أن يكون لكل حركة منهاج تتعامل على أساسة.

إن الجيش الباكستاني يتعرض للإذلال والإلهاء حتى يصل إلى مرحلة تسيطر فيها أمريكا على السلاح النووي، وتعود باكستان دولة مفكَّكة تلعق جراحها. وأنا أسأل: إن كان المقصود، هو: إدخال باكستان في دوامة العنف حتى تصل إلى مرحلة انعدام الدولة؛ فأين القوى السياسية؟ أين الدعاة؟ أين الأصوات المخلصة من الجرائم التي ترتكبها حكومة قد أسلمت قيادها لأمريكا؟ وبلغ بها الأمر حدَّ تسليم مفاتيح السلاح النووي إلى رئيس الوزراء الأقل رتبة، وأُعطيت أمريكا حق «حماية السلاح النووي عند الضرورة». وهنا نلاحظ أن إستراتيجية أوباما تطبَّق في (أفغانستان و باكستان)، وهما الغائبان عنها؛ فقد تشاور أوباما مع حليفه الجديد ساركوزي وأبلغ رئيس الوزراء البريطاني والرئيس الروسي. أما رئيس الحكومة الباكستانية، فهو يستجدي التشاور مع حكومته ويتساءل: ماذا نفعل إذا ضغطتم على طالبان ودخلوا باكستان؟ والجواب: إنها مشكلتكم أنتم. أما قرضاي، فلا يملك إلا الترحيب وإنه يحتاج إلى خمس سنوات حتى يتمكن الجيش الجديد من القيام بالمهمة؛ أي: رجاءً لا تذهبوا بسرعة.

إنها خطة تقتضي خروج القوات الغربية واستمرار الحرب البينية في بلادنا، في باكستان وأفغانستان والخسائر مجرد حفنة من الدولارات من المطبعة مباشرة إلى الجبهة: إنها بدون رصيد.

إنها خطة يقع عبء تنفيذها على الآخرين. ولمن يبشر بضعف أمريكا أقول: إن أمريكا الضعيفة أكثر شراسة وضرراً من أمريكا القوية المعتدة بنفسها، لقد بدأت تُحس بالحقد على من فَضَحها وترغب بالانتقام ولا نستغرب من موجة اضطهاد للمسلمين في أمريكا بدأت ملامحها في الفترة الأخيرة ولا ننسى كلام صاحب الكرسي المتحرك (تشيني)؛ فهو يعني الكثير.

إنني في هذه العجالة لا أدَّعي أنني أملك حلاًّ، ولكن أدعوا الأمة جمعاء إلى الالتقاء على كلمة سواء أساسها الخوف من الله والتأكيد على حرمة دم المسلم؛ فإن (محمداً لا يقتل أصحابه).

أدعوا إلى التأكيد على حرمة دم المسلم؛ فإن (محمداً لا يقتل أصحابه)

وتأبى أفغانستان

تُشكِّل أفغانستان معضلة تاريخية للغزاة؛ فبقدر ما يكون غزوها في العادة سهلاً جداً، بقدر ما تكون محاولة البقاء داخلها أو تغيير واقعها أمراً شبه مستحيل. ويعود ذلك في الأساس إلى عدد من العوامل الجيوبوليتكيَّة من جهة، وإلى طبيعة الشعب الأفغاني من جهة أخرى؛ إذ يُعدُّ الأفغاني منذ ولادته مقاتلًا بالفطرة، وقد انعكست قسوة طبيعة بلاده الجغرافية على شخصيَّته، كما فرضت عليه الغزوات المتتالية تاريخياً موقفاً مقاوِماً حتى ترسَّخ في نفسه وذاته وأصبحت مقاومة الأجنبي المحتل سلوكاً أوتوماتيكياً، يعزِّزه إيمانه بدينه وثقته بنفسه.

وبقدر ما يكون المحتل قاسياً وعنيفاً بقدر ما تكون المقاومة له أشد، وما يميِّز الأفغان في هذا المجال ليس زخم المقاومة لديهم، وإنما نَفَسها الطويل. وتُواجِه الولايات المتحدة هذه الحقائق اليوم على أرض الواقع في أفغانستان وهي خائفة من أن تلاقي مصير الأمم التي دخلتها ولم تخرج منها إلا منهارة أو متفككة وآخرهم الاتحاد السوفيتي.

علي حسين باكير(*)

www.alibakeer.maktoobblog.com

(*) باحث في العلاقات الدولية.

الواقع الحالي:

بعد مرور ٨ سنوات - تقريباً - على غزو أفغانستان، لا تزال الولايات المتحدة وحلفاؤها لا يسيطرون سوى على مناطق محدودة وهامشية إلى جانب كابل. وحتى هذه المناطق الواقعة تحت سيطرتهم المباشرة وسيطرة الحكومة المركزية التابعة للرئيس الأفغاني حامد كرزاي، تتعرض لحصار مضاد من المد الطالباني بين كَرٍّ وَفَر، وهو ما جعل هذه القوات الأجنبية التي من المفترض أن تكون في موقع هجومي للقضاء على طالبان، في موقع دفاعي. أمَّا الحكومة المركزية، فهي لا تملك القوات الكافية والمدربة للسيطرة على هذه المنطقة فضلاً عن أن تقوم بتوسيع رقعة المساحة التي تحكمها.

وفي المقابل تسعى إستراتيجية طالبان إلى توسيع رقعة المناطق التي تسيطر عليها بشكل دائم أو المناطق التي تسيطر عليها بشكل متقطِّع، والتي تُعدُّ ممراً بين مناطق سيطرتها ومناطق سيطرة الحكومة، وذلك من أجل تحقيق أمرين أساسيين، هما: الأمن والعدالة، وقد ساهم غياب الحكومة المحلية وارتياب الناس في تلك المناطق من قوات التحالف في تعزيز سيطرة طالبان وقُدْرتها على تحقيق حاجات الناس الأساسية، وتوسيع رقعة نفوذها وتأثيرها.

إضافة إلى ذلك تسعى طالبان إلى فتح جبهات أخرى بعيدة خاصة في الشمال الأفغاني؛ وذلك لتشتيت قوات التحالف وقوات الحكومة والعمل على توسيع رقعة أماكن الاشتباك التي فيها أفضلية لقوات طالبان التي تتقدم مع حلول الليل عادة وتنسحب مع النهار إلى أن تُرهق قوات التحالف وتصبح غير قادرة على مواكبة هذا الكر والفر لا من ناحية العدد ولا من ناحية آماكن الانتشار.

معالم المأزق الغربي:

ويتمثَّل مأزق الولايات المتحدة ومعها دول حلف شمال الأطلسي «الناتو» في محدودية الخيارات اللازمة لمواجهة الحالة الأفغانية المستعصية، إن لم نقل انعدامها؛ فمنذ عام ٢٠٠١ وحتى اليوم، جرى الاعتماد على عدد كبير من الإستراتيجيات التي ثَبَت فشلها جميعاً. ويبدو أن الخيار القَبَلي القائم على إيجاد تشكيلات قَبَلية موازية للبشتون وتوظيفها في موجهة طالبان قد فشل فشلاً ذريعاً، نظراً لوجود أغلبية بشتونية في أفغانستان من جهة، وبسبب انشغال زعماء القبائل من قوميات أخرى بالمغانم والمكاسب التي نتجت عن مساندتهم الاحتلال، وبناءً على ذلك تم العزوف - على ما يبدو - عن هذا الخيار ودراسة البدائل المتاحة. وأما خيار الاحتفاظ بالمناطق المركزية ومحاولة توسيع رقعة الانتشار، فقد ثبت فشله أيضاً؛ لأنه يجعل قوات التحالف كما سبق وذكرنا في موقع دفاعي، ويسهِّل على مجموعات طالبان حصارها ومهاجمتها من جبهات عديدة من خلال المناطق الواقعة في أطراف البلاد.

وأمام هذا الواقع؛ فإنه سيكون على الولايات المتحدة: إما الانسحاب من أفغانستان في هذا التوقيت الحرج؛ لوقف النزف (To Cut The Losses) وعندها ستكون قد فشلت في إنجاز هدفها المعلَن، ألا وهو: القضاء على الطالبان وتمكين الحكومة المركزية الأفغانية من بسط سيطرتها ونفوذها على كامل الدولة، وإما أن تبقى وهي تعاني من النزيف المستمر والمتصاعد في العديد والعتاد، خاصة أن نَفَس المقاومة الأفغانية طويل، وأنها (الولايات المتحدة) تواجه نتيجة ذلك حالة تفكُّك دولية نتيجة تخلِّي الحلفاء عنها من جهة وازدياد الضغط الشعبي الداخلي في واشنطن من جهة أخرى.

وتحاول الولايات المتحدة في هذا الإطار تطبيق ما يمكن تسميته بـ: «الخيار العراقي» أو حتى نكون أدق، تحاول الولايات المتحدة اعتماد تكتيك زيادة القوات العسكرية الذي قامت بتجربته في النموذج العراقي الذي طبَّقت فيه إستراتيجية مركَّبة تضمَّنت زيادة القوات واعتماد العنصر الطائفي والقومي والعشائري الداخلي إضافة إلى زيادة عديد وتدريب القوات الحكومية المركزية.

خيار «النموذج العراقي»:

يَرى هذا الخيار أن جميع الإستراتيجيات السابقة فشلت فشلاً ذريعاً وأنَّ المشكلة تكمن في الأساس في نقص العديد والعتاد، وأنَّه إذا ما جرى زيادة القوت في مواجهة طالبان، فإنها ستكون قادرة على دحرها، كما حصل إثر زيادة القوات العراقية، والتي جاءت نتيجتها بعد عدَّة أشهر من الزيادة، من ارتفاع حصيلة القتلى من الجنود نتيجة لهذه الزيادة.

يبلغ تعداد قوات التحالف الدولي في أفغانستان استناداً

قوات التحالف الغربي لا يمكنها الانتظار طويلاً في مجال مفتوح ودون خطوط زمنية واضحة، وهو ما طالبت به مؤخراً العديد من الدول ومن ضمنها إسبانيا؛ لأن العملية أصبحت مكلفة لا من الناحية العسكرية والبشرية فقط، وإنما من الناحية السياسية أيضاً داخل هذه البلدان

إلى أحدث التقارير الرسمية الصادرة مؤخراً، حوالي ٨٨ ألفاً يتوزعون على ٤١ دولة. والمشكلة أن حلفاء الولايات المتحدة مازالوا مترددين في زيادة حجم قواتهم خاصة إثر ازدياد وتيرة وقوة عمليات طالبان وسقوط مزيد من القتلى في صفوف قوات الاحتلال.

وعلى الصعيد الأمريكي الداخلي، هناك شبه بداية لتململ واسع النطاق، من المنتظر أن يبرز إذا لم يتم حسم المعضلة الأفغانية سريعاً، كما أن الزخم المتعلق بأفغانستان، والذي حصل عليه الرئيس أوباما عند فوزه بالانتخابات بدأ يتراجع شيئاً فشيئاً. ومن المعروف أن خيار زيادة القوات يحتاج إلى صَبْر وجُهْد وإلى وقت وتمويل وإلى عتاد وتدريب، كما أن النتائج قد لا تكون مضمونة ذلك أن الواقع الأفغاني الديموغرافي والجغرافي – كما سبق وشرحنا – معقَّد للغاية، ومختلف عن نظيره العراقي، لا سيما في ظِل تطوُّر قدرات الطالبان العسكرية وتكتيكاتها القتالية.

فعلى الرغم من أن الولايات المتحدة تحمَّلت في الآونة الأخيرة العبء الأكبر في زيادة القوات، بين تشرين أول ٢٠٠٨، ونيسان ٢٠٠٩، بزيادة ١١ ألف جندي، إلا أن العدد لم يكن كافياً لإنجاز المهمة الأمريكية رغم أن مجموع القوات الأمريكية بلغ مع هذه الزيادة ٤١ ألف جندي.

ووَفْقاً للإستراتيجية الأمريكية الجديدة التي صدَّق عليها الرئيس الأميركي (باراك أوباما) في شباط ٢٠٠٩، سيجري زيادة القوات الأمريكية العاملة هناك بأكثر من ٢١ ألف جندي على أن يجري توزيعهم على مدار السنة حتى عام ٢٠١٠.

وتهدف هذه الإستراتيجية بشكل عام – كما سبق وشرحنا – إلى إضعاف وعزل طالبان، ومن ثَمَّ ضرب المخابئ التي ينطلقون منها في الهجوم عادة؛ وذلك لمنع عودتهم، ومن ثَمَّ حرمانهم من إمكانية شن أي هجمات وتثبيت النظام السياسي الوليد هناك.

مصير الخيار الجديد:

ليس هناك إجماع بين التحالف الدولي على زيادة عدد القوات العسكرية على الأرض في أفغانستان لا سيما من قِبَل فرنسا وألمانيا وكندا إضافة إلى بريطانيا؛ حيث تشهد هذه الدول ضغوطاً شعبية معارضة لزيادة القوات ومطالِبة بالانسحاب؛ للحفاظ على سلامة أبنائها على أساس أن الحرب في أفغانستان أصبحت عقيمة وعبثيَّة في ظل دروس التاريخ والواقع الحالي.

ويُعدُّ عامل الوقت عاملاً مُهمّاً للطرفين؛ إذ تُراهِن طالبان دوماً على المدى الإستراتيجي الذي يعتمد على العمل البطيء، لكنَّ المتدرج؛ أي: الثابت والمتعاظم، والذي من شأنه أن يُدخِل اليأس وفقدان الأمل في صفوف العدو، وأن يُدخِله أيضاً في دوامة الاستنزاف والخيارات المحدودة؛ فلا يقدر على الانسحاب الذي سيُحسب هزيمة له من جهة، ولا يقدر على البقاء ضمن المعطيات الحالية أيضاً.

وفي المقابل؛ فإن قوات التحالف الغربي لا يمكنها الانتظار طويلاً في مجال مفتوح ودون خطوط زمنية واضحة، وهو ما طالبت به مؤخراً العديد من الدول ومن ضمنها إسبانيا؛ لأن العملية أصبحت مكلِّفة لا من الناحية العسكرية والبشرية فقط، وإنما من الناحية السياسية أيضاً داخل هذه البلدان

وفيما يتعلق بالجيش الأمريكي، يسود اعتقاد أنَّ المشكلة ليست في نقص القوات؛ إذ لو افترضنا أنَّ الخطة القائمة على زيادة عديد القوات قد نجحت في دفع الطالبان إلى موقع دفاعي، فإن ذلك الإنجاز سيكون مؤقتاً في ظِل حقيقة عدم وجود سلطة سياسية أفغانية قادرة على بسط نفوذها وسيطرتها على كامل أفغانستان فضلاً عن الاحتفاظ بالمناطق التي تسيطر عليها أصلاً. وعندها يصبح الخيار الإستراتيجي الأمريكي برمَّته دون جدوى.



أفغانستان: أين يبدأ الصراع الدولي... وأين ينتهي الإقليمي؟



طلعت رميح

تشير حالة الحوار والصراع الداخلي التي جرت في الولايات المتحدة مؤخراً، إلى بدء اعتماد خطة إستراتيجية جديدة في حربها العدوانية على أفغانستان، تقوم على الاعتراف بالمصالح الاستعمارية للدول الإقليمية والحلفاء الدوليين في أفغانستان إلى جانب (مصالحها)، متخلّية بذلك عن إستراتيجيتها الأولى التي اعتمدتها قبل ثماني سنوات، وقامت على جلب مساهمة إقليمية ودولية على قاعدة استثمار التناقضات بين الدول وتقاطُع المصالح مع بعضها الآخر حول إطاحة حركة طالبان، دون إشراك أيٍّ من تلك الدول في إدارة أفغانستان المحتلة. وقد جاء التفكير والحوار والتغيير في الإستراتيجية الأمريكية، بعد أن أوصلتها إستراتيجيتها الأولى إلى حالة الهزيمة العامة، وهو ما وضعها أمام خيارات خطيرة على أهداف غزوها واحتلالها لأفغانستان وعلى وضعيتها الدولية، وهو ما دفعها أيضاً إلى اعتماد خيارات أخرى تقوم في جوهرها على تقديم تنازلات أمام الشركاء الدوليين والإقليميين الذين صاروا يطلبون مقابلاً، ولم يعودوا في وضعية المكتفي بمجرد المشاركة بالوجود على الأرض الأفغانية، كموطئ قدم عند بعضهم، أو أن يكون نصيبهم مقتصراً على مجرد إضعاف خصومهم.

وهو وَضْع جديد ساهم في الوصول إليه، ما أصاب قوة وقدرة الولايات المتحدة من تراجُع على الصعيد الدولي، حتى أنها هي من بات يعرض إغراءاتٍ على الآخرين؛ لتفعيل دورهم ومشاركتهم (ضمن حالة تفاوضية صراعية بطبيعة الحال، ككل فعاليات العلاقات الدولية)، وفي ذلك تتعقد الأوضاع بين الحلفاء في العدوان، كما تنفتح المعركة حول أفغانستان إلى نمط من الاضطراب والفوضى.

في المرحلة الأُولَى للغزو والاحتلال، استثمرت الولايات المتحدة التناقضات الإقليمية بين دول المنطقة لتحقيق مصلحتها في (القضاء) على حركة طالبان - حسب الوصف الأمريكي - واحتلال أفغانستان، كما أنها حملت معها بعضاً من الوجود والمساهمة من دول غربية، لأجل تحقيق الهدف ذاته وَفْقَ قاعدة تبادل المصالح بأشكالها المتعددة؛ لا على أساس بناء (جبهة أو تحالف) لاحتلال وإدارة أفغانستان.

في الوضع الإقليمي استثمرت الولايات المتحدة التناقضات بين الهند وباكستان للضغط على باكستان من جهة ولفتح مساحةِ تَمَدُّدٍ للهند في أفغانستان من جهة أخرى، وهو ما جعل محصلة التناقض (الهندي الباكستاني) في مصلحة الحرب على طالبان.

كما استثمرت الولايات المتحدة التناقض والصراع بين حركة طالبان وبعض جيرانها، خاصة إيران، التي ساهمت على نحوٍ مباشر في عملية الغزو والاحتلال التي خلصتها من صراع مع خصم إستراتيجي لها.

وفي الوضع الدولي، سمحت الولايات المتحدة لبريطانيا وفرنسا بالمساهمة الرمزية في العدوان، استثماراً للرغبة البريطانيا في الحصول على موطىء قدم في إقليم مستعمراتها السابقة، والرغبة الفرنسية المختزَنة منذ قرون للحصول على موطئ قدم في تلك المنطقة من العالم. كما استثمرت الولايات المتحدة وضعية وحاجة اليابان (لحماية القوة العسكرية الأمريكية لها من تنامي القوة الصينية وتسلُّح كوريا الشمالية)، فضغطت عليها للمشاركة في العدوان، من خلال تقديم دعم لوجستيكي للقوات الأمريكية. كما استثمرت حاجة ألمانيا لتغيير قواعد المعادلة المفروضة عليها عقب الحرب العالمية الثانية؛ فسمحت لها بتغيير أَوَّلِي في تلك المعادلة بخروج قواتها خارج حدودها في مقابل المساهمة في الحرب... إلخ.

وما إن احتلت أفغانستانَ وتأثَّرت تحضيراتها للعدوان على العراق، وبشكل خاص بعدما نشطت حركة المقاومة العراقية، عملت الولايات المتحدة على توسيع مساهمة القوى الأخرى على الأرض الأفغانية لعدم قدرتها على مواجهة التوسع الجاري في الأعمال العسكرية في العراق وأفغانستان معاً. وكان من أهم ملامحها مساهمة قوات من دول حلف الأطلسي في احتلال أفغانستان، لكن دون أن تسمح لأيٍّ من تلك الدول المساهِمة أو حتى الحلف كمؤسسة ومنظمة في وضع إستراتيجية العمل في أفغانستان؛ إذ ظلت الرؤية والفكرة الأمريكية، هي ذاتها؛ أي: الاستفادة من الخلافات والصراعات وتقاطُع المصالح بين الدول من أجل حَشْد قوتها تحت السيطرة الأمريكية ومن داخل إستراتيجيتها، كما كان الحال نفسه في العراق؛ إذ تواجدت قوات للعديد من الدول تحت الهيمنة الإستراتيجية للرؤية والفكرة والمصالح الأمريكية.

غير أن تطوُّر قدرة حركة طالبان وإلحاقها الهزيمة العامة بالإستراتيجية الأمريكية والأطلسية، وتوسُّع أعمال المجموعات الباكستانية المسلحة ضد قوافل الإمداد والتموين البري للجيش الأمريكي، في ظرف تفاعلت فيه مضاعفات الأزمة الاقتصادية على الولايات المتحدة، كل ذلك دفع الولايات المتحدة إلى الاعتراف بمصالح استعمارية للدول الأخرى، في مقابل زيادة مشاركتها في العدوان على أفغانستان.

لقد طالبت الولايات المتحدة دول الأطلنطي بزيادة عديد قواتها في أفغانستان، وصارت بالمقابل تُشرِك العديد من الدول الرئيسية في الأطلنطي في إدارة الملف الأفغاني الداخلي، وهو ما ظهر بشكل جليٍّ أثناء أزمة الانتخابات الأفغانية؛ إذ لعبت فرنسا وبريطانيا (والأمم المتحدة) بعضاً من الدور الواضح في تحديد نتائج الانتخابات والخطوات التالية لها. وضمن هذا التغيير في الإستراتيجية الأمريكية سعت الولايات المتحدة لإشراك روسيا في تلك الحرب والسماح لها بتحقيق قَدْر من مصالحها الاستعمارية في أفغانستان؛ لقد سمحت روسيا بمرور طائرات الإمداد والتموين الأمريكية عبر أجوائها، كوسيلة وطريقة آمنة لمواجهة تأثير الهجمات المتزايدة على قوافل الإمداد والتموين على الأراضي الباكستانية والأفغانية، وفي المقابل حصلت روسيا على عقود تسليحية للجيش والشرطة الأفغانية الحالية. وعلى الصعيد الإقليمي وسَّعت الولايات المتحدة

حركة المشاركة الإقليمية إلى درجة الطلب من طاجيكستان وأوزبكستان وتركمانستان لعب دور داخلي في التأثير على خيارات المجموعات الطاجيكية والأوزبكية والتركمانية داخل أفغانستان، وقد وصل الأمر حدَّ إلحاح الولايات المتحدة على إيران بلعب دور في دعم الخطة الأمريكية الجديدة من خلال التأثير على مواقف الهزارا الشيعة، وتحويلهم إلى حالة فاعلة في دعم الحكم ومواجهة حركة طالبان، وهو ما يمثل اعترافاً لها بدور داخل أفغانستان على غرار ما جرى في العراق.

لقد سعت الولايات المتحدة وما زالت إلى بناء تحالف جديد للحكم في أفغانستان، يجمع مكونات سكانية متعددة الأعراق والانتماءات والمصالح، يحظى بدعم إقليمي ودولي، وتشكيل حالة عسكرية وإستراتيجية دولية تخفِّف أعباء واستنزاف الحرب عليها (بشرياً واقتصادياً).

وهنا يبدو التساؤل ضرورياً حول الحالة الجديدة للمشاركة الإقليمية والدولية، وأين تتقاطع المصالح الدولية؟ وحول ماذا تختلف؟ وأين يبدأ الإقليمي وأين ينتهي؟ ذلك أننا لا نتابع فقط حالة متغيرة عن الإستراتيجية الأولى للولايات المتحدة، بل مختلفة في تكوينها وتشكيلة علاقاتها عن كل الصراعات التي جرت تاريخياً حول أفغانستان، بل يمكن القول: إن هذا التغيير في الإستراتيجية الأمريكية يجسد التغييرات والمستجدات الحادثة في الوضع الدولي وتوازناته.

التموضع الإستراتيجي:

كان الصراع على أفغانستان تاريخياً، حالة دولية بالدرجة الأولى لا حالة إقليمية، كما كان حالةَ صراع دولي مبسَّطة محدَّدة الأطراف بوضوح؛ إذ كان يجري تقليدياً بين بريطانيا وروسيا.

لقد حدث الصراع تاريخياً لاحتلال أفغانستان؛ لطبيعة التموضع الجيوسياسي والإستراتيجي لهذا البلد؛ إذ هي الدولة الأضعف في مقدراتها بين كل جيرانها؛ فكان الصراع عليها خطوةً لتأمين السيطرة الاستعمارية على دول أخرى مجاورة، حتى يمكن القول: إن التاريخ الاستعماري لهذا البلد كان لأسباب تتعلق بالصراع بين الدول الاستعمارية ذات الإستراتيجيات الدولية، دون مساهمة من الدول الإقليمية؛ إذ كانت دول الإقليم ذاتها خاضعة للاستعمار.

لقد جرى احتلال أفغانستان، أو شهد هذا البلد حروباً عدوانية من قِبَل بريطانيا خلال صراعها مع روسيا القيصرية، كما شهد من بَعدُ حرباً روسية في زمن الاتحاد السوفيتي للسيطرة على أفغانستان، واجهته فيها الولايات المتحدة. وفي كل تلك الحالات كانت أهمية الموضع الإستراتيجي لأفغانستان هي المحور الأساس للصراع. لقد حاولت بريطانيا احتلال أفغانستان عبر حروب ثلاثة؛ كانت جميعها تتعلق بالصراع مع روسيا: الأولى: في عام ١٨٣٩، والثانية: في عام ١٨٧٨، والثالثة: خلال الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٩. وهي التي انتهت باستقلال أفغانستان؛ إذ كانت تخشى بريطانيا خلال الحروب الثلاثة من تمدُّد روسيا إلى أفغانستان، وهو ما يهدد وجودها المتصل في استعمار الهند (وكانت باكستان لا تزال جزءاً من الهند) وإيران.

كانت الحرب الروسية أو السوفيتية سابقاً على أفغانستان في عام ١٩٧٩، نوعاً من الحرب بين الغرب وباكستان من جهة والاتحاد السوفيتي سابقاً من جهة أخرى أيضاً. لقد استهدف الاتحاد السوفيتي في السابق السيطرة على المساحة الإستراتيجية بين إيران وباكستان؛ للضغط على الصين أو لتطويقها وضَرْب العمق الإستراتيجي لباكستان المرتبطة في تلك المرحلة بالمنظومة الغربية، ولتثبِّت روسيا مصالح تحالفها الإستراتيجي مع الهند... إلخ، وكذا مواجهة المد الإسلامي المتنامي في الدول الإسلامية التي كانت خاضعة للاحتلال السوفيتي أو تحت عباءته.

لكن الجديد في معادلة الصراع على أفغانستان ما بعد الاحتلال الأمريكي لها في عام ٢٠٠١، هو:

أولاً: كثرة الأطراف الإقليمية والدولية المشاركة في الحرب: لقد صار البعد الإقليمي واضحاً وظاهراً في الصراع على هذا البلد؛ إذ أصبحت الهند وباكستان وإيران وأوزبكستان وطاجكستان وتركمانستان - بعد أن تحررت من السطوة والاحتلال السوفيتي المباشر سابقاً - دولاً مشاركة في الصراع على أفغانستان أو معنيَّة به مباشرة. وفي ذلك تبدو الإشارة ضرورية إلى الدور الهندي؛ إذ إن نمو القوة والقدرة الهندية عالمياً وعلى مستوى الإقليم موجَّهاً بالدرجة الأولى في المعركة حول أفغانستان. كما تبدو الإشارة ضرورية إلى تنامي دور إيران الإقليمي، وأن تمدُّد كلٍّ منهما في الإقليم جاء على حساب مصالح باكستان.

ثانياً: أن الصراع الدولي لم يعد محصوراً في دولتين، كما كان الحال سابقاً، بل صار خليطاً من مصالح

الولايات المتحدة وروسيا ودول حلف الأطلسي والصين واليابان... إلخ.

وهكذا؛ فإن إشكالية الولايات المتحدة الأساسية في احتلال أفغانستان، أنها تصورت في نفسها القدرة - وَفْقَ إستراتيجية استثمار التناقضات بين بعض دول الإقليم وتقاطُع المصالح مع بعضها الآخر ومع دول كبرى - على تحقيق الانتصار واحتلال أفغانستان والسيطرة عليها، وهو ما جاء متعارضاً مع الحقائق الإستراتيجية المتمثلة في التغييرات الإقليمية والدولية التي صارت تفرض قوَّتها على الإستراتيجية الأمريكية، مع تطوُّر وقائع الصراع في أفغانستان، وهو ما دفع الولايات المتحدة للرضوخ مؤخَّراً لفكرة تقديم قَدْرٍ من التنازلات على صعيد المصالح الاستعمارية للدول الأخرى.

الإقليمي والدولي:

وصلت الخطط الإستراتيجية الأمريكية الأُولى إلى الفشل والتخبط؛ غير أن وصول الخطط والقوات والمرتبطين بالاحتلال من الأفغان إلى حالة المأزق والفوضى، لا يعني أن قوات الاحتلال قاب قوسين أو أدنى من الانسحاب أو الاستسلام، أو أن الظواهر الأفغانية المرتبطة بالاحتلال صارت في حالة إعداد النفس للمغادرة مع الاحتلال؛ ذلك أن المعارك ذات الطبيعة الإستراتيجية من وزن المعركة الجارية في أفغانستان، يملك فيها الاحتلال بدائل متعددة للبقاء في المعركة؛ لأسباب عديدة. بعضها يتعلق بوجود قوات من دول متعددة في حِلْفٍ كبير، مثل: حلف الأطلسي، وبعضها يتعلق بأهمية المنطقة التي تجري فيها المعركة؛ إذ تهدِّد الهزيمةُ والانسحاب منها، مخططات كبرى للولايات المتحدة والأطلسي على الصعيد الدولي؛ حيث إن الهزيمة هناك ينتج عنها تغيير في التوازنات الدولية لا الإقليمية فقط، لأن المعركة تشهد تداخلاً بين مصالح وتوازنات تتعلق بصراعات كبرى في الإقليم (الهند - إيران - باكستان - الصين)، كما يجب الوضع في الحسبان أن القوة المقابلة في الصراع، لم تصل بعد إلى مستوى القدرة على إحراز النصر النهائي؛ إذ يعلِّمنا تاريخ الصراعات أن طَرَفاً ما قد يُهزَم لعوامل عديدة؛ غير أنه يبقى في ساحة الصراع؛ لأن الطرف الآخر المقابل، لم تتهيأ له سبل إحراز النصر النهائي كاملة. ووَفْقاً لتلك العوامل، شرعت الولايات المتحدة في بناء إستراتيجيتها الجديدة، لكن التقديرات الموضوعية تشير إلى أنها لا شك واصلة إلى المازق ذاته الذي وصلت إليه إستراتيجيتها الأولى، وربما ستنتهي إلى هزيمة أعقد وأشد صراحة ووضوحاً.

فالصراع على أفغانستان - وَفْقَ الإستراتيجية الأمريكية الجديدة - سيشهد تداخلاً واحتشاداً للعديد من القوى ذات المصالح المتنافرة في جانبها الإستراتيجي، وإن وجَدَت قَدْراً من التوافق حول مصالح آنية كونها معادية لتحوُّل أفغانستان إلى دولة إسلامية الحكم والتوجُّه وعلى نحوٍ من الراديكالية الإستراتيجية.

فعلى الصعيد الإقليمي، تبدو الهند صاحبة مصلحة في إضعاف باكستان وتطويقها، وإشغالها بمعركة طَرَفية داخل عمقها الإقليمي، وهي أيضاً ترى في إضعاف القوة الإسلامية في أفغانستان ما يحقق مصالحها الداخلية؛ إذ هي تتحسب دوماً لقيام دولة إسلامية (راديكالية) في الإقليم تشكِّل عامل جذب وقوة للمسلمين في داخلها. وهي ربما تجد في وجود القوات الأمريكية والأطلسية عامل ضغط على الصين للمنافسة والخلاف والصراع التقليدي معها، غير أن الطموح الإستراتيجي للهند، وربما التخطيط الإستراتيجي أيضاً، لا يجد في مصلحة الهند - إستراتيجياً - وجودَ قوة في وزن حلف الأطلسي والولايات المتحدة داخل إقليمها، إذا تصورنا أن الهند لا تجد في إقليمها ما يمكن السيطرة عليه لتحقيق التوسع والمصالح الاستعمارية الهندية سوى باكستان وأفغانستان وبنغلادش وسيريلانكا، على أساس أن الهند شبه جزيرة تحيطها المياة، ولا توجد لها مساحة للتمدُّد البري إلا باتجاه باكستان وأفغانستان... إلخ، خاصة وهي لا تملك الآن أو في المستقبل المتوقَّع مقومات للتحوُّل إلى قوة دولية كبرى تُحقِّق مصالحها خارج الإقليم، كما كان حال بريطانيا وفرنسا، وكما هو حال الولايات المتحدة.

وعلى الصعيد الإقليمي أيضاً، تبدو إيران في وَضْع مزدوج على صعيد مصالحها الآنية والإستراتيجية أيضاً؛ فإيران وإن كانت قد ساهمت بفعالية في العدوان الأمريكي على أفغانستان وإطاحة حركة طالبان كحركة سنِّية، قادرة على (تثوير) أوضاع السنَّة في إيران، وعلى وَقْف الطموح الإيراني للتواصل الاقتصادي الإستراتيجي مع الهند من خلال خطوط الطاقة (الغاز)، فإيران تخشى في الوقت ذاته من تحوُّل أفغانستان إلى مركز ضغط غربي (أمريكي وأطلسي) عليها وعلى مصالحها في بحر قزوين، ولذلك تبدو

خطتها في التعامل مع الصراع: في استمراره على الأرض الأفغانية حتى إضعاف الطرفين المتقاتلين (ولذلك أعلنت عن انزعاجها لا رفضها فقط، من بدء حوار غربي مع طالبان على لسان وزير خارجيتها عدة مرات) وَفْقَ ذات الإستراتيجية التي اعتمدتها في العراق لتوسِّع هي سيطرتها خلال تقاتُل الطرفين ولتقوى هي على حسابهما.

والصين في الحالة الأفغانية، هي دولة تجمع بين مصالح الدولة الإقليمية والدولة ذات الإستراتيجية العالمية في الوقت ذاته، وهي على صعيد مصلحتها الإقليمية تجد نفسها متضررة من الوجود الأمريكي والأطلسي في أفغانستان، سواء لأن المعركة الجارية تمثل إضعافاً لحليفها الإستراتيجي الوحيد في هذا الإقليم (باكستان) مقابل تصعيد عوامل قوة خصمها الإستراتيجي الهندي، أو لأن وجود قوات الأطلسي على حدودها يشكِّل إكمالاً لحصارها بالأعداء والقواعد (اليابان - كوريا - وأفغانستان - باكستان - الهند). ولكل ذلك لا شك أن الصين تنظر لما يجري على أنه خطر عليها إستراتيجياً، وإن كانت ترى في سيطرة طالبان نمطاً من خطر آخر على استقرارها الداخلي، بحكم الأوضاع المتوترة في تركستان الشرقية.

وعلى الصعيد الدولي، يبدو الوجود الأطلسي في أفغانستان نقطة وثوب غربية في هذا الإقليم، لكن الدول الغربية ليست موحَّدة المصالح في هذا الوجود. من جانب آخر تبدو أفغانستان هي (النقطة) الأولى في الوجود العسكري لحلف الأطلسي خارج أوروبا، وفي جنوب غرب آسيا.

وهو يمثل نقطة وثوب إلى الصين وإيران وباكستان التي يمثل إنهاء برنامجها النووي (وفي الأغلب وجودها كدولة أيضاً) هدفاً إستراتيجياً، كما أن الوجود العسكري في أفغانستان يمثل نقطة وثوب إلى بحر قزوين ومصادر الطاقة فيه، فضلاً عن أن أفغانستان هي قاعدة خلفية للوجود والسيطرة على الخليج العربي كذلك.

لكن ذلك لا يُلغي تمايزات المصالح بين الدول الغربية وبعضها البعض؛ فالولايات المتحدة تحاول من خلال السيطرة



على أفغانستان تكريس قوتها القائدة للعالم الغربي لا لتحقيق مصالح الدول الأخرى. وفي المعركة حول إيران، تبدو الخلافات الأوروبية الأمريكية نموذجاً واضحاً في دلالاته، وفي الصراع على نفط بحر قزوين يصل الأمر حد عَدِّ أوروبا المحاولة الأمريكية للسيطرة على بحر قزوين موجَّهةً ضد أوروبا، والضغط على الصين هو أمر مختلَف على حدوده وأهدافه واتجاهاته بين أوروبا الداعية معظم أو أهمُّ دولها إلى تُعدُّد الأقطاب والولايات المتحدة التي (تقاتل) دون الحالة الدولية القائمة... إلخ. ورغم أن الولايات المتحدة قد بدأت بالاعتراف بقَدْر من المصالح الاستعمارية للآخرين، فإن الشكوى ما تزال قائمة؛ إذ انتقد وزير الخارجية الفرنسي مؤخراً الولايات المتحدة لعدم تشاوُرها مع الذين يرسلون قواتهم للقتال في أفغانستان، كما أن التمايز الملحوظ في الحماس لاستمرار القتال ولإرسال القوات إلى أفغانستان يعكس تمايزاً للمصالح، وعدم الوصول إلى اتفاق بين الدول المشاركة في الحرب.

وعلى الصعيد الروسي، نحن أمام حالة يتعارض فيها ما هو آني وإستراتيجي؛ إذ روسيا على المستوى الراهن ترى إطاحة طالبان في صالحها لتحميلها الحركة الإسلامية أبعاد ما يجري في الشيشان وأنغوشيا، كما أنها تخشى من تنامي الحركة الإسلامية في البلاد التي خرجت من تحت عباءة الاتحاد السوفيتي السابق المجاورة لأفغانستان، والتي تعدُّها فِناء أمنها القومي، كما ترى روسيا في إضعاف الولايات المتحدة والأطلسي خلال الحرب الجارية في أفغانستان، أمراً يصب في مصلحتها المباشرة والإستراتيجية؛ إذ هي تعتبر أن اقتراب الحلف من حدودها ومجال أمنها القومي وإطلالته على بحر قزوين... إلخ، هو أمر خطير إستراتيجياً عليها.

الخلاصة: إن المعركة الجارية على أفغانستان حالياً، تحوي تداخلاً بين ما هو إقليمي ودولي، وَفْقَ حالة معقدة. الأغلب أنها ستصل بأفغانستان والخطط الغربية لاحتلالها، إلى حالة من الفوضى وعدم الاستقرار، حتى بعد انتهاء الاحتلال.

الإستراتيجية الإيرانية في أفغانستان



afahmee@albayan-magazine.com

«إن إيران لعبت في أفغانستان كلا دوري (البناء والهدم)، إنها تلعب في كلا الاتجاهين، وتحاول العودة إلى كابل بركلة ركنية»[1]. هذه تصريحات السفير الأفغانستاني في واشنطن سعيد طيب جواد، وهي تلخص على نحو دقيق إستراتيجية إيران في أفغانستان.

لقد نجحت طهران في فرض نفسها كلاعب رئيس في أفغانستان بعد فترة وجيزة من اندلاع ثورة الخميني عام ١٩٧٩م، وتعاظم الدور الإيراني مع الانسحاب السوفيتي من أفغانستان وسقوط النظام الشيوعي وبدء مرحلة الصراع بين المجموعات الأفغانية، ثم تراجع النفوذ الإيراني إلى حدِّه الأدنى مع ظهور حركة طالبان عام ١٩٩٦م وتسلُّمها للحكم في البلاد وحتى سقوطها عام ٢٠٠١م إثر الاحتلال الأمريكي، ليعود نفوذ طهران إلى القمة من جديد؛ بحيث أصبحت طرفاً رئيساً لا غنى عن التفاوض معه حول مستقبل أفغانستان؛ فما هي أهداف إيران في أفغانستان؟ وكيف تسعى لتحقيق هذه الأهداف؟

إيران وأفغانستان... الجغرافيا والتاريخ:

تلعب الجغرافيا دوراً معقداً في تشكيل المصالح الإيرانية في المنطقة؛ فهي تعطي النظام ميزات كثيرة تجعله متحكماً في عدد متزايد من الملفات الحيوية، وهو ما يعني مزيداً من النفوذ وتنامي الدور الإقليمي، ولكن من ناحية أخرى فإن الجغرافيا الإيرانية تضع النظام على شفير عدد من الأزمات.

(١) من مقال في مجلة التايم بعنوان: إيران ترفع الحرارة في أفغانستان، بريان بينيت: ٢٢ - ٢ - ٢٠٠٨م.

إننا إذا اعتبرنا أن العِرق الفارسي هو المتحكم الرئيس في إدارة الدولة الإيرانية، فإن التوزيع السكاني داخل إيران يكشف أن الكتلة الفارسية تتركز في الهضبة الوسطى الداخلية، بينما تتوزع الأقليات العرقية والدينية في المحيط الإيراني، وعلى الحدود الخارجية، يضاف إلى ذلك أن إيران محاطة بعدد من الدول المتفجرة داخلياً لأسباب عرقية أو دينية، مثل: أفغانستان، العراق، باكستان، وهذا يجعل المنطقة بأسرها خاضعة لتأثير «الدومينو»[1].

في ظل هذه الوضعية الشائكة يصبح من الصعب تعريف المصالح الإيرانية على نحو متفق عليه، هل تتوافق هذه المصالح مع خلخلة البُنى السياسية لهذه الدول إلى درجة التفكيك؟ أم أن ذلك سيؤدي إلى انتقال الخلخلة إلى الداخل الإيراني؟ وهل يعني ذلك أنه سيكون من مصلحة طهران أن تحافظ على استقرار هذه الدول وثبات الأنظمة الحاكمة فيها؟

بعد أحداث ١١ سبتمبر والاحتلال الأمريكي لأفغانستان عام ٢٠٠١م، ثم العراق عام ٢٠٠٣م، تغيرت معادلة الجغرافيا السياسية لتكتسب إيران وضعاً تفاوضياً قوياً ونفوذاً هائلاً في المنطقة؛ فقد تدخلت القوة العظمى في العالم؛ لكي تُسقِط النظامين السُّنيين شرق إيران وغربها، مع المحافظة في الوقت نفسه على الحد الأدنى من التماسك الهش للإطار الخارجي في كلتا الدولتين، وهو أفضل مما كانت تحلم به إيران؛ فهي في مأمن من فوضى عرقية ودينية على بوابتيها الشرقية والغربية، مع حرية مطلقة للدخول والخروج من وإلى الدولتين.

جغرافيا أفغانستان في المنظور الإيراني:

تقع أفغانستان إلى الشرق من إيران، وتمتد الحدود المشتركة بينهما إلى ٩٧٨ كم، وتُعدُّ إيران أحد المنافذ البحرية الهامة لأفغانستان، كما أن الأخيرة بمثابة ممر مباشر لإيران إلى آسيا الوسطى والصين.

يبلغ تعداد الأفغان ٢٣ مليون نسمة موزعين على أكثر من ٣٠٠ قبيلة، ويشكِّلون أربعة أعراق رئيسة، هي: البشتون ونسبتهم ٤٠٪، والطاجيك ٣٠٪، والأوزبك ١٠٪، والهزارة أقل من ٨٪، والأغلبية من السُّنة الأحناف، وتبلغ نسبة الشيعة نحو ٥٪، مع وجود نسبة أقل من الشيعة الإسماعيلية، وتعد اللغة الفارسية متداولة لدى ٦٠٪ من السكان، ويتحدث بها الطاجيك.

إن التحليل الجيوبوليتيكي لموقع أفغانستان في عقلية المخطِّط الإستراتيجي الإيراني يعطي ملمحين أساسيين:

أولهما: أن الإيرانيين يتبنون نظرية «المجال الحيوي» في التعامل مع كلٍّ من العراق وأفغانستان، وهذه النظرية تبلورت بعد الحرب العالمية الأولى على يد النازيين في ألمانيا، وتقول النظرية باختصار: «إن لكل شعب الحق بالاستيلاء على الجغرافيا التي يراها ضرورية لنموه»[2]. وهي نظرية تنطلق من احتقار الشعوب الأخرى والتعالي عليها، وهو ما يتناسب مع الثقافة الشيعية الموروثة تجاه السُّنة، خاصة وأن أغلب الدول المحيطة بإيران، والتي تشكل «مجالها الحيوي» هي دول سُنية.

وثانيهما: أن العراق وأفغانستان تحولا بعد الغزو الأمريكي لهما إلى «مناطق رخوة»؛ حيث اختلت فيهما موازين القوى بالدرجة التي فتحت المجال واسعاً لدخول قوى أخرى إقليمية ودولية إلى حلبة الصراع، وهو أمر لا يتناسب مع الأمن القومي الإيراني، ويحتم على طهران أن تدخل بكل قواها إلى كلتا الدولتين، مع ضرورة تَذَكُّر أن إيران نفسها ساهمت بصورة فعالة في تحويل هاتين الدولتين إلى حالة «الرخاوة».

تمكنت إيران من تفعيل المزايا الجيوبوليتيكية التي تتمتع بها؛ حيث إنها تحولت إلى لاعب إقليمي أساسي لا يمكن إغفال دوره في القضايا الحساسة بالمنطقة، وأبرزها الأزمة في أفغانستان، وكان الدور الإيراني حاضراً منذ البداية، فقد حَرَّضت طهران المجتمع الدولي بصفة مستمرة ضد حكومة طالبان منذ تشكُّلها في أفغانستان، ثم قدمت الدعم الاستخباراتي والعسكري والاقتصادي والسياسي لإنجاح الغزو الأمريكي، وتذكر بعض التقارير أن خبراء إيرانيين شاركوا بصورة مباشرة في التخطيط للمعارك ضد طالبان وفي تنفيذها أيضاً، وبعد سقوط الحركة ساهمت في عقد مؤتمر (بون)، ثم ساعدت في تشكيل الحكومة الانتقالية

(١) الدومينو: هي مجموعة من القطع على شكل مستطيل عددها ٢٨ قطعة، (موسوعة ويكيبيديا).

(٢) انظر مقال: حين يتقمص الضحية شخصية القاتل، ثائر دوري، مركز دمشق للدراسات النظرية والحقوق المدنية: ٤ - ٤ - ٢٠٠٩م.

فـي كابل، وتعهدت بتقديم ٥٠٠ مليـون دولار لجهود إعادة الإعمار، وتمتلك طهران تحكُّماً في عدد من الملفات الأفغانية الهامـة، مثل: المخدرات، اللاجئين، التبـادل التجاري، دعم الأقلية الشـيعية، تقديم الدعم العسكري لمجموعات متفرقة في أفغانستان، الحرب على الإرهاب... إلخ.

وترافق تعاظم التأثير الإيراني في أزمة أفغانسـتان مع تغيـر الرؤى في الولايات المتحدة من تبنٍ لـ «تدويل» القضية بالمشـاركة مـع الأمم المتحـدة وحلف الأطلسـي والاتحاد الأوروبي (وهـو رأي الجمهوريـين) إلى محاولـة «أقلمة» القضية من خـلال تفعيل دور الدول المجاورة لأفغانسـتان (وهو رأي الديمقراطيين)، وانطلاقـاً من هذا المفهوم عُقِد مؤتمر لاهاي لمناقشـة الأوضاع الأفغانية ودعيت إليه إيران في مارس ٢٠٠٩م، بعد أشـهر قليلة من تولِّي باراك أوباما رئاسة الولايات المتحدة.

أثر التاريخ في صياغة الإستراتيجية الإيرانية في أفغانستان:

لا يمكن تجاهل الخلفية التاريخية للعلاقة بين أفغانستان وإيـران؛ فلم تكن الأولى دوماً بمثل حالتها الراهنة، بل مرت بفترات قوة وبأس أذاقت فيها الدول الرافضية التي تأسست في إيران وبال أمرها، ويمكن تلخيص أهم المحطات التاريخية التي لها انعكاس على الحاضر في ما يلي:

١ - احتـل الفـرس الصفويون مناطق في أفغانسـتان منها ولاية قندهار مطلع القرن الثامن عشـر الميلادي؛ حيث عاثوا فيها فسـاداً، ولما اشتكى أهلها السُّنة للسلطان حسين الصفوي نقلـت بعض المصادر أنه قال لوفدهم : «إننا نؤجر و نثاب بإذلالكـم»، فكان أن ثار الأهالي على الصفويين عام ١٧٠٩م، ثم عـام ١٧١٦م وقتلوهم عن بكـرة أبيهم، وأعلن الأفغان الجهاد على الصفويـين وزحفوا إليهم بجيش كبير؛ حيث اجبروا السـلطان حسـين على الاستسلام وسقطت بذلك الدولة الصفوية الرافضية.

٢ - وفي عام ١٧٢٩م بدأ زعيم القاجار الشيعي نادر شاه حرباً ضد الأفغان السُّنة لإخراجهم من إيران، ثم لاحقهم إلى أفغانسـتان؛ حيث احتل أغلـب أراضيها ودخل قندهار عام ١٧٣٦م وخربها بعد حصار دام عاماً كاملاً.

٣ - وفي عام ١٧٤٧م تمكَّن الأفغان السُّـنة بقيادة أحمد خان من اسـتعادة قندهـار بعد طرد الإيرانيـين، ثم حرر أفغانستان كلها بعد قتال استمر ٢٥ عاماً.

٤ - وفي عام ١٨٣٧م تمكن شاه إيران بدعم الروس من احتلال هراة في أفغانسـتان؛ إلا أن دوست محمد الأفغاني استرجعها بعد عدة سنوات.

تُبـرِز هذه المحطات التاريخية اسـتمرارية الصراع بين السُّنة في أفغانستان، والشيعة في إيران، وأن سكان قندهار علـى وجه الخصوص كان لهم دور كبير في مواجهة الأطماع الإيرانية في بلادهم، كما كان لهم دور في تحرير أفغانستان كلها من نفوذهم، وقد أورثهم ذلك عداوة الشيعة في إيران.

ولا يختلف الحاضر كثيراً عن التاريخ؛ فلا تزال المواجهة قائمة بين الولايات الجنوبية في أفغانسـتان وسـكانها من البشتون السُّـنة وبين الإيرانيين، الذين يتوارون حالياً خلف الاحتلال الأمريكي.

ما يلفت الانتباه أن التدخل الأمريكي في أفغانستان جاء مناصـراً للجانب الإيراني بصورة سـافرة؛ فعلى الرغم من تكرار مطالبة المسؤولين الإيرانيين بالانسحاب الأمريكي من أفغانسـتان، إلا أن العداء الأمريكـي يبدو واضحا للأعداء التقليديين لشـيعة إيران؛ أي: البشـتون السُّنة، سواء على الجانب الباكستاني أو الأفغاني، ويصدر مسؤولون أمريكيون تهديدات دورية ضد مؤيدي طالبان على الجانب الباكستاني، داعـين إلى «تطهير» الجيش وأجهزة المخابرات من العناصر ذات الميول الدينية ويزعم المبعوث الأمريكي ريتشارد هولبروك أن السـي آي إيه تمتلك أدلة مادية على ضلوع الاستخبارات الباكسـتانية في تقديم الدعم لطالبان البشـتونية، و قائد القوات الأمريكية الأميرال مايـكل مولن يؤكد هذه العلاقة ويقول: «هناك بالطبع مؤشرات، وهذا واحد من الأمور التي يجب أن تتغير»[1].

هذا الضغط الأمريكي الهائل على الجيش الباكسـتاني لدفعه إلى التخلي عن خلفيته الدينية التي تأسسـت عليها دولة باكستان من الأساس، يقابله تفهُّم أمريكي كامل للعداء الإيراني للأفغان السُّـنة؛ فقد صرح الجنرال ديفيد بتريوس قائد القيادة العسـكرية الوسـطى بأن الولايات المتحدة لها مصالح مشـتركة مع إيران في أفغانسـتان، وذكر أن إيران

(١) نيويورك تايمز: ٢٥ - ٣ - ٢٠٠٩م، سي إن إن: ٢٨ - ٣ - ٢٠٠٩م.

التي يهيمن عليها الشيعة لا تريد عودة حكم طالبان السُّني، وقال: «إنهم لا يريدون أن يروا أفغانستان في قبضة قوات سُنية متطرفة»[1].

الإستراتيجية الإيرانية في أفغانستان:

الأهداف:

لا تقدم الطائفية تفسيراً كلياً لمفردات الأداء السياسي الإيراني رغم كونها منطلقاً أساسياً له، وهذا أمر طبيعي؛ إذ توجد منطلقات أخرى تشكِّل في مجموعها الإطار العام للسياسة الإيرانية، هذه المنطلقات ترتبط بالأمن القومي والمصالح الاقتصادية والسياسية المختلفة، وعلى ضوء ذلك يمكن استعراض أبرز الأهداف الإيرانية في أفغانستان في الآتي:

١ - تأمين المصالح الإيرانية في أفغانستان بوصفها دولة، وبكونها ساحة للصراع على النفوذ في منطقة آسيا الوسطى.

إن المصلحة الأبرز لطهران، هي الحيلولة دون قيام نظام مركزي سُني قوي في أفغانستان يمكن أن يشكل تهديداً مستقبلياً لإيران، وتمثل طالبان الهاجس الأكبر للمخطط الإيراني؛ كونها تحمل منطلقات عقدية ذات صبغة سلفية، كما أن لها قبولاً واسعاً في أوساط البشتون، فضلاً عن نجاحها من قبل في تأسيس حكومة قوية استمرت خمس سنوات.

كانت هذه الفترة كافية لمعرفة ما يمكن أن يحدث في حال استرجعت طالبان الحكم في أفغانستان، ويكفي أن الصراع بين الحركة والأقلية الشيعية أسفر عن مقتل أكثر من خمسة عشر ألفاً أغلبهم من طالبان، وذلك في المؤامرة التي نفذها الشيعة عام ١٩٩٦م بمشاركة الأوزبك في مزار الشريف ونتج عنها مقتل عدد كبير من قيادات طالبان ووزرائهم وعلمائهم، وهو ما دفع الحركة إلى العودة لاحقاً إلى المدينة وإقامة الحدود الشرعية على المتورطين ثم تتبعوا المتآمرين إلى باميان موطن الشيعة الهزارة ووادي كيان موطن الإسماعيلية عام ١٩٩٨م.

وقد سارعت قيادة الحرس الثوري الإيراني إلى حشد ما يقرب من مائتي ألف جندي على الحدود مع أفغانستان بعد سقوط مزار الشريف وتوتُّر الأجواء إثر إعدام طالبان لعدد من الدبلوماسيين الإيرانيين المدانين بالتجسس.

ويعبِّر مستوى الدعم الإيراني للغزو الأمريكي لأفغانستان عن أن إسقاط طالبان كان يمثل أولوية قصوى للنظام الإيراني، وقد افتخر الرجل القوي في النظام الإيراني هاشمي رفسنجاني بقتالهم سوية مع الأمريكان ضد طالبان، فقال في خطبة ألقاها بطهران: «إن القوات الإيرانية قاتلت طالبان، وساهمت في دحرها، وأنه لو لم تُساعد قواتهم في قتال طالبان لَغَرق الأمريكيون في المستنقع الأفغاني. يجب على أمريكا أن تعلم أنه لولا الجيش الإيراني الشعبي ما استطاعت أمريكا أنْ تُسْقط طالبان»[2]. يضاف إلى قائمة المصالح أن أفغانستان تمثل حجر الزاوية في حال قررت إيران «الاستدارة شرقاً» مبتعدة عن النظام الإقليمي للمنطقة العربية، متجهة نحو منطقة «شمال غرب آسيا» بتعبير د. عبد الله النفيسي؛ حيث ينادي عدد من المفكرين الإستراتيجيين الإيرانيين بالبدء في هذا التحول؛ لأن إيران أكثر قبولاً في هذه المنطقة، كما أن لها مصالح متنامية في دول هذا الإقليم الواعد التي تتشارك إيران الحدود مع بعضها[3].

وتحظى المصالح الاقتصادية مع أفغانستان برعاية خاصة بسبب الاعتماد الأفغاني بدرجة كبيرة على المنتجات الإيرانية لأسباب عديدة، منها: التقارب الثقافي والجغرافي، وقد نمت التجارة الإيرانية الأفغانية من ١٠ ملايين دولار عام ٢٠٠١ إلى نصف مليار دولار في عام ٢٠٠٦، ثم تضاعفت إلى مليار دولار في عام ٢٠٠٨م[4]. وتحتل مكافحة تهريب المخدرات أولوية في قائمة المصالح الإيرانية في أفغانستان؛ حيث يُهرب ثلث الإنتاج الأفغاني المقدر بـ «٢٥٠٠ طن» عبر الأراضي الإيرانية، وبحسب المدير التنفيذي لبرنامج الأمم المتحدة لمراقبة المخدرات ومنع الجريمة المنظمة أنطونيو كوستا؛ فإن إيران تتصدر قائمة الدول التي تعاني من الارتفاع الحاد في تعاطي المخدرات بشكل عام، في الوقت الذي ما زالت فيه أفغانستان تتصدر قائمة أكبر الدول

(١) مفكرة الإسلام: ٩ - ١ - ٢٠٠٩م.

(٢) الشرق الأوسط: ٩ - ٢ - ٢٠٠٢م.

(٣) انظر مقال: الحسبة الإستراتيجية في العراق، د. عبد الله النفيسي، الموقع الشخصي: ١٦ - ١٢ - ٢٠٠٦م.

(٤) إسلام أون لاين: ١٢ - ٢٠٠٩م.

المنتجــة لمخدرات الأفيون في العالــم؛ حيث ما زال إنتاجها يتجاوز رقم ٨٢٠٠ طن في العام[1].

٢ - الحيلولـة دون تفـكُّك أفغانسـتان إلى دول صغـيرة، أو: منع إعادة رسـم خريطـة المنطقة؛ لتظهـر دول جديدة، مثل: دولة البشـتون، أو دولة البلوش، وهو ما يهدد التركيبة المعقدة للدولة الإيرانية.

هل تريد إيران تفكيك أفغانستان وإنهاءها كدولة موحدة؟ تتشــابه أفغانستان مع العراق في المنظور الإيراني في أمور: (الجوار، التمــزق الطائفي والعرقــي، الخضوع للاحتلال الأمريكي، إمكانية التفكيك والتقســيم بحسب تلقي الدعم من الخارج).

إن الوضــع النموذجي لإيران، هو حالة التفكك الداخلي مع بقــاء الإطار الخارجي الهش للدولــة، وهي وضعية بين التفكيــك والتقســيم تتيح لإيران النفوذ إلــى مراكز القوى والأطراف المتصارعة في أفغانســتان، مع صلاحية مطلقة للدخول والخروج.

وتقوم فكرة إعادة رسـم الخرائط على أساس أن الحـدود بـين الـدول غـير مكتملـة وأن تجربة الكيان السياسـي الذي يضم «تشكيلة» من الأعـراق والطوائــف المـتوافـقة دينـياً أو قوميـاً في إطـار «لمِّ الشـمل» غير ناجحة، ويجب تصحيحها وَفْقَ مبدأ القومية الخالصة أو الطائفة النقية في الدولة الواحدة.

مخططات إعادة رسم خريطة المنطقة ليست سراً؛ حيث يجري تســريب خرائط وتصورات جديدة كل فترة، وآخرها ما نشر في مجلة القوة العسكرية الأمريكية في يوليو ٢٠٠٦م ولقي انتشاراً واسعاً في الإعلام العربي، وهي خريطة جديدة للشــرق الأوســط تظهر فيها دول جديدة، مثل: بلوشستان الحرة، والتي تقتطع أراضي من باكستان وجنوب أفغانستان وجنوب إيران، ودولة: كوردســتان الحرة، التي تضم مناطق الأكراد في إيران وتركيا وسوريا والعراق.

وتقوم فكرة إعادة رسم الخرائط على أساس أن الحدود بــين الدول غير مكتملة وأن تجربة الكيان السياســي الذي يضم «تشــكيلة» من الأعراق والطوائــف المــتوافــقة دينــياً أو قومياً في إطار «لمِّ الشمل» غير ناجحة، ويجب تصحيحها وَفْــقَ مبدأ القومية الخالصــة أو الطائفة النقية في الدولة الواحدة.

وَفْــق هذه الرؤية؛ فإن إيران هي الخاســر الأكبر؛ لأنه سيُقتطع منها أجزاء تذهب للبلوش والأكراد والعرب الشيعة والأذريــين، بينما سيُســمح لها بالحصول علــى قطعة من أفغانســتان؛ حيث يعيش الهزارة، لذلــك تُفضل إيران في المرحلة الحالية سياســة تمدُّد النفوذ عبر مختلف الوسائل بخلاف التقســيم أو الاحتــلال حذراً مــن تداعيات غير محسوبة. وتحرص واشــنطن على رعاية واستضافة جهود الحــركات الانفصالية فــي هذه المنطقــة، وبخاصة الذين يطالبــون بتأســيس دول جديدة، وقبل أســابيع قليلة عقد انفصاليون من البلوش مؤتمراً دولياً في واشــنطن للمطالبة بإنهاء ما أسموه: الاحتلال الباكســتاني والإيراني للإقليم، وبإقامة دولة بلوشية تحت رعاية الأمم المتحدة لفترة انتقالية، وقد حضر المؤتمر خبراء سياســيون ومسؤولون سابقون في الإدارة الأمريكية[2].

٣ - تحقيق مسـتوىً مـن التوازن بين جميـع الأطراف في أفغانسـتان بحيـث لا يتفـوق طَـرَف على آخر، وهذا يشـمل بالأسـاس: قـوات الاحتـلال، الحكومـة المركزيـة، طالبـان والبشتون، التحالف الشمالي.

ما الذي يبقي أفغانســتان على تلــك الوضعية المثالية للسياسة الإيرانية: «وضعية البين بين»؟

لا بــد أن تبقــى كافة الأطراف والقــوى الفاعلة داخل أفغانســتان في حالة توازن؛ بحيث لا تمتلك إحداها سيطرة مطلقــة على الســاحة أو تكــون لها القــدرة النافذة على إزاحة القوى الأخرى؛ فعندما اشــتعلت الحرب الأهلية في أفغانستان حرص الإيرانيون - ظاهرياً - على تبنِّي سياسة الحياد وعدم التدخل بين المتصارعين، لكن هذه السياســة تغيرت مائة وثمانــين درجة بمجرد أن ظهرت حركة طالبان للوجود وتمكَّنت من إقامة دولة مســتقرة - نســبياً - على أغلب الأراضي الأفغانية. ويمكن تتبع التناقض الإيراني من خلال هذه المواقف:

١ - كتــب كمال خــرازي وزير خارجية الأســبق مقالة

---

(١) مقال: المخدرات والإرهاب: ورقة إيران الجديدة، إبراهيم حمودة، موقع الإذاعة الهولندية: ٢٦ - ٥ - ٢٠٠٩م.

(٢) العربية نت: ٢٥ - ١١ - ٢٠٠٩م.

في الواشـــنطن بوست يوم كان الطالبان في بداية صعودهم الأفغاني، دعا خلالها الأميركيين لاستغلال الفرصة والتعاون في الملف الأفغاني.

٢ - رحبـــت إيـــران بالتعـــاون مع واشـــنطن في غزو أفغانســـتان على لســـان وزير دفاعها وقتها علي شامخاني، وفتحت مجالها الجوي لفترة تزيد عن شهرين لطائرات B٥٢ العملاقـــة التي انطلقت من قاعدة إنجرليك التركية وعبرت المجال الجوي الإيراني لقصف أفغانستان.

٣ - صرح نائب وزيـــر الخارجية الإيراني محمد مهدي أخونـــد زاده بـ «أن وجود القوات الأجنبية لا يمكن أن يحقق السلام والاستقرار في أفغانســـتان»، وذلك تزامنا مع عَقْد مؤتمر لاهاي مارس ٢٠٠٩م.

٤ - قـــال المرشـــد الإيراني علي خامنئـــي خلال لقائه بالرئيســـين الأفغاني والباكستاني: «إن التـــدخل العسكري الأجنبي هو أحد المشاكل الرئيســـيـــة للمنطقة»، وأضاف: «إن أعـــداء هذه الدول وشـــعوبهـــا ليســـوا هم الجماعات المتطرفـــة فقط، بل أيضاً القوى الأجنبية التي تحول تدخلها العســـكري إلى مشكلة رئيسة تعيق الاســـتقرار والأمن في المنطقة»[1].

٥ - في جلســـة عاجلة للبرلمان الإيراني طالب رئيســـه بســـرعة التحرك من أجـــل تدارك الانهيـــار الأمريكي في أفغانســـتان، ودعـــا لإنقاذ حكومة كـــرازاي، وطالب محمد خزاعـــي مندوب إيران الدائم في الأمم المتحدة في جلســـة خاصة لمجلس الأمن بتحفيز الولايات المتحدة على التماسك في أفغانستان في مواجهة «الظلاميين والإرهابيين»، وانتقد دعوة الاتحاد الأوروبي إلى فتح مفاوضات مع طالبان، ودعا وزير الخارجية الإيراني صراحة في الأمم المتحدة في أكتوبر ٢٠٠٩م، وفي ما يشـــبه صرخة الاســـتغاثة إلى وجوب دعم قوات الناتو في أفغانســـتان وعدم السماح بانتصار طالبان، وأعلنت حكومته لاحقاً (في أبريل ٢٠٠٩م) عن وَضْعها خطة أمنية جديدة لمساعدة الاحتلال عـــلى ضبط الوضع الأمني في أفغانســـتان.

وتأتي اللهفة الإيرانية على تقديم سُبُل الدعم للاحتلال الأمريكي على خلفية ما يتردد من تراجُع ســـقف التوقعات الأمريكيـــة في أفغانســـتان، وتردُّد مخـــاوف تنفيذ عملية انســـحاب تدريجية في المنظور القريب؛ فقد صرحت وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون أن الهدفَ الأساسي من الوجودِ الأميركي في أفغانستان، هو «القضاءُ» على القاعدةِ وليس البقاءُ في البلاد إلى ما لا نهاية أو بناءُ «ديمقراطيةٍ» حديثة فيها، متجنبة الإشارة إلى حركة طالبان.

ومما يعاظم من المخـــاوف الإيرانية من اختلال التوازن العسكري في أفغانستان، هو تباين الخيارات المطروحة للحل من قِبَل القادة والمفكرين الغربيين؛ فهناك من ينادي باللجوء إلـــى إيران وفتح مجال التعـــاون غير المحدود معها في هذه الأزمة، وهناك من ينادي بالتفاوض مع طالبان كحل وحيد.

علـــى ســـبيل المثال قالت هيـــلاري كلينتـــون: إن إدارة أوباما «متلهفة» للاســـتماع إلى مقترحات إيران حول الأزمة الأفغانية، وفي المقابل اعترف القائد العسكري البريطاني في أفغانستان، العميد مارك سميث كارلتون، لصحيفة صنداي تايمز، بأن الحرب ضد حركة طالبان لا يمكن كسبها، ونصح الجمهور البريطاني بأن لا يتوقع انتصاراً عســـكرياً حاسماً، ودعاه ليتهيأ لصفقة محتملة مع حركة طالبان[2].

هـــذا الموقف الواضح مـــن القـــوات الأمريكية لا يمنع المخطط الإيراني من تقديم أنوع مقننة ومبرمجة من الدعم للقوى التي تقاتل الاحتلال الأمريكي في أفغانســـتان، فقد ذكر فيكرام ســـينغ كبير مستشـــاري هولبروك العسكريين: «أن الإيرانيـــين زودوا بعـــض الجماعـــات في أفغانســـتان ببعض الأســـلحة في الماضي»، وقال: «إن هناك أسباباً تدعو للاعتقاد بأن إيران تقدِّم أسلحة ومواد أخرى للمتمردين في أفغانستان ومنهم طالبان»[3].

وكان الســـفير البريطاني في أفغانســـتان شيرارد كوبر كولز وجَّه الاتهام نفسه لايران؛ حيث قال: «لقد رأينا الكثير من المجموعات الإيرانية تقوم بتوريد الأسلحة لطالبان، لكن ليـــس بالضرورة أن يكـــون بعلم الســـلطات الإيرانية، لكن امتلاك طالبان في جنوب أفغانستان مثل هذه الاسلحة أمر خطير»[4].

ونكمل في العدد القادم بمشـــيئة الله الإجابة على الشق الثاني من السؤال المطروح في بداية المقال: كيف تحقِّق إيران أهدافها في أفغانستان؟

(١) موقع الإذاعة الهولندية: ٢٦ - ٥ - ٢٠٠٩م.

(٢) مجلة العصر: ٧ - ١٠ - ٢٠٠٨م.
(٣) الجزيرة نت: ١٣ - ٨ - ٢٠٠٩م.
(٤) موقع تلفزيون الآن: ٢٤ - ٩ - ٢٠٠٨م.



قصة المعركة

فهـد بـن صـالح العجلان

حـين تقرأ كتاباً أو تقلّب صحيفـة أو تحرّك موقعاً إلكترونيـاً فتجد المقولات التي تُصادِم النص الشـرعي صراحة، وتدعو لرؤية مغايرة بالكلية ومصادمة تماماً للأحـكام الشـرعية؛ فإن مـن المفارقات أن تجـد أن كل هذا – بحسـب كاتبـه - لا يعـارض النـص ولا يناقض أحكامـه، وإنما يخالـف تفسـيراً فقهياً معيّنـاً لا يقرُّه النص ولا يتوافق مع أصول الشريعة.

هـذا خيـط موحّـد يجمـع كلَّ الأفـكار والرؤى المعاصـرة الـتي تُصادِم النـص وتناقـض الإجماع؛ بحيـث لا تكاد تجد أحداً يبدي صراحته في عدم اعتبـاره لقيمـــة النـــص الشـرعي، بـل كل تلك المخلّفـات الفكريـة والمخالفات الشـرعية تُقدَّم في قالب التفسـير الفقهـي للنص، والسَّـير على خط الاعتدال والوسطية التي دافعها الغيرة على النص من اختطاف الرؤى التفسيرية المتطرفة.

لقـد أدرك خصوم النـص أن المعركة ضد النص محسـومة النتائج، وكل خطوة للأمام انكشـاف تام ودخـول لخط النـار، وفي الضمير الحي للشـعوب المسـلمة من معاني الحب والتعظيم والفداء للدين وقِيَمه ما يجعله يمشئز من مرأى هذا المحارِب، فضلاً عن قبول رأيه أو تفهُّم دواعيه.

عَلِـم خصـوم النـص أن قواهـم الفكريـة والإعلامية عاجزة عن تمزيق سياج النص للنفوذ إلى قلب الشعوب المسلمة، فكان أن لا بد من حيلة تكون موصلـة إلى هذه الغاية من غير الاصطدام بهذا السـياج المُحكَم، فتحركـت بوصلة المعركة مـن مواجهة مع النص إلى تخـطٍّ للنص عن طريق مسايرة النص الشـرعي بجعل كلِّ الرؤى والمفاهيم المنحرفـة داخلـة في مفهـوم النـص، ويقبَلها الفَهْم والتفسـير الفقهـي بطريقة شَـرَحَ مفاصل إسـتراتيجتها أحدهم بقولـه: (طريق لا عقلاني للعقلانية).

لم يتغير شـيء مـن تلـك المفاهيـم؛ فمفاهيم المعركـة الأولى هي ذاتها مفاهيـم المعركة الثانية، لكنها بدلاً من أن تكون ضد النص الشرعي أصبحت مسـايرة له ومتوافقـة معه، وأصبحـت مفاهيمهم المأخوذة من القيم الوافـدة (بقدرة قادر) مفاهيماً شرعية تضافرت النصوص على تقريرها.

> **لا حلَّ أمام هذه اللصوصية الثقافية إلا بتكاتف العلماء والمثقفين والمفكرين الغيورين على كشف هذه الممارسات العبثية وإزالة الأقنعة التي تُخفي عوارها، وإعلان المفاصلة التامة مع أفكار التأويل والتحريف للنصوص الشرعية**

هــذا التغيُّر الإســتراتيجي قد يــراه بعض الناس إيجابيــاً وتصحيحاً لدى خصوم النــص، لكن الواقع أن هذا التغيير خطير جداً على المفاهيم والأحكام الشرعية؛ لأن عامــة الناس ليس لديهم قدرة تفصيلية على معرفة الحق والباطل، وإنما المعيار المعتمَد لديهم هو في موافقة النــص أو مخالفته، وحين تُقدَّم الانحرافات الفكرية في قوالب شرعية، فمن السهل وقوع التلبيس على كثيرٍ من الناس لظنهم أنها موافقة للدين ولما يريده الله ورسوله.

إن تعظيم الشعوب المسلمة للنصوص الشرعية هو مِن أقوى وسائل الحفاظ على هوية وثقافة هذه المجتمعات، وحين تتمكن اللصوصية الثقافية من كســر هذا السياج والدخول بعدها في عمق النص لممارسة العبث والتأويل للأحكام والمفاهيم الشرعية؛ فإن هذا مؤشِّرُ خَطَرٍ وبلاء سيحل بمفاهيم الناس وقيمهم من حيث لا يشعرون.

لا حلَّ أمــام هذه اللصوصيــة الثقافية إلا بتكاتف العلمــاء والمثقفين والمفكرين الغيورين على كشــف هذه الممارســات العبثية وإزالة الأقنعــة التي تُخفي عوارها، وإعلان المفاصلــة التامة مع أفــكار التأويل والتحريف للنصوص الشــرعية؛ بحيث يكون حالهــا كحال المعطَّل والمنكِر، بل أشد من ذلك، وأن يكون واضحاً لدى الوعي المسلم أن الاستدلال بالنص الشرعي ليس دائماً علامة اتباع واستهداء، بل كثيراً ما يكون توظيفاً يراد به تحويل النص من كونه حلاً لمشكلات الثقافة العصرية إلى جعله مشكلة يُخَلَص منها إلى الدخول إلى ثقافة العصر.

وسنتناول في هذه الزاوية – بإذن الله – جوانب مختلفة من هذه المعركة الثقافية المتخطية للنص الشرعي.




عبد الله عيسى السلامة

أَغْرِقْتَ في بَحْرِ الخَطايَا … فذَهلتَ عن قَرْعِ الرَّزايا؟

فَغَدوتَ - يا متمرِّداً … أنِفاً - مَطَايا للمَطَايا

أفَلَستَ مَنْ قد علَّم الدنـ … يا مُقارعةَ المَنايا؟

أَفَلَستَ مَن يروي الوَرى … عنهُ القَصائدَ والحَكايا؟

هل مِتَّ مِن خَوف الردَى؟ … خوفُ الردَى شرُّ البلايا

يدَعِ الأَبيَّ ضحيَّةً … للوهم، تَحقِرُها الضَحايا

وتُعربِدُ الذُّؤبانُ في الـ … أوطَانِ... تأخُذُها سَبَايا

ويَصيرُ جزَّارُ البلادِ مُكرَّماً، حَسَنَ السَجَايا

ويقدِّمُ (الموتى!) لهُ … أشْلاءَ شَعبِهِم هَدايا

يَلهُو بها، ولقد يُوزِّعُها نُذوراً، أو وَصَايا

ورُكَامُ أربَابِ الشوارِب … في المَحافِلِ والزَّوايا

يَتَسامَرون، ويَشْرَبون طِلىً على سِيَرِ الصبَايا

فإلامَ؟ دونَك سُنَّة الـ … ماضين... آثاراً، وآيا

مَنْ سَلَّ سيفاً منهُمُ … للحربِ، أو مَنْ سلَّ نَايا

[المسلمون.. والعالم]



الصومال
بين الفشل الداخلي والمكر الخارجي

محمد إدريس أحمد(*)
hayaan@gmail.com

إن المأساة الصومالية التي تُنْهي عامها التاسع عشر في (يناير - ٢٠١٠) لا تزال تراوح مكانها الذي بدأت منه قبل تسعة عشر عاماً حين فرَّ من العاصمة رئيس آخر حكومة مركزية صومالية (محمد زياد بري) في ١٤ يناير ١٩٩١، بل الحال أسوأ، وصور المأساة اليوم أفظع من بدايتها، والنفق المظلم الذي يتخبط فيه الصوماليون يبدو مسدوداً لا مخرج منه، إلا أن تتداركهم رحمة الله بالضعفاء والمساكين والبهائم في هذا البلد المنكوب: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

الواقع الحالي مرعب، والأخبار اليومية مفزعة:

- ثلاثة ملايين نازح في الداخل معظمهم نزح من العاصمة مقديشو إلى ضواحيها؛ حيث يفترشون الأرض ويلتحفون السماء.

- نصف مليون في المخيمات على الحدود الكينية والأثيوبية في حالة مأساوية.

- الهاربون من الوضع المتردي يغرقون في خليج عدن، والبحر الأبيض المتوسط، ويهلك بعضهم في الصحراء بين ليبيا والسودان.

أما في مقديشو، فلا تزال المدافع تحصد الآلاف، وفي الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر ٢٠٠٩ فقط حصدت نحواً من مائة ضحية وثلاثمائة جريح. وهناك أُسَر كاملة توفيت ودفنت في مقابر جماعية، والجرحى في الطرقات لا يجدون الإسعافات ولا الأدوية، في ظل انعدام المستشفيات والرعاية الصحية، ومعظم المدارس والجامعات معطَّلة بسبب الحرب المستمرة. وبحسب إحصاءات الأمم المتحدة؛ فإن نحو مليون شاب لم يتلقوا أي تعليم خلال السنوات العشر ما بين ١٩٩٧ - ٢٠٠٧، والجهات الإغاثية تقول: إن نحو ثلاثة ملايين شخص مهدَّدون بالموت جوعاً، وفي حاجة إلى إغاثة عاجلة.

يَحْدُث هذا في بلد حباه الله بأوفر الحظ والنصيب

(*) كاتب وداعية صومالي.



من الثـروات الطبيعية المختلفة: مـن أرض زراعية تبلغ مساحتها نحو ٨,١ مليون هكتار، تكفي لإطعام ١٤٢ مليون من البشـر، بينما لا يتجاوز عدد السكان ٨ ملايين، وفيها نحـوٌ من ٦ ملايين رأس من الإبـل (أكبر عدد في العالم علـى الإطلاق)، و٣٠ مليون رأس غنـم، و٢٠ مليون رأس بقر، يخترق أرض الجنوب نهرا (جوبا وشـبيلي). ويتمتع الصومال بموقع إسـتراتيجي في القرن الإفريقي وبأطول ساحل في إفريقيا كلها؛ فطوله يبلغ ٣٣٠٠ كيلو متر؛ حيث يُشرِف على سواحل المحيط الهندي ومدخل البحر الأحمر والخليـج العربـي؛ ولذلك يكون من أكثـر ممرات العالم ازدحاماً، ويمكن أن يُنتج ٣٠٠ ألف طن من الأسماك و٢٠ ألـف طن من الجمبري، ولكن في ظل انعدام الدولة تُنهَب هـذه الخيرات وقد أثبتت الأمم المتحدة أن هناك أكثر من ٧٠٠ سـفينة صيد تصطاد الأسماك بصورة غير شرعية، ودول السـوق الأوروبية وحدها تسـحب من السـواحل الصومالية مـا قيمته ٣٠٠ مليون يـورو، هذا إلى جانب البترول والمعادن المختلفة، ولكن الصوماليين محرومون من هذه الكنوز والخيرات، بسبب عقوبة الخلافات والحروب وعدم التوفيق، ولله في خلقه شؤون.

أما الحـرب الجارية بين المتصارعين على الأنقاض، فيتفق المراقبـون - تقريباً - على أنها حرب لا غالب فيها ولا مغلوب، وهناك أكثر من طَرَفٍ يعمل على إضرامها والنفخ فيـها كلمـا خبـت أو قَرُب خمودهـا؛ لتبقى حرب اسـتنزاف وإنهاك لكل الأطراف، ولتسهُل السيطرة عليها.

(لا غالب في الحرب الصومالية الفوضوية)

كان هـذا عنوان التقرير الذي نشـرته جريدة نيويورك تايمز يوم ٢٠٠٩/٦/١ لمراسـلها جيفري جتلمان. قال فيه: (الحكومة تسـتجدي المسـاعدات، وتقول: إن زيادة القوات الدولية وزيـادة الأمـوال والأسـلحة تمكِّنهـا من هزيمـة الإسـلاميين المتشـددين، غير أن الواقع أشـد قتـامة، وهو ما لا يريد أن يعترف به أي طرف.

الصومـال أصبحت اليوم الحرب التـي لا ينتصر فيها أحد، على الأقل فـي الوقت الراهن... لا أحد من الفصائل الحالية: (حكومة الإسلاميين المعتدلين، الشباب المتشددين، علماء الصوفية الذين يسيطرون على بعض المناطق الوسطى، حكومـة أرض الصومـال المنفصلة، حكومة بونتلاند شـبه المنفصلـة) لا أحد من هؤلاء يبدو قوياً أو منظَّماً أو شـعبياً بما فيه الكفاية؛ لحسم المعركة لصالحه والانتصار على بقية الأطراف، وإنهاء العنف الذي حصد الآلاف خلال السـنتين الأخيرتين فقط.

وهذا هو الواقـع؛ لأنه لو انتصـر أيُّ فصيل أو طَرَف خلال هذه المدة الطويلة، وحَسَـم الصراع على السـلطة لصالحه، لانحسـرت المأساة، واسـتراح الناس من الحروب والصراعات المتجددة، ولكن لا الأطراف الصومالية المختلفة التي كادت أن تكون مرشـحة لحسم القضية كانت مستعدة تنظيمياً وسياسياً لذلك، ولا الأطراف الخارجية كانت راغبة في هذا الحسم، ومن ثَمَّ تَوافَق الضعف والفشل الداخلي مع المكر والعداء الخارجي لتبقى الأمور كما هي، و يدفع الشعب

الصومالـــي فاتورة الثمن الباهظ من دمائه، ودموعه، وبلاده وثرواته، وسيادته واستقلاله.

واقع الأطراف المتصارعة:

الأطـــراف المتصارعة على الركام فـــي الصومال داخلياً في الوقت الراهن كثيرة، ســـواء كانوا أصحاب مصالح ذاتية تتحرك بنفسها، أو وكلاء عن أطراف خارجية يجري تحريكها عن بُعْد؛ فهناك الإسلاميون بانتماءاتهم المختلفة، ومواقعهم المتضادة، وهم أبطال الفصول الأخيرة للمســـرحية المرعبة مؤدِّيـــن أدوارهم باقتدار من جهتَـــي (الحكومة والمعارضة). وهنـــاك بعض الطرق الصوفية التـــي تُلمِلم أطرافها للبحث عـــن دور في المســـرح؛ فقد ظهـــرت في الآونـــة الأخيرة ميليشـــيات مدعومة من أثيوبيا وغيرها تحمل اســـم: (أهل السُّـــنة والجماعة)، وهناك بقايا أمـــراء الحرب المندحرين الذين انخرطوا في هذا الســـلك أو ذاك وبعضهم يستخدم لافتة أهل السُّنة والجماعة، وهناك العلمانيون الذين يعملون من خلال أُطُر متنوعة وصور مختلفة من مؤسســـات مدنية وغيرهـــا، وهناك تجار الحـــرب الذين كوَّنـــوا ثرواتهم من خلال التجارة المحرَّمة والفاســـدة، ويؤمنون بمذهب المتنبي: (مصائب قوم عند قوم فوائد)، وهناك الأقاليم والمناطق ذات النزعة الانفصالية أو الاستقلالية، وهناك القبائل والعشائر المتناحرة التي تستغل وتُســـتَغَل، وتتقاطع مصالحها مع هذا الطرف أو ذاك، وشـــيوخ القبائل ذوو الولاءات متنقِّلة حسب المنافع والمغريات.

وفـــي طَرَف آخـــر - بطبيعة الحال - هنـــاك الأكثرية الصامتة: مـــن علماء ومثقفين وطـــلاب ونســـاء وجماهير الشـــعب الذين لا يشـــاركون في الصـــراع الدائر بصورة مباشـــرة؛ غير أنهم أكثر ضحايا هـــذا الصراع رغماً عنهم، وتتقاذفهم أمواجه العاتية، ورياحه العنيفة، وآثاره المدمِّرة؛ إذ لا حيلة لهـــم ولا إرادة تقاوم المتصارعين المسلَّحين.

اللاعبون الرئيسيون:

ويحرك هذه الأطراف الداخلية، اللاعبون الرئيســـيون فـــي الخارج؛ فالدول الغربية التي لهـــا مصالح في القضية ليســـت علـــى محور واحـــد وإن كانوا كذلك فـــي الظاهر؛ فالإتحـــاد الأوروبي وتمثِّلـــه إيطاليا لمعرفتهـــا العميقة في الجنوب كمستعمر سابق، والولايات المتحدة، وأثيوبيا وكينيا الحريصتان بدرجة متفاوتة على أن لا تقوم للصومال قائمة مرة أخرى، ككيان إســـلامي قوي ومســـتقل حتى لو كان في ظل حكومة علمانية، ثم إن هناك الأمم المتحدة ومؤسساتها المختلفة التي تستثمر مثل هذه الأوضاع المأساوية، لاستمرار تدفُّق الأموال والرواتب المجزية؛ فميزانيتها باسم الصومال في هذا العـــام ٨٥٠ مليون دولار باســـم (إطعام الجائعين) وفي العـــام الماضي كانت ٧٥٠ مليون دولار، وفي العام الذي قَبْله مثل ذلك، وبطبيعة الحال لو كانت هذه الأموال تُصرَف للصوماليين فعلاً، لعاشوا حياة مرفَّهة، ولتوفَّرت لهم المدارس والجامعات والمستشفيات، والطرق والمواصلات، ولكن حسب مـــا تفيد المصادر القريبة من هـــذه المنظمات؛ فان ٩٠٪ من هذه الأمـــوال تذهب للمصاريف الإدارية، و ٥٪ للســـلطات المحلية و ٥٪ فقط قد تصل للجائعين في صورة ذرة صفراء وبعض الأدوية والإسعافات. وهناك عصابات القرصنة التي تُدَار من خلال شـــبكات خارجية تستفيد من هذه الأوضاع، وهناك القاعدة التـــي لها مصالحها ومنظورها الخاص، كل هؤلاء وغيرهم يلعب في الميدان الصومالي حســـب مصالحه القريبة والبعيدة، وليس من مصلحته تـــوافُق الصـــوماليين، أو قيام حكومة قوية ذات سيادة واستقلالية.

اللاعبون في الظاهر:

وعلـــى الرغم من هذه الأطـــراف المتداخلة؛ إلا أن أبرز المتصارعين في الساحة ممن يظهرون في الشاشة في الآونة الأخيرة، ثلاثة أطراف:

١ - الحكومة الفدرالية المؤقتة.

٢ - حركة الشباب المجاهدين.

٣ - الحزب الإسلامي.

وقد فشل الثلاثة جميعاً بدرجات متفاوتة حتى الآن في تقدير أوضاع الصومال الحالية ومعاناة شـــعبها، والظروف المحليـــة والإقليمية والدولية المحيطة بها، وحاجتها إلى لملمة الكيـــان أولاً، وعودة النظام والاســـتقرار، وأهمية المصالحة والمشاركة بين الأطراف المختلفة وتنازُل كل طَرَف للمصلحة العامة المشـــتركة، كما لم يدركوا أن تهيئة الأســـباب، وزَرْع الخلاف والشـــقاق، والدفع إلى الصراع المسلَّح بين الزملاء الســـابقين فـــي المحاكم الإســـلامية، والمنتمين الـــى التيار الإسلامي، مشروعٌ مخطَّطٌ له؛ الهدف الأساسي منه، تشويه

سـمعة الإسـلاميين أمام الرأي العـام الصومالي، وضَرْب الفصائل الإسلامية بعضها ببعض، وقد تحقق شيءٌ من ذلك الآن، وكذلك إضعاف الدعوة الإسـلامية، وإفساح الطريق لبروز تيارات أخرى كادت أن تندثر.

لم تسـتوعب هذه الأطراف أن مصلحتهـم جميعاً أولاً ومصلحة البلاد والعباد ثانياً تكمـن في التوافُق والتصالح في ما بينهم على الحد الأدنى مـن المصالـح المشـتركة، أو يخرجـون مـن السـاحة تِباعـاً في معـركـة يُعَـد المنتصـر فيها مهزوماً، بعد أن يؤدوا خدمة مجانية لعدوهم الإستراتيجي، ويدمروا بلدهم بأيديهم... لم يدركوا شيئاً من ذلك واندفعوا إلى الصراع مع أنفسهم بهمة ونشاط.

الحسابات الخاطئة:

لقد وقع كلٌّ من الحكومـة المؤقتة من جهة ومعارضوها من الشباب والحزب الإسلامي من الجهة الأخرى بحسابات خاطئة أدت إلى خسارة الجميع؛ فالمعارضون لحكومة الشيخ شـريف سيطر عليهم الاعتداد بالنفس، وأنهم سادة الميدان، ويسـيطرون على معظم أقاليم الجنوب، وأنهم أسهموا على الأقـل بالجزء الأكبر من حملة مقاومة الاحتلال الحبشـي، وهذا كله صحيح إلى حد كبير، وكان لا بد للطرف الآخر أن يقدِّر لهم ذلك، غير أنهم في المقابل لم يحسبوا حساباً جيداً اعتبارات السياسـة المحلية والإقليميـة والدولية، وأوضاع البلاد المأسـاوية، والأطماع المحيطة، وأنهم لا يعيشـون في جزيـرة نائية أو فـي كوكب آخر، وإنما في عالم متشـابك المصالـح، لا بد فيه من التعامل مـع المتناقضات بما يحقق مصلحة البلاد والعباد ويدفع عنها المفاسد والمضار، ولذلك أدى بهـم التصلب في المواقف، ورَفْـض المصالحات ووَقْف النيران والجنوح إلى السلم مع الحكومة رغم كل الملاحظات عليها حفاظاً على المصلحة العامة، أدى بهم ذلك إلى التقاتل في ما بينهم على ميناء كيسمايو وإقليم جوبا السفلى، وتوتُّر العلاقات بين الشباب والحزب في كل البلاد.

وفي المقابل؛ فان الحكومة سيطر عليها الاعتداد بالاعتراف الخارجي، ودعم ما يسمى: (المجتمع الدولي)، وأنها المسؤولة عن إعادة الأمن والنظام والاستقرار إلى البلاد، وأن المعارضة ينبغي أن تأتي وتُسـلِّم للحكومـة المعتَرَف بها، وعلى الجميع أن ينقادوا بمجـرد اختيار الحكومة، واعتراف الأمم المتحدة بها، وأن من عارضها يكون خارجاً على القانون، ويجب دحره بدعم المجتمع الدولي، وأن مِنْ حقها أن تستقدم قوات أجنبية أو من شـاءت من الدول؛ قريبـاً كان أو بعيداً، حتى لو كانت إثيوبيا التي غزت الصومال وجوبهت بقوة السلاح من الشعب الصومالي على مدى سنتين قبل اندحارها.

وهذه أيضاً أمور قد يُسلَّم ببعضها وكان على الطرف الآخر أن يُقدِّر ذلك للحكومة المؤقتة ويعطيها الفرصة ويتحاور معها حول الأمور المشـكلة من أجل الحفاظ على المصلحة العامة للأمة، غير أنه فات الحكومة أيضاً أن تقدِّر وتحسب حساباً دقيقاً أنها لا تملك في الميدان أرضاً تمارس فيها سـلطتها، وتُثْبِت فيها نفوذها، وأنها لا تملك جيشـاً تضبط به الأمن، وتُخضِع به رقاب المعارضين، وأن من تنفي عنهم الشرعية من المعارضين قد يكونون مسـاويين لها في القوة، أو أكثر منها: (أرضاً ومالاً وسلاحاً وجنوداً)، وأن الاعتراف الخارجي ليس سوى الجزء الأقل من الشـرعية الكاملة لأي حكومة، ولأي سلطان، ومن ثَمَّ كانت نتيجة عدم القراءة الصحيحة لواقعها أن تظـل ما يقرب من عام محصورةً في القصر الرئاسـي، والعالم كله يشـاهد ذلك. والغـرب أو المجتمع الدولي الذي اعتمدت عليـه يلومها علـى أنها لا تسيطـر على الأرض، ولا ترى من العاصمة إلا مناظر قليلة؛ إذ (يجلس الشيخ شريف خلـف مكتبه ببدلة أنيقة، وغطاء الـرأس، ونظارات طبية، وسـاعة كبيرة يبدو أنها غالية الثمن... إنه محاط بالأعداء، ويحرسه على مدار السـاعة جنود أوغنديون يخيمون خارج بابه، وفي المناسبات النادرة التي يغادر فيها القصر يأخذونه إلى المطار بناقلة جنـد مدرعة، اللقطات القليلة التي يراها من شوارع مقديشو الترابية تكون من خلال نافذة سميكة ٢ بوصة مقاومة للرصاص)[1].

(يقول صوماليون كثر: إن الشيخ شريف يرتكب أخطاء الرؤساء السابقين نفسها بإضاعة الوقت في ركوب سيارات المرسـيدس في عواصم العالم بدلاً من العمل في شـوارع مقديشـو وصُنْع التحالفات والتأييد المحلـي لحكومته)[2].

---

(١) نيويورك تايمز: ٢٠٠٩/٩/١٦.

(٢) نيويورك تايمز: ٢٠٠٩/٥/٢٣.

(٢) نيويورك تايمز: ٢٠٠٩/٩/١٦.

(حكومته (أي: شيخ شريف) لا تسيطر على أكثر من عدة شوارع في بلد بحجم ولاية تكساس، بينما يسيطر على معظم الباقي الجماعات الإسلامية المتشددة)[1].

هيئة علماء الصومال:

لقد أولى علماء الصومال أهمية كبيرة للقضية وتنادَوا في اجتماع حافل في مقديشو، اجتمع فيه أكثر من ٦٠ شخصية وأصدروا في نهاية بحث ومناقشة مستفيضة للأوضاع قرارات حاولوا فيها تجنيب البلاد مزيداً من الحروب والدمار والدماء، آخذين بالكليات قبل الجزئيات، تحصيلاً للمصالح الجماعية قبل الفردية، وتقريراً لكبريات المصالح قبل صغارها، وتحملاً لأدنى المفاسد باتقاء أعلاها، ولكن مع الأسف لم يُسمَع لقول العلماء ولا لنصائحهم، ولم تُقدَّر حق قَدْرِها، وكذلك الحال بالنسبة لنصائح ووساطات العلماء من العالم الإسلامي، الذين سَعَوا للإصلاح بين الأطراف، ولكن دون جدوى، فكانت النتيجة ما حصل بعد ذلك من حروب وكوارث ودماء وأشلاء، زادت من مأساة الصوماليين وجراحهم، وتسلُّط الأعداء والمقاولين على حساب مأساة شعب فقير وبلد مدمَّر.

المستقبل المنظور:

الله وحده يعلم كيف سيكون المستقبل القريب والبعيد، وماذا تخبئ الأيام لهذا البلد المنكوب، ولكننا لا نيأس من رَوح الله، ونأمل أن يكون الفرج قريباً مع اشتداد الأزمة، غير أن الواقع السيئ ينبئ بأنه مرشح للاستمرار في الأيام القريبة؛ فالحكومة المؤقتة لا تملك القوة الكافية للجم المعارضة وحسم المعركة لصالحها وبسط نفوذها على كل التراب الصومالي، وإن كانت تَعِد بذلك، و (المجتمع الدولي) الذي تعتمد عليه لا يريد لها أن تصبح حكومة قوية أو أن تخرج عن الاعتماد عليه حتى في حراسة مسؤولي الحكومة الكبار. كما أن المعارضة لا يُسمَح لها أن تحسم المعركة لصالحها وتشكِّل الحكومة.

هذا على الأقل في الواقع الراهن، ولكن قد تتغير السياسات، وتتحول الولاءات، وتحدث المفارقات، أو تقع المعجزات ببروز قوة جديدة ترث الأطراف الموجودة التي أصبحت تفقد كل يوم بعضاً من مؤيديها وأعوانها والمتعاطفين معها.

وإن كان صدرُ هذا اليومِ ولَّى
فإنَّ غداً لناظِرِه قريبُ

الأحبة المشتركون:

جديدنا مساهمة بعنوان: (صدى رسالة)، نستقبل فيها أثر رسالة معينة على حياة ومسار أحد المشتركين لنشرها في المجلة، والمشاركة المفيدة والمتميزة تستحق جائزة تقديرية سيعلن عنها، وهذه المساهمة تحقيق للهدف المنشود من إظهار الاستفادة وازدياد العلم ونشره للآخرين، وهي كذلك باب دعوة، فلا يغفل إخواننا جانب الاحتساب والدلالة على الخير.

ضوابط مساهمة (صدى رسالة):

- أن تكون خاطرة يسيرة لا تتجاوز نصف ورقة A4، بخط مقاس18أو 16 كحجم أدنى.
- الأسلوب الجيد والبليغ البعيد عن التكلف، مع حسن تنسيق الورقة.
- ترسل عبر إيميل الرسائل الموضح، أو الفاكس، ويكتب عليها عبارة: (مساهمة صدى رسالة) مع نص الرسالة.
- كتابة الاسم الثلاثي والعمر، ورقم الجوال أو الإيميل [مهم]، والمدينة.
- ستعرض المشاركات على لجنة خاصة للتحكيم، ومن ثم تفرز النتائج.

وبارك الله في جهود الجميع.

ملحوظة: ستستبعد المساهمة التي تُخِلّ بأحد هذه الضوابط.

بدر
٠٥٠٨٩٤٨٩٤٧

زورونا على موقعنا : www.albayan-magazine.com
وراسلونا على البريد الخاص : jawal@albayan.co.uk
جوال : ٠٥٥٤٥٤٦٨٦٨

لمصلحة مَن تهجير مسلمي محافظه (ملاكند) في باكستان؟



محمد علي غوري

صدحت الأصوات عالية تعلن عن إيقاف حالة الطوارئ لساعتين، فانطلق الجميع يأخذ ما خفَّ حَمْله من أمتعة البيت... هذا يوقظ أولاده، وذاك يستعجل زوجته، وهذه تنادي أولادها كي يستعدوا لمغادرة البيت الذي لم يعرفوا لهم بيتاً غيره، وتلك تحزم أغراضها استعداداً للرحيل...

نادت إحدى النساء أولادها وكانوا يلعبون خارج البيت، وبسرعة حاولت أن تجمع أكبر قَدْر من حاجاتها وحاجات أولادها، وحين فرغت واستعدَّ الأولاد خطفت رضيعها من سريره الذي كان ينام فيه، وخرجت مع أولادها الآخرين من البيت لا تلوي على شيء. انشغلت بأولادها عن رضيعها؛ فلم تغيِّر له ملابسه، والوقت لم يسمح بذلك، ونسيَت رَضْعته، فلم تحملها معها؛ فإيقاف حالة الطوارئ كان لوقت قصير وسيعود الجيش بعدها للضرب العشوائي للمنطقة قريباً.

لم تلتفت إلى الوراء؛ فَهَمُّها الأول هو الوصول إلى مقرٍّ إحدى الخيام التي سمعت بها، والتي تأوي النازحين من محافظة مالاكند، وبعد أن قطعت بضعة كيلو مترات لاحظت أن طفلها لم يتحرك منذ غادرت بيتها؛ فهي لم تسمع له صوتاً منذ أن خرجت من بيتها، هالها الأمر، وصاحت صيحة انخلعت لها قلوب مَن حولها، وحين حاولت الكشف عن وجهه أدركت أن الذي بين يديها ليس طفلها، وإنما وسادة؛ فقد تركت رضيعها في البيت وحملت هذه الوسادة بدلاً منه، والمهلة التي أعطيت للناس كي يغادروا بيوتهم كانت قد انتهت.

كانت المسكينة تحكي قصتها لأحد الصحفيين الذين يحاولون تغطية الأحداث واصطياد الأخبار العجيبة والأحداث الطريفة.

هـــذه قصة واحدة من قصص عديدة وحادثة واحدة من حــوادث كثيرة وقعت نتيجة تهجيـــر أكثر من مليون ونصف إنســان من مدن محافظـــة مالاكند، مثل: ســوات، وبونير، وشـــانغلة وخوازة خيــل، ودير. إثر هجوم كاســح للجيش الباكستاني على هذه المناطق.

وافقـت أمريـكا علـى منـح باكسـتان معونات ضخمـة على أقسـاط سنوية لمدة خمس سـنوات مسـاعدة لها فـي حربها ضـد الإرهاب، ولم تفعل شـيئاً حيـال فتح مـدارس وكليات وجامعات في هذه المناطق

أعلن رئيس وزراء باكســتان يوســف رضا جيلاني في خطاب وجَّهه إلى الشعب الباكستاني - نقلته أجهزة الإعلام المختلفة والقنوات التلفزيونية المتعددة - عن فشــل معاهدة الأمن التي تمَّت بين الطالبان والحكومة الإقليمية في منطقة الحدود الشمالية (السرحد) أولاً، ثم بين الطالبان والحكومة المركزيـــة ممثلة برئيس البلاد الســيد آصــف زرداري عن قيام الجيش الباكســتاني بالهجوم على تلك المناطق لسحق الطالبان دون أدنى رحمة.

لا شــك أن أمريكا كانت وراء فشــل هـــذه المعاهدة؛ إذ ظلت تهدِّد الحكومة الباكستانية طوال الفترة الماضية بشتى الطرق والوســائل؛ فقد أثارت كل الباكســتانيين في العالم؛ ليقفوا ضد حكومتهم ويثوروا عليها ومن ذلك تهديدها بقطع المســاعدات عن باكســتان (تلك التي يهتم بها حكامنا أكثر من أي شـــيء آخر)؛ حيث إن كل مـــا يفعلونه من أجل حفنة من الدولارات. ويبدو أن الحكومة الباكســتانية متواطئة مع أمريــكا في ضرب هذه المناطــق، ومما يدل على ذلك تأخُّر رئيس البلاد شــهرين كاملين في توقيـــع معاهدة الأمن مع القبائل في سوات، والتي بموجبها تتحقق بعض مطالبهم في تطبيق الشريعة الإسلامية.

لســنا هنا بصدد مناقشـــة الطالبــان وصحة مطالبهم بتطبيق الشريعة الإسلامية ومنطقيتها، وتغيير المنكر بالقوة، ولكننا بصدد أكبر هجرة جماعية شـــهدتها البلاد منذ زمن طويل؛ حيث ترك مئـــات الآلاف بيوتهم ومنازلهم، وخرجوا من ديارهم محاولين النجاة بأنفســـهم من الضرب العشوائي للجيش الباكســـتاني، لقـــد ذكَّرتنا هذه الهجـــرة الداخلية، بالهجـــرة الكبرى التي شـــهدناها إثر قيام باكســـتان؛ حيث هاجر أكثر من ســـتة ملايين مسلم من المناطق التي قررت بريطانيا تبعيتها للهند إلى الأراضي التي آلت إلى باكســـتان وذلك عــام ١٩٤٧م. أما هجرة اليوم، فبسببنا نحن؛ أي: إنها نتيجة تدخُّل الجيش الباكســتاني وليــس أي جيش آخر في تلك المناطق مدعيـــاً أنه يحافظ على ســيادته فيها. ولكن أين سيادة الدولة المزعومة حين تدخل الطائرات الأمريكية البلاد، وتضرب النساء والأطفال والأبـرياء مــن النـاس الذين لا علاقة لهم بالطالبان أو بالقاعدة؟ ويقال: إن هذه الطائرات تنطلق من داخل الحدود الباكستانية. ورغم احتجاج الحكومة الباكستانية المستمر، إلا أن الضرب الجوي الأمريكي مستمر حتى يومنا هذا، (نستنكر وتضرب، نستنكر وتضرب) وهكذا هلم جراً. وأين سيادة الدولة حين تدخل قوات الناتو الجوية وتضرب المســـاكين وتدمِّر بيوتهم ومســـاجدهم على مرآىً ومسمع من المتشدقين بالسيادة والمتباكين عليها؟ وأين سيادة الدولة المزعومة في كراتشـــي عاصمة باكستان الأولى وأكبر مدنهـــا وأكثرها ســكاناً؛ حيث يتحكم حـــزب واحد (حركة المهاجرين القومية) في كل شؤونها ولا يُسمح لأحد بالتدخل في أمورها حتى من قِبَل الحكومة المركزية في إســـلام أباد؛ حيـــث تعمل مافيا هذا الحزب بكل حريـــة في تلك المدينة، وتمنع من تشاء من دخول المدينة وتسمح لمن تشاء، بل وتقتل من تشاء.

هـــذه هي الحجة التي بررت بهـــا الحكومة المركزية في إســـلام أباد ضرب المناطق الشمالية في باكستان عن طريق الجيش الذي استخدم كل الأسلحة الفتاكة. حقاً ما قاله أحد الزعماء السـياسـيين من أن أســلحة الجيــش الباكســتاني لا تتجـــه إلى أعـــداء البلد، وإذا أُطلقت، فإنهـــا تُطلَق على صدور أبنائها. للأسف الشديد لقد درج الجيش الباكستاني على هذه الوتيرة منذ زمن طويل، ونسي أعداءه الحقيقيين،



وقد أَمْلت أمريكا علينا على لسان رئيسها ووزير دفاعها ورئيس أركان جيشها أن الهند ليست عدوة باكستان، وإنما عدوُّها الحقيقي هم هؤلاء المتطرفون في مناطق باكستان الشمالية، وللأسف ردد رئيس بلادنا السيد آصف زرداري المقال الأمريكي مؤكداً أن الهند لم تكن في يوم من الأيام عدوتنا، وإنما الخطر من هؤلاء المتطرفين، ولذلك سوف نسحقهم ونمسحهم من الوجود، ونسي أن هؤلاء أبناء الشعب الباكستاني؛ فبدلاً من أن نأخذ بأيدهم ونتفاوض معهم ونستجيب لمطالبهم المشروعة، نكلمهم بهذه اللهجة، ونجابههم بهذه الأسلحة الفتاكة؛ فماذا نتوقع منهم بعد ذلك؟ ولم يقف الأمر عند هذا الحد؛ فقد أمرت القيادة السياسية الباكستانية بسحب الجيوش من الحدود الشرقية المتاخمة للهند، وتوجيهها إلى هذه المناطق؛ لأنها في نظرهم تمثل الخطر الأكبر على باكستان وعلى العالم، على حد زعمهم! وكل ذلك من أجل حفنة من الدولارات.

لم تهتم الحكومات الباكستانية المتعاقبة بهذه المناطق اهتمامها بالمناطق الأخرى في البلاد؛ من حيث التعليم والصحة والخدمات العامة الأخرى؛ فملأ بعض الشيوخ والزعماء المحليين فيها الفراغ الذي تركَتْه الحكومة، مثل: فضل الله وبيت الله محسود وآخرون مِنَ الذين يوصفون اليوم بالإرهابيين والمتطرفين.

إن هؤلاء وقفوا مع الناس يواسونهم ويسدُّون حاجاتهم ويمدون لهم يد العون، وهكذا كسبوا ثقة الناس وتقربوا إليهم، فأصغى إليهم الناس، وكما قلت: أنا لا أريد التحدث هنا عن أفكار هؤلاء، سواء أكانوا من الطالبان أو من القاعدة أو من المطالبين بالشريعة المحمدية من أتباع الشيخ صوف محمد، ولكنني بصدد الحديث عن المأساة التي تعيشها باكستان نتيجة سياسات خاطئة وقرارات غير مدروسة ليس وراءها هدف إلا إرضاء السيد الكبير من أجل حفنة من الدولارات.

لقد وافقت أمريكا على منح باكستان معونات ضخمة على أقساط سنوية لمدة خمس سنوات؛ مساعدة لها في حربها ضد الإرهاب، ولم تفعل شيئاً حيال فتح المدارس والكليات والجامعات في هذه المناطق، وهو ما يؤكد نظرية المؤامرة التي تدبرها أمريكا بالاتفاق مع إسرائيل والهند لمسح باكستان من خريطة العالم، وتقسيمها بين الهند وإيران وأفغانستان.

وأمريكا تريد القضاء على أية قوة دينية في البلاد؛ فهي تزعجهم كثيراً؛ حيث لم يقف في وجههم أحد في باكستان سوى هؤلاء، كما لم يوقف التموين المرسَل إلى قوات حلف الناتو الجائمة في أفغانستان قرب الحدود الباكستانية إلا هؤلاء

إن هدف أمريكا والقيادات الباكستانية المتعاقبة التي تدور في فلك ساداتها من أجل حفنة من الدولارات، هو سحق هذه المناطق سحقاً تاماً حتى لا تقوم لها قائمة، وها هو الرئيس زرداري يعلن أن الأمر لن يتوقف عند مالاكند، بل سيتبع هذا الهجوم هجوم آخر أشد في مناطق وزيرستان؛ لأن مناطق مالاكند ووزيرستان وكل المناطق الشمالية استعصت على المستعمرين عبر تاريخها الطويل، ولم تسمح لهم بأن تطأها أقدامهم، حتى أيام حكم الإنجليز لشبه القارة الهندية كلها، لم تستطع الدولة التي لم تكن تغيب عنها الشمس أن تفرض قوانينها على هذه المناطق، فقد ظلوا يطبِّقون الشريعة الإسلامية وعاداتهم وتقاليدهم القبلية.

وأمريكا تريد القضاء على أية قوة دينية في البلاد؛ فهي تزعجهم كثيراً؛ حيث لم يقف في وجههم أحد في باكستان سوى هؤلاء، كما لم يوقف التموين المرسَل إلى قوات حلف الناتو الجائمة في أفغانستان قرب الحدود الباكستانية إلا هؤلاء، وهذا الأمر يزعج أمريكا كثيراً؛ لذا فإن هَمَّها الأول، هو القضاء عليهم بأي شكل من الأشكال، ولو بحفنة من الدولارات.

من ينقذ باكستان من دوامة الدماء والعنف؟

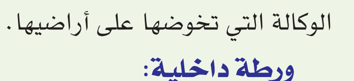


رضا عبد الودود
wadod27@hotmail.com

ماذا مقابل الدماء الباكستانية؟... وعود ودولارات، والخاسر هو مشروعها النووي ووحدتها.

تنذر شلالات الدماء المتفجرة في أنحاء باكستان بأنها دخلت في مراحل التصفية النهائية لمشروعها النووي من خلال تفجير صراعات ومشكلات عرقية ودينية قابلة للاشتعال بصورة أعنف ما لم تنطلق جهود التهدئة وإصلاح الخلل بوساطة إسلامية.

بعيداً عن نظرية المؤامرة واتساقاً مع القراءة التاريخية؛ فإن مسلسل العنف يشير إلى أن الأطراف الغربية لا تريد للأوضاع أن تهدأ قبل تحقيق مخططات الاستهداف؛ حتى وإن بدت العلاقات (الباكستانية الأمريكية) أكثر قرباً؛ إذ إن الهدف الأساسي من تلك العلاقات هو خدمة الأجندة الأمريكية التي دفعت بقوة إلى تفجير الداخل الباكستاني عبر حرق الأرض في المناطق القبلية في وزيرستان والمناطق الحدودية بين أفغانستان وباكستان، وهو ما ألجأ فلول القاعدة وطالبان باكستان إلى نقل معاركهم إلى داخل المناطق السكانية الآهلة بالسكان؛ لتخفيف الضغط العسكري (الأمريكي الباكستاني). وتبقى باكستان هي المتضرر الأكبر من حرب



الوكالة التي تخوضها على أراضيها.

ورطة داخلية:

عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ضغطت واشنطن على حكومة مشرف لفتح أراضيها؛ لتكون قاعدة لقواتها بعد تهديدات متصاعدة، فوجد مشرف نفسه في موقف صعب، خصوصاً أن غريمته الهند جاهزة للخدمة، وبدل أن ينهض السلاح النووي بمهمة الدفاع عن البلد من كل تهديد تحوَّل إلى مصدر ابتزاز؛ مطلوبٌ تقديمُ التنازلات لحمايته.

ومع استمرار الفشل العسكري الأمريكي في تحقيق إنجاز ملموس على أراضي أفغانستان تصاعدت الاتهامات الأمريكية للجيش الباكستاني بأنه لا يقوم بما يكفي في الحرب على طالبان؛ فبدأ الإسهام الباكستاني العسكري في الحرب غير المكشوف، وهو عبارة عن تسهيلات، ثم تطور إلى ضغط ثقافي عندما وُجِّهت التهمة إلى المدارس الدينية الأهلية المنتشرة منذ قرون في أرجاء المنطقة، وما عُرف لها ولا للمعاهد الدينية ارتباط بأعمال الإرهاب، وهو ما حمل الدولة على التدخل لغلق المئات منها وتشريد طلبتها ومدرسيها. وبلغ هذا التدخل أوجه بالهجوم على المسجد الأحمر في العاصمة إسلام آباد؛ حيث أُزهقت أرواح كثير من طلبة العلم والمراجع الدينية، وهو ما كان له مفعول الحريق في شبكة المعاهد الدينية وطَلَبَتها، متفاعلاً مع أثر الغارات الأميركية على مناطق القبائل المتهمة بإيواء عناصر من القاعدة وطالبان؛ تلك الغارات العشوائية التي تقوم بها في أحيان كثيرة طائرات بلا طيار تبحث في كهوف شديدة التعقيد عن عناصر قيادة طالبانية أو قاعدية، وهو ما ألهب قلوب السكان غضباً، وهم على مر التاريخ لم يألفوا خضوعاً لأي سلطة مركزية بل كانت أمورهم تُدار بأنظمة عشائرية؛ فلا يكاد الناس يشعرون بشيء اسمه الدولة، وإنما ارتباطهم بها عبر خيوط دقيقة ينهض بها زعماء العشائر.

تفاعل كل ذلك لينتج طالبان الباكستانية، وأخذ يراكم شحنات متزايدة من الثأر والنقمة على الدولة وجيشها، وفي الوقت ذاته ظل الجيش ومخابراته تلاحقهما من قِبَل التحالف تهمة التقاعس وحتى التواطؤ، وأنهما لا ينهضان بما يجب عليهما، حتى إنه لما عقدت الحكومة مصالحة مع المناطق القبلية، بمقتضاها تَقَبَّل الدولة مطلب القبائل في الاحتكام للشريعة، مقابل دخول القبائل في السلم والاعتراف بشرعية الدولة، ثارت ثائرة الإعلام الغربي ومؤسسات إيديولوجية متعصبة ضد الإسلام، فضغطت على صناع القرار السياسي في التحالف الغربي وضغط هؤلاء على الحكومة الباكستانية الضعيفة، فتراجعت عن الاتفاق؛ فعادت مراجل الغضب تغلي وتقذف حممها في مواجهة ما ينزل على رؤوس الناس من حِمَم. ولم تسلم مدارسهم ولا حفلات أعراسهم ومساجدهم وأسواقهم من القصف العشوائي المدمر، بحثاً عن طالباني أو قاعدي، وهو ما ضاعف من تصاعد الغضب ضد التحالف وضد الدولة وجيشها؛ لينخرط البلد في أتون حرب أهلية غدت معها مصداقية الجيش ومهابته محل أخذ ورَدٍّ لا سيما وقد غدت حتى مراكز قياداته وتدريبه مرمىً لطالبان التي لم تعد حركة محصورة في منطقة القبائل، وإنما انتشرت في أرجاء البلاد تضرب في كل مكان بأيدي أبناء المناطق ذاتها بما فيها منطقة البنجاب كبرى المناطق وأغناها وقاعدة الحكم والنخبة، وهو ما جعل الخطر حقيقياً على مصير البلد الذي انخرط جيشه لأول مرة في حرب شاملة مع قِطَاعَات واسعة من شعبه تحت ضغط الولايات المتحدة الذي بلغ حدَّ تقديم مشروع قانون للكونغرس، مقتضاه فرض رقابة على المساعدة المالية التي تقدِّمها لباكستان ضمن إسهامها في مجهودها في الحرب على الإرهاب، وذلك على خلفية التشكيك في أبواب صرف تلك المساعدات، ومعنى ذلك: الإمعان في التدخل في أخص خصوصيات الدولة ومقومات سيادتها، ألا وهو: جيشها.

ومع سقوط الضحايا والمدنيين وحدوث تفجيرات في كل مناطق باكستان التي أصبحت ساحة مفتوحة للحرب الأهلية التي لا تخدم سوى الهند والغرب، لم تدرك الإدارة الباكستانية أن تكاليف معارضة الإرادة الأمريكية أدنى من تكاليف مسايرتها.



حصاد مُرّ:

ومع تصاعد الأوضاع داخل باكستان، والذي وصل في أكتوبر ٢٠٠٩ نحو ٥٠٠ قتيل و ٢٠٠٠ جريح وعشرات الآلاف من النازحين عن مناطق التفجيرات، ولم تتوقف التفجيرات حتى الآن، وهو الأمر الذي يزيد عن حجم الخسائر في أفغانستان (أرض المعركة الأمريكية الحقيقية)، والتي وصلت نحو ١٣٢ قتيلاً، أمام كل ذلك تجد باكستان نفسها تقوم بالدور نفسه الذي قامت به أثناء فترة الحرب الباردة؛ إلا أن الأوضاع الإقليمية قد اختلفت تماماً؛ فعلاقات الهند والغرب باتت أكثر اتساقاً وتعاوناً وانفتاحاً، وهو ما يعمق الجرح الباكستاني الذي لن يندمل لعقود قادمة.

فرغم الوعود الأمريكية بالمساعدات الاقتصادية لتطوير شريكها في الحرب على ما يسمى: (الارهاب) ما زال الانحياز الأمريكي والغربي لصالح الهند في قضية استقلال كشمير ومَنْع أهلها من ممارسة حق تقرير المصير، وكذلك في ميادين التسلُّح وعلى صعيد التبادل التجاري، وإن تأجيل إعادة فتح الملف النووي لم يكن حبّاً بباكستان، بل موازنة مع التسابق الإيراني النووي في المنطقة.

الحوار والتنمية والردع:

إن الحكومة الباكستانية تعيش حالة من الشلل السياسي لدرجة دخولها في مرحلة انعدام القرار في ضوء توالد أحداث العنف بصورة مخيفة؛ إذ إن الحرب أو الحملة العسكرية التي تستهدف أية مجموعة ترفع السلاح لا بد أن تنتهي إلى نتيجة سياسية يرافقها هدوء على الأرض، لكن الحال مختلف هنا؛ فرغم إعلان رئيس الوزراء الباكستاني (يوسف رضا جيلاني) أمام مؤتمر دافوس الاقتصادي العام الماضي: أن حكومة بلاده رفعت شعارات جديدة في سبيل مواجهة العنف و (الإرهاب) تتمثل في الحوار والتنمية والردع؛ إلا أنه لا توجد دلائل ملموسة على الأرض لخريطة طريق تمكِّن الحكومة من إنجاز تلك الشعارات والأهداف، في ضوء ما تشهده باكستان من كارثة على المستوى الإنساني، في ظل تزايد أعداد اللاجئين والمهجَّرين والعاطلين عن العمل.

الخِيار العسكري لا يحل الأزمة:

لعل تحوُّل المجتمع الباكستاني إلى الدعم اللوجستي لطالبان باكستان والقاعدة، هو الرد الطبيعي على سياسة الجيش الباكستاني الذي يعتمد سياسات عسكرية بلا خيارات أخرى؛ وكأن الحرب مع دولة أجنبية وليست مع سكان ورعايا الدولة نفسها، وذلك ينذر بتصاعد موجات العنف والعنف المضاد، وهو ما يستوجب الإسراع بجهود وإستراتيجية حكومية جديدة وعدم الارتهان إلى خيارات إطلاق العِنان للجيش الباكستاني في إدارة الأزمة التي تعصف بالبلاد، والتي يمليها تحالف السلطة الباكستانية مع بعض القبائل والأحزاب التي تسعى لتحصيل أكبر الفوائد السياسية على حساب الدم الباكستاني.

ومن ثَمَّ؛ فإن كافة الأطراف مطالَبة بالتهدئة السريعة والجلوس على مائدة مفاوضات بوساطة إسلامية من السعودية (التي طالبها أوباما بالتدخل للتفاوض مع طالبان) أو منظمة المؤتمر الإسلامي للحفاظ على مشروع الدولة الباكستانية التي تسير بخطىً متسارعة على الطريق العراقي، ولا يستفيد من تفتُّتها سوى الهند التي تمسك بقواتها عن الخوض في معارك في أفغانستان رغم تحالفها الإستراتيجي مع واشنطن والغرب في ملفات تجارية وعسكرية كبيرة.

وليتأكد صانعو القرار الباكستاني أن باكستان في غنىً عن الحروب الأمريكية والمساعدات الأمريكية على السواء، ولكنها ليست في غنىً عن هويتها وشعبها أو أي فئة من فئات هذا الشعب، ولا ينبغي توقُّع جديد من الجهود الأمريكية الأخيرة الرامية إلى تنفيذ (إستراتيجية تجميل) لمرحلة تالية يسري عليها ما يسري على ما سبقها من مراحل توظيف باكستان؛ لتحقيق (أغراض أمريكية) تحت رداءٍ تختلف (زركشته) في عهد أوباما عمَّا كان في عهود أسلافه.



مرصد الأخبار

جـــــلال الـــشـــايـــب
gelshayeb@albayan.co.uk

«الـيـوم المـآذن وغـداً المسـاجـد»

عَدَّ الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي نتيجة الاستفتاء السويسري على حظر بناء مآذن جديدة، منافية لمواثيق حقوق الإنسان والحرية الدينية والتنوع الحضاري و«ستترتب عليها مراجعات كثيرة». وقال بيان باسم الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين الذي تلقَّت (الجزيرة نت) نسخة منه: «اليوم المآذن وغداً المساجد»، وشدد على أن نتائج الاستفتاء كشفت عن «تناقض صارخ» بين تغنِّي السويسريين وتباهيهم بالديمقراطية وحرية الأديان و «بين المضمون العنصري والإسلاموفوبي» للاستفتاء. وذكر أن المآذن دليل على مكان عبادة ولا دلالة سياسية لها، وهي رمز عمراني جميل يدل على تسامح البلد وتنوعه الثقافي والحضاري. ومضى بيان الاتحاد قائلاً: إن واضعي مشروع هذا القانون من اليمين المتطرف ضيق الأفق قد استغلوا عامل الخوف والتخويف من المسلمين ومما زعموه من التوسع في مطالبهم الدينية في الدولة السويسرية، مشيراً إلى أن ذلك «إغراق في الوهم وشطحات الخيال». واعتبر أن نتيجة الاستفتاء خيَّبت آمال مسلمي العالم، مضيفاً: «إن كثيراً من المراجعات ستترتب عليها» وستُطرح كذلك أسئلة عن جدوى التقارب والحوار بين المسلمين وغيرهم في العالم الإسلامي والغرب... واصفاً الإجراء السويسري بأنه «سنَّة سيئة زادت من الكراهية والتمييز العنصري ضد المسلمين»، كما حث مسلمي العالم على التعبير عن رفضهم لما أسماه: «الاستفتاء العنصري الإسلاموفوبي» بالطرق السلمية.

عـدوى إهـانـة رسـل الـلـه

طالبت منظمة إسلامية كبرى في الولايات المتحدة شركةً أمريكية كبرى متخصصة في تقديم خدمة بَثِّ قنوات الكابل بالاعتذار عن محتوى مسلسل تضمن إهانة للسيد المسيح ﷺ.

فقد طالب مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية (كير) شركة (هوم بوكس أوفيس) بالاعتذار عن حلقة من مسلسل «اكبح حماسك» الذي قامت فيه الشخصية الرئيسية بسكب البول على رسم للمسيح ﷺ.

ووجَّه الرئيس التنفيذي لمنظمة كير «نهاد عوض» خطاباً إلى رئيس مجلس إدارة شركة بوكس أوفيس يطالب فيه الشركة بالاعتذار، وأشار إلى أن العديد من مشاهدي المسلسل من المسلمين الأميركيين اتصلوا بـ «كير» للتعبير عن انزعاجهم مما شاهدوه.

وأكد عوض في الخطاب أن «المسيح - عليه السلام - يحظى بالحب والتوقير من المسيحيين والمسلمين؛ حيث ينظر إليه المسلمون على أنه واحد من أعظم أنبياء البشرية».

[موقع الجزيرة ٢٠٠٩/١١/١]

انـتـصـار الـفـسـاد بـأمـر أمـريـكـي بـريـطـانـي

وصف بيتر غالبرايث نائب رئيس بعثة الأمم المتحدة السابق في أفغانستان (المستقيل) فوزَ الرئيس الأفغاني حامد كرزاي بولاية جديدة بعد إلغاء جولة الإعادة الثانية للانتخابات الرئاسية بأنه انتصار للفساد والاحتيال والكذب، ونقلت صحيفة الإندبندنت البريطانية في مقال لغالبرايث: «إن جميع حلفاء كرزاي داخل أفغانستان وخارجها يعرفون تماماً أن انتصاره كان بفضل التزوير الفاضح في الجولة الأولى من الانتخابات.

وفي المقابل، عدَّت حركة طالبان إلغاء الجولة الثانية وإعلان فوز كرزاي قراراً أمريكياً وبريطانياً محضاً جرى الإعلان عنه في كابل بينما تم صُنْعه في واشنطن ولندن، وتوعدت باستمرار هجماتها لإخراج قوات الاحتلال من أفغانستان وإقامة حكومة إسلامية خالصة.

[موقع إسلام أون لاين ٢٠٠٩/١١/٣]

دبي: أحلام الفقاعة!

رغم أن المبلغ الذي طلبت شركة دبي وورلد فترة سماح لسداده ليس بالضخم، نحو ٣,٥ مليار دولار، فإن التداعيات العالمية ذكَّرت الناس بالأزمة المالية التي ضربت الاقتصاد العالمي إثر انهيار القطاع العقاري الأمريكي. ويعكس ما يجري أهمية دبي، ليس فقط لطموحها المثير وشططها فيما اتخذته عماداً لتطوُّرها: من عقار وسياحة وتجارة واستثمار، وإنما لكونها أوضح صورة للنظام المالي العالمي بحسناته وسيئاته. وهناك من مشاكل الإفلاس والخسائر في اقتصاديات أخرى في المنطقة أكبر بكثير من الأزمة الأخيرة في دبي. على سبيل المثال ضياع نحو ٢٢ مليار دولار في السعودية مع مشاكل مجموعة الصانع والقصيبي وحدها. وفي بقية دول الخليج التي راكمت عائدات هائلة من صادرات الطاقة لا تفصح الحكومات عن تداعيات الركود العالمي عليها، وتنقذ كثيراً من شركاتها أو تغطي خسائرها بالمليارات، لكن دبي مختلفة، لانكشافها أكثر على الأسواق العالمية وعدم توفُّر النفط لديها ومن ثَمَّ اعتمادها اقتصادياً على التجارة والخدمات، ولأن نموذج دبي يمثل أوضح صور النظام المالي العالمي، الذي مُنِي بآفة تضخيم قيمة الأصول بشكل مبالَغ فيه. وإن انفجار فقاعته سيكشف مثالبه أكثر بعدما بدا أن التدخلات الحكومية العالمية في الاقتصاد توشك أن تُخرجه من الركود، لكن الواضح أن (أبو ظبي) لن تتدخل كما تفعل حكومات خليجية أخرى لـ «تستر» عيوب اقتصادها بالمليارات. كما أن دبي نفسها قد لا تكون راغبة في تمويل تشوُّه اقتصادي تريد التخلص منه.

والآن يجادل كثيرون بأن ذلك النموذج فشل، دون الاعتراف بأن ذلك يعني فشل النظام المالي العالمي تماماً. ومع حرص العالم على نظامه المالي واستمرار جهوده لإنقاذه وتعافيه، لا يُتصور أن أكثر بُؤَره وضوحاً ستنهار حتى لو لم يتوفر «الدعم السيادي».

[BBC ٢٠٠٩/١١/٢٨]

الخلع أو الفصل

أبدى عدد من شيوخ وعميدات المعاهد الأزهرية بمصر رفضهم تنفيذ قرار شيخ الأزهر بإجبار الأزهريات المنتقبات على خلع النقاب، بعد عجز بعضهم عن تنفيذ القرار بسبب تمسك الطالبات بالنقاب، وهو ما يمثل تحدياً للقرار.

وواجه طنطاوي هذا بإعداد خطة يجري تنفيذها على مراحل ثلاث: تكمن الأولى: في تدشين حملة بين الطالبات؛ لإقناعهن بأن النقاب عادة وليس عبادة وليس له علاقة بالدين الإسلامي. وتتمثل الثانية: في توجيه المعاهد الأزهرية إنذارات لأولياء أمور المنتقبات تطالبهم بإقناع بناتهن بخلع النقاب، وإلا سيجري فصلهن فصلاً نهائياً.

وأخيراً: حرمان الطالبة المنتقبة من دخول المعهد الأزهري في حال عدم استجابتها للإنذارات.

[صحيفة المصريون الإلكترونية ٢٠٠٩/١١/٧]

«مظاهرة هنا... وأخرى هناك»

في الوقت الذي خرجت فيه الشعوب (المصرية والجـزائرية) للتظـاهـر قبل وأثناء وبعد مباراة كرة القدم المؤهِّلة لكـأس العالم فـي القـاهرة ثم فـي أم درمـان بالسـودان، والتـي عـلـى إثرها جرى تبـادل الاتهامات بين البلدين، فضلاً عـن المظاهرات والمهاترات الشـعبية والسياسية التـي نـادت بالمقاطعات الدبلوماسـية، وإغلاق السـفارات، وسـحب السـفراء، وهو ما حدث فعلاً.

وفي الوقت التي خرجت فيه تلك المظاهرات في بلاد عربية إسلامية؛ انطلقت في العاصـمة الأرجنتينيـة بوينس إيريس، مظاهـرة حاشـدة تنـدد بزيـارة الرئيـس الإسـرائيلي إلـى الأرجنتين.

وشـارك آلاف المتظاهرين في مسـيرة نحو السفارة الإسـرائيلية، ورفعوا شعارات: «شمعون بيرس... جائزة نوبل في القتل»، في إشـارة إلى العدوان الإجرامي على الشـعب الفلسطيني في قطاع غـزة، والذي أيَّده بيرس بقوة، وشـعارات أخرى كـ: «جزار قانا»، وطالب المتظاهرون بطرد بيرس من الأرجنتين.

ومـن الجدير بالذكر أنه وقبـل يومين فقط من انطـلاق المظاهرات في العاصمة الأرجنتينية احتشد مئات المتظاهرين في العاصمة البرازيلية سـان باولو منددين بزيارة الرئيس الإسـرائيلي للبلاد.

[مركز الإعلام العربي، سويس إنفو، BBC ٢٠٠٩/١١/١٧]

«السبت اليهودي... والكيل بمكيالين»

تظاهـر مئات اليهود المتطرفين يوم السـبت الموافـق ٢٠٠٩/١١/٢١ عند مصنع جديد لإنتاج الشرائح الإلكترونية تابع لشركة إنتل في إسرائيل احتجاجاً على استمرار العمل في الموقع يوم السبت وهو يوم العطلـة اليهودية، وقال المتظاهرون: «إن فتح المصنع للعمل يوم السـبت هو تدنيس للعطلة اليهودية التي تبدأ من ليل الجمعة وتسـتمر حتى ليل السـبت»، كما أكدوا على «أن الدولة اليهودية يجب أن تلتزم بالشـريعة اليهوديـة التي تحظر العمل وقيادة السيارات في يوم العطلة اليهودية».

ومـن الجدير بالذكـر أن قـوات الاحتلال الصهيوني تقوم كل سبت - تقريباً - بالاعتقالات والاختطاف وعمليات فتـح النار على المواطنين؛ ففي يـوم السـبت الموافـق ١٠/٣ قامت قوات الاحتـلال باعتقـال مواطـن من بلـدة فرعون بمحافظـة طولكرم، كما قامت في اليوم نفسـه بالاعتداء على شـاب بالضرب المبرح على حاجز زعترة، وكذا قامـت القـوات يوم السـبت الموافق ١٠/٢٤ باعتقال مواطن من مخيم جنين شـمال الضفـة الغربية وتم نقله إلـى جهة غير معلومة، وفي السـبت الموافق ١٠/٣١ فتحت قوات العدو النار صوب مواطن شـمال غرب بلدة بيت لاهيا شـمال القطاع، وهو ما أدى إلى إصابته، ومنعت سـيارات الإسـعاف والمواطنين من الاقتراب من الجريح لإنقاذه وتركته ينزف، وغيرها من عمليات الاعتقال والقصف والاختطاف.

[سويس إنفو ١١/٢١، مواقع فلسطينية]

كشف استطلاع للرأي أن ٥٧٪ من البريطانيين يعتقدون أنه صار من المستحيل إحراز نصر على حركة طالبان الأفغانية، مقابل ٤٨٪ كانوا يرون ذلك قبل أسبوعين من مقتل خمسة جنود بريطانيين برصاص شرطي أفغاني. وأعرب ٣٥٪ من الأشخاص الذين شملهم الاستطلاع عن رغبتهم في سحب قوات الاحتلال البريطانية بشكل فوري من أفغانستان مقابل ٢٥٪ كانوا يريدون ذلك قبل مدَّة وجيزة. وأفاد ٣٨٪: أنهم يؤيدون انسحاب القوات البريطانية بسرعة، بينما بيَّن باقي الذين تم استطلاع آرائهم: أنهم يريدون أن ترحل قوات بلدهم عن أفغانستان خلال ١٢ شهراً.

[راديو سوا ٢٠٠٩/١١/٨]

أكد مسؤولون عراقيون أن حالات الإصابة بالسرطان والتشوهات بين المواليد والمشاكل الصحية الأخرى زادت بحدة في العراق منذ الاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣، ويشتبه الكثيرون في أن يكون التلوث البيئي الواسع الناجم عن استخدام الأسلحة على مدار سنوات الحرب الأمريكية على الأراضي العراقية سبباً رئيساً لذلك. وتؤكد إدارة الوقاية من الإشعاع التابعة لوزارة البيئة قائلة: «إن معلوماتنا تشير إلى أن هناك أكثر من ٢٠٠ كيلو متر مربع من الأراضي جنوبي البصرة تحتوي على مخلَّفات الحرب وبعضها ملوث بيورانيوم مستنفد». وبعد مرور سنوات من الاحتلال يسجل الأطباء في الفلوجة عدداً غير طبيعي من الأطفال المصابين بأمراض خِلقية في القلب وتشوهات الأنبوب العصبي الذي يتسبب في نمو غير طبيعي للحبل الشوكي والمخ، وهو ما يسبب الشلل والوفاة.

وتشير الإحصائيات إلى دخول ثلاث أو أربع حالات أسبوعياً لأطفال حديثي الولادة مصابين بعيوب في الأنبوب العصبي في الفلوجة والمناطق المحيطة بها وهي منطقة يصل تعداد سكانها إلى ٦٧٥ ألف نسمة.

[رويترز ٢٠٠٩/١٢/١]

كَشَفت دراسة اقتصادية عن أن البنوك التي تُجري عمليات مصرفية على أساس أحكام الشريعة الإسلامية حققت ازدهاراً رغم استمرار تداعيات الأزمة المالية الراهنة؛ حيث نمت أصول البنوك الإسلامية بنسبة ٢٨,٦٪ في عام ٢٠٠٩م.

وجاء في الدراسة التي أجرتها مجلة «ذي بانكر ماجزين» أن الأصول التي تملكها البنوك التي تطبِّق أحكام الشريعة الإسلامية في كافة عملياتها أو الوحدات المصرفية الإسلامية التي تعمل ضمن بنوك تقليدية ارتفعت بنسبة ٢٨,٦٪ لتصل إلى ٨٢٢ مليار دولار (٥٥٠ مليار يورو) في عام ٢٠٠٩، مقابل ٦٣٩ مليار دولار (٤٣٠ مليار يورو) في عام ٢٠٠٨م.

وتشير التوقعات إلى أن الأصول ستصل إلى تريليون دولار في عام ٢٠١٠، وحذَّرت من أن هذا القطاع يواجه تحديات من بينها إدارة السيولة والشفافية وتقديم التقارير المالية. [موقع المسلم ٢٠٠٩/١١/٧]

أكدت بيانات رسمية «إسرائيلية» على ارتفاع أعداد «الإسرائيليين» المصابين بمرض الإيدز خلال عام ٢٠٠٨م، مشيرة إلى احتمالات ارتفاع هذا العدد لمستوى غير مسبوق خلال عام ٢٠٠٩م.

ونشرت صحيفة هاآرتس العبرية على موقعها الإلكتروني بيانات وزارة الصحة الصهيونية التي تؤكد ارتفاع أعداد «الإسرائيليين» الحاملين لفيروس الإيدز خلال عام ٢٠٠٨م ليصل عدد المصابين الجدد إلى ٣٩٠ مصاباً، مقارنة بالأعوام السابقة، كما أشارت الصحيفة إلى أن هذا العدد هو الأعلى في «إسرائيل» منذ عام ١٩٩٨م.

وأوضحت الصحيفة أن إجمالي عدد «الإسرائيليين» المصابين بالإيدز - طبقاً لبيانات وزارة الصحة - وصل إلى ٤,٥٢٥ مصاباً، وأن هناك نحو ٦,٣٧٤ آخرين حاملين للفيروس، لكنهم لا يعلمون ذلك، وهي من النسب الأعلى في العالم. [جريدة القدس، مفكرة الإسلام ٢٠٠٩/١١/٣٠]

س: ما هي أوجه الثمن الذي ما تزال تدفعه باكستان منذ تحالفها مع الأميركيين في الحرب على أفغانستان؟

ج: حين ننظر إلى مآل الحرب الأمريكية على أفغانستان نجد أن باكستان دفعت الثمن الباهظ وما تزال بوقوفها مع أميركا والغرب في هذه الحرب، مصداقاً لقول الرئيس الأميركي السابق ريتشارد نيكسون: من الخطير أن تكون عدواً لأميركا، لكن الأخطر أن تكون صديقاً لها. وهو ما ينطبق تماماً على الحالة الباكستانية، وأهم هذه الأوجه، هي:

١ - على مستوى المؤسسة العسكرية والأمنية الباكستانية: كانت نظرة الشعب الباكستاني بكافة أطيافه - تقريباً - نظرة احترام وثقة بها على أنها الضامن الوحيد لبقاء ووحدة باكستان، لكن مع حصول التحالف الأميركي في الحرب على القاعدة وطالبان، والاعتداء على المسجد الأحمر حصل شرخ وانشقاق خطير بين هذه المؤسسة والمؤسسة الدينية الحنفية الديوبندية التي تشكل الحمض النووي الباكستاني، والمتحالفة مع المؤسسة العسكرية منذ الاستقلال، وبناءً على ذلك ظهرت الجماعات المسلحة المستعدة لقتال الجيش الباكستاني بعد أن دخل المحرَّم القبائلي الذي حرَّمه عليه حتى مؤسس باكستان محمد علي جناح؛ لإدراكه حساسية القبائل إزاء الوجود الأجنبي حتى ولو كان باكستانياً. فظهرت العمليات الانتحارية، وتم توريط الجيش والمؤسسة الأمنية في حروب لا نهاية لها وغرقت في وحول حرب أهلية وحرب عصابات لا نهاية لها في الأفق على ما يبدو.

٢ - على المستوى الاقتصادي: غدا اقتصاد باكستان «اقتصاد إرهاب»؛ فَرُبط تماماً بالحرب على ما يوصف بالإرهاب، ولم يَعُد هناك اقتصاد حقيقي مبنيٌّ على واقع استثماري وواقع تجاري بكافة المناحي وإنما بقدر ما تقتل من شعبك بِقَدْر ما تقبض.

٣ - على مستوى الرصيد النووي الباكستاني: أصبحت المنشآت النووية الباكستانية تحت تهديد شركات بلاك ووتر وشركات الحماية الدولية، ويتصاعد الخوف من سيطرة هذه الشركات عليها بعد زرع الفوضى في البلاد.

٤ - على مستوى الفوضى الأمنية: والمقصود بها تلك التي تكون عاقبتها الاستيلاء على السلاح النووي في حال رحيل القوات الغربية عن أفغانستان ومن ثَمَّ تحييده في المواجهة (الهندية - الباكستانية) المقبلة، وهو الذي ما يزال يقلق الهند.

٥ - على مستوى العقيدة العسكرية الباكستانية: إن من أكثر التداعيات الخطيرة على الحرب الأميركية والغربية على أفغانستان والتحالف الباكستاني، هو التغير الواقعي الذي حصل على العقيدة العسكرية الباكستانية بنقلها من كون الهند عدواً تاريخياً وتقليدياً بالنسبة للمؤسسة العسكرية إلى مقاتلة الجيش للمسلحين في وزيرستان والمتمردين في بلوشستان ومن ثَمَّ حصول انقسام أو تحوُّل في العقيدة العسكرية سُيضعف الموقف الباكستاني في أي مواجهة مع الهند لا سيما في ظل عدم تسوية الخلاف التاريخي في كشمير.

٦ - على مستوى تقسيم باكستان: يظهر الحديث الأميركي غير المباشر عن تقسيم باكستان من خلال ما طُرِح في الأسواق من خريطة نُشرت في أميركا تنقسم بموجبها باكستان، إلى إقليم شمالي غربي تكون عاصمته بيشاور أفغانستان، وإقليم بلوشستان إيران.

٧ - على مستوى التخطيط الأفغانستاني: يُعَدُّ التخبط الأميركي في أفغانستان والذي يقابله قلق وحذر ومخاوف باكستانية خصوصاً مع التلميحات الأميركية عن رغبة العسكريين الأميركيين بزيادة عدد القوات في أفغانستان؛ وهو ما سينعكس سلباً على الأمن القومي الباكستاني فقد أثار هذا قلق المسؤولين من ارتفاع وتيرة العنف في أفغانستان ليمتد عبر الحدود غير المحددة بوضوح إلى باكستان؛ حيث يقاتل جيشها حركة طالبان.

ولا تزال ذاكرة الباكستانيين طرية تجاه الانسحاب والتخلي الأميركي عن المنطقة بعد الانسحاب السوفياتي عام ١٩٨٩؛ وهو ما جعل البلاد في فوضى انعكست سلباً على باكستان، وتولَّت هي تنظيف ما فعله الأميركيون وغيرهم في المنطقة.

[بتصرف... من مقال (احتلال أفغانستان : بداية ثمنه أفغانياً، ونهايته باكستانياً) لأحمد موفق زيدان ٢١/١١/٢٠٠٩]





منار مجدي الصافوري

قصور الطامحين

وكم لأهل السماء من عوالم يَشُقُّ على العقل الذي كبلته دنياه اختراقها، ولو ضرباً من خيال.

قالوا له: هذي قصور الطامحين
فخلِّها لا يشغلنك حبها [1].

تركيبة معقَّدة تلك التي تُسْفر عنها قلوبهم، فتشبه المعادلات الكيميائية ربما!

أهو خط فاصل - يا تُرى - بين أن تبيع كل شيء وتيمم وجهك شطر السماء، لا شيء سوى السماء، أم هي مراحل تنقية وتكرير وعمليات فرز وانتقاء؟

أكان سهلاً أن يضعوا لقصتهم نقطة النهاية ليُغلَق الكتاب؟

أرأت أعينهم الدنيا بكل ما فيها لا شيء؟

أباعوا بهذه السهولة؟

أكانت جذوة الحب في قلوبهم لا تمكِّنهم إلا من اختيار وحيد؟

أكانت الحروف الأبجدية العربية الـ ٢٨ عاجزة عن تحمُّل شوقهم وصفاً، فحملتهم حروف الفعال؟

أأعياهم طول الانتظار؟

ألم يُرضِ غرورَهم أن يرحلوا إليه على جناح السنين فعجلوا إليه على جناح الدم بتذكرة مباشرة، وبغير ذلك لا يقنعون؟

أهي تركيبة الحب التي تعمل في القلب عمل السِّحر؛ فيهيم على وجهه لا يرى إلا حبيبه يطوي القفار والبحار أشعث أغبر لا يرويه إلا ماء الوصول ولا يريحه إلا مرفأ السدرة [2]...

صَدَقوه الشوقَ، فمكَّن لهم، فعجلوا إليه، فعجَّل لهم اللقاء.

فلما كان وقيل: تمنوا، قالوا: رُدَّنا إليها فنقتل فيك ثانيةً.

فاض منهم الحب، فحملوا الروح هديةَ القدوم عليه، فبادلهم وأبى إلا أن تكون ضيافتهم في دارٍ زَرَعَ كرامتها بيده.

هي قصة بلا ختام؛ فضيافته لا تعرف الليالي الثلاث ولا غيرها من منتهى ما قد يُعَد البحر لو حيل مداداً.

هي قصة العاشقين ورواية المحبين لا يسطِّرها إلا السَّحَرُ وجنوده.

تكتنز الأرض مواضع الأقدام منهم والسجود في سِجِل عُمُرها قبل أن تُزلزَل فتُحدِّث أخبارها، ويحفظ الهواء أنفاس ذِكرهم، وتكتم عنهم السماء الخبر حتى يؤذَّنَ فيها أن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيعرفه أهل السماء في دنياه مرة ثم يعرفوه أخرى عندما تفيض منه الروح، فيسألون: أي رائحة تلك؟ أي القادمين ذاك؟ فيُخبَرون.

وكم لأهل السماء من عوالم يَشُقُّ على العقل الذي كبلته دنياه اختراقها، ولو ضرباً

---

(١) من قصيدة «ها قد رحلتِ» للشاعر السوري معتصم الحريري.

(٢) سدرة المنتهى.

حقيقة «الضَّخ» الإعلامي الصهيوني ضد حماس في غزة

د. عدنان أبو عامر(*)

«عين على العدو» زاوية جديدة تطل على قراء البيان مع كل عدد، بإذن الله. ترصد «٣٠» يوماً ما يدور في الإعلام الصهيوني، سواءً المرئي أو المقروء، فتختار الموضوع الرئيسي لذلك الشهر، ثم ترصد كيف يفكر العدو تجاه قضايا، العالم الإسلامي والعربي طرف فيها. وتحلل الاتجاهات في المجتمع الصهيوني تجاه تلك القضايا، وتستخلص النتائج، وتُبْرز التوصيات المناسبة.

توالت التغطيات الصحفية والإعلامية في الكيان الصهيوني في الآونة الأخيرة، لعدد من التصريحات والتقارير والتسريبات التي يصدرها جيش الاحتلال حول ما تحفل به غزة من تطورات. وقد اختلفت طبيعة التغطيات: ما بين الخبر والتقرير والتحقيق والتحليل والمقال، للدرجة التي جعلت القارئ والمستمع والمشاهد، في مختلف الأقطار، يرى أن العدَّ التنازلي قد بدأ فعلاً لإمكانية توجيه ضربة عسكرية جديدة ضد حركة حماس في قطاع غزة.

تسريبات استخبارية:

بالرغم من التكتم الاستخباري الذي تبديه الأوساط العسكرية الصهيونية تجاه أي معلومات قد تحصل عليها؛ إلا أن الأسابيع الأخيرة شهدت تكثيفاً في مختلف وسائل الإعلام للتسريبات الأمنية والاستخبارية «الموجَّهة» تجاه القدرات العسكرية لحركة حماس، وتناميها، تحضيراً - كما يبدو - لضربة محتملة ضد الحركة، ومن شواهد هذه التسريبات:

١ - أوردت إذاعة الجيش الإسرائيلي تصريحاً لقائد تشكيلة غزة العميد «إيال ايزنبرغ» عن مواصلة حركة حماس تكديس الأسلحة بكميات كبيرة، من خلال الاستمرار في تهريب الأسلحة عبر الأنفاق، وهو ما يعني: أن ترسانة حماس من الأسلحة تتراكم يوماً بعد يوم.

٢ - ذكرت صحيفة هآرتس أن رئيس أركان جيش الاحتلال «غابي أشكنازي» هدد بشن حرب جديدة ضد قطاع غزة، وإن المعركة المقبلة التي سيُضطر الجيش لخوضها ستكون هناك، وسيعود الجيش لمواجهة منصات إطلاق القذائف الصاروخية في المناطق السكانية الأشد كثافة في المعمورة،

(*) كاتب فلسطيني.

والقتال في القرى والمدن والمساجد والمستشفيات ورياض الأطفال والمدارس.

٣ - نقل التلفزيون الإسرائيلي عن رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية المعروفة باسم: «أمان»، تصريحاً خلال اجتماع لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست حول نجاح كتائب القسام، الجناح العسكري لحركة حماس في إجراء تجربة ناجحة لإطلاق صاروخ يبلغ مداه ٦٠ كيلو متراً قادر على ضرب تل أبيب.

وقد كشف اللواء «عاموس يادلين» النقاب عن أن حماس لم تستكمل فقط ترسانتها من الصواريخ والمقذوفات الصاروخية التي فقدتها في الحرب، بل تسلحت أيضاً بكميات أكبر مما كان بحوزتها عشية الحرب: أكثر من ألف صاروخ قسام للمدى القصير حتى ٢٠ كم، و٢٠٠ صاروخ غراد بمدى ٤٠ كم، وبناءً على ذلك؛ فإن أي مواجهة مع حماس ستعني عملياً: أنها ستُدخِل الصهاينة في وسط الكيان في نطاقها.

٤ - نشر موقع جيش الاحتلال الإسرائيلي على شبكة الإنترنت خبراً مؤدَّاه أن حركة حماس نجحت في إدخال تكنولوجيا جديدة ساعدت كثيراً في تطوير منظومة الصواريخ المحلية التي يمتلكها نشطاؤها.

٥ - صرحت مصادر أمنية صهيونية لصحيفة «جيروزاليم بوست» بأن حركة حماس تمكنت من إدخال صواريخ مضادة للطائرات يمكنها أن تشكِّل خطراً على المروحيات والطائرات التي تُحلِّق على علوٍّ منخفض في سماء قطاع غزة، وهي صواريخ من شأنها أن «تُخِل بالتوازن القائم»، وهو ما يمس التفوق الجوي الإسرائيلي، وأن تقيِّد نشاطات الجيش وتردعه عن شن عملية عسكرية على قطاع غزة، وأن الجهود التي تبذلها حماس لإدخال صواريخ مضادة للطائرات أحد الدروس الأكثر أهمية التي استخلصتها من الحرب الأخيرة، معتبرين أن إسقاط طائرة أو مروحية إسرائيلية سيكون إنجازاً دعائياً كبيراً لحماس.

تحضيرات ميدانية:

إلى جانب تلك التسريبات الموجَّهة، والأنباء التي تأخذ طابع «الفبركة الإعلامية»، فقد حَفِل الميدان العسكري، بتحركات تشير إلى شيء ما يحضَّر لقطاع غزة، ومن ذلك:

١ - ما أعلنه رئيس قسم الدفاع المدني في جيش الاحتلال الكولونيل «شيليك سوفر» لصحيفة «معاريف» من أنه سيَجري قريباً اعتماد نظام لتحذير سكان مناطق الكيان الصهيوني قبل أن تستهدفهم صواريخ حركة حماس، وقال: نطوِّر جهازاً يستطيع أن يكشف مسبقاً عملية إطلاق صاروخ ومكان سقوطه، ويجري إبلاغ سكان المنطقة عبر هواتفهم النقالة، وأن هذا النظام سيسمح بإبلاغ الصهاينة المهدَّدين بسقوط صواريخ على قطاعهم عبر رسائل قصيرة أو وميض على هواتفهم النقالة».

٢ - تنفيذ جيش الاحتلال لمناورة مشتركة مع الجيش الأمريكي تحت اسم «جونيبر كوبرا ١٠» استعداداً لحرب صاروخية محتملة، بعد المناورات الدفاعية الجوية الواسعة النطاق التي شهدتها الأيام الأخيرة لتشغيل أنظمة إسرائيلية وأمريكية في وقت متزامن، لتشكِّل مظلة مضادة للصواريخ، هي الأكثر تطوراً في العالم. وقد أوردت وسائل الإعلام الصهيونية أن عدد الجنود المشاركين في المناورة بلغ ألف جندي، لتجربة أسلحة تهدف إلى إنشاء نظام الدفاع الأكثر تطوراً لحماية الصهاينة ومنازلهم من هجمات بالصواريخ، كما أورد التلفزيون الصهيوني أن رئيس الحكومة «بنيامين نتنياهو» ووزير الحرب «إيهود باراك» زارا مواقع مناورة «جونيبر كوبرا» الصاروخية، وأعلنا أنها مناورة جيدة جداً، وسبقها عمل تمهيدي طويل جداً من الجيش، وهي مناورة بحجم لم يسبق له مثيل.

٣ - عودة القصف الإسرائيلي من جديد لمناطق مختلفة من قطاع غزة، بدعوى: ضرب الأنفاق التي تُستَخدَم لتهريب الأسلحة، واستهداف

وُرَش الحدادة، وهي المواقع التي وصفتها صحيفة «إسرائيل اليوم»، بأنها «بنك الأهـداف» المفضـل لجيـش الاحـتلال لو اندلعت حرب جديدة ضد قطاع غزة.

٤ - سربت الإذاعة العسكرية نبأً مفاده أن حركة حماس حسَّنت من قدراتها العسكرية في مجال حفر الأنفاق؛ حيث باتــت تحفر أنفاقها بعمق كبيــر يصل إلى ما بين ٢٠ - ٢٥ متراً، وتتقدم بوتيرة خمسة أمتار في اليوم.

٥ - أوردت القناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي على لســان نائب وزير الحرب «ماتان فلنائي»: أن الدوائر الأمنية تُعِد العدة من الناحيتــين: الهجومية والدفاعية؛ للتعامل مع احتمال تــزوُّد حماس بصواريخ بعيدة المــدى، وأن الحركة تُجري استعداداتها لخوض مواجهة مستقبلية.

هذه التحركات وســواها، تشير بما لا يدع مجالاً للشك إلى أن جيش الاحتلال يحضِّر شــيئاً ما ضد حركة حماس في قطاع غزة، وهو ما دفع بالمحلل العسكري البارز «أليكس فيشــمان» للقــول صراحة فــي صدر صحيفــة «يديعوت أحرونــوت»، بعنوان بارز: «نحن وحمــاس بانتظار المواجهة القادمة في كانون ثاني».

وهو ما يجعل المسؤولين الصهاينة في القيادتين: (الأمنية والعسكرية) لا يسألون إذا كانت ستقع مواجهة عسكرية أخرى مع حماس فــي قطاع غزة، بل متى وكيــف؟ وهو ما يجعل الافتراض بأن المواجهة ستُســتأنف بحجم واسع أوائل العام القادم، مع مرور سنة على حرب «الرصاص المصبوب».

وبنــاءً على ذلك؛ فإنه منــذ اللحظة التي أصبحت فيها منظومة الصواريخ بعيدةِ المدى التي تجمعها حماس تنفيذية، فإن المواجهة معها ستكون فقط مسألة وقت.

الجديــر بالذكر أن هذه التهديدات والتســريبات تأتي على وَقْع مناظرة ســاخنة أوردتها مختلف وســائل الإعلام الصهيونية، المقروءة والمســموعة والمرئية، جرت بين رئيسَي هيئــة الأركان الســابقين لجيش الاحتــلال: «دان حالوتس وموشــيه يعلــون»، ودارت معظمها حول الذكرى الســنوية للحرب على غزة؛ حيث قــال «يعلون»: إن الحرب على غزة جاءت متأخرة، وكان ينبغي شنُّها منذ زمن بعيد، مبرراً إياها بالقول: «إن الصواريخ كانت تسقط علينا كالمطر، ولم نستطع الصبر علــى ذلك، وقد صبرنا كثيراً، وكان علينا أن نشــن الحرب منذ زمن لإيقافها».

بين الحرب والاستنــزاف

ربما تكاد تتفق الكثير من الأوساط الصهيونية (الإعلامية منها والحزبية، والعسكرية والأمنية) على أن شيئاً ما يحضَّر لحركة حماس في قطاع غزة، لكن الاختلاف ما زال ســيد الموقف على توقيت إشــعال «عود الثقــاب» الذي قد يفجِّر الموقف، وحجم العملية العسكرية المفترضة:

١ - دقَّــة التوقيت: فقد صــرح ضابط كبير في جيش الاحتلال لصحيفة «يديعوت أحرونوت» أن قواته لا تستطيع الانتظار حتــى الانتهاء من نظام القبة الحديدية أواســط عام ٢٠١٠، منوهاً إلى أنه مســتعد أيضــاً لأي تصعيد في الوضــع الأمني على الحدود مع قطــاع غزة، وبكافة الطرق والوســائل. ومع ذلك، فقد أشــارت الصحيفة إلى أن قيادة الجبهة الداخلية التابعة للجيش لا تنوي حتى اللحظة، توزيع مجموعات من الأشخاص مهمتها الإرشاد أو الإشراف على خطــط أخرى في المناطق الموجودة تحــت مرمى الصواريخ الجديدة، رغم أن التهديــدات المُنبعثة من قطاع غزة تُغطِّي معظــم الأراضي المحتلة. بينما تســاءلت دوائــر إعلامية أخرى عمَّا إذا كانت هناك أســباب ورسائل يهدف المستوى العسكري والسياسي في الكيان الصهيوني إلى إرسالها إلى جهات معنية من خلال اختيار هذا التوقيت بالذات لتسريب معلومات تمتلكها المخابرات الصهيونية منذ أكثر من شهرين حول قدرات حماس العسكرية.

يأتــي هذا التكهن في وقت أجمــع فيه محللون وخبراء صهاينة على أن التهديــدات بالعدوان على قطاع غزة «غير مستبعَدة»، وليست بالجديدة، مؤكدين أن الاحتلال يرمي إلى تهيئة الرأي العام لتقبُّل ضربة عســكرية للقطاع، معتبــرين أن الاحتلال يوجِّه رسائل للغرب؛ لكي يتقبل هجومه السابق علــى غزة باعتباره «دفاعاً عن النفــس»، ويتقبَّل أي عدوان قادم بصفته تلك.

إلى جانب ذلك، فقد أشار مختصون صهاينة في الحرب النفســية إلى رغبة قيادة الكيان في الاســتمرار في ســرد المعلومات عن تســلُّح المقاومة وتطويرها لوســائلها القتالية؛ لوضــع الجمهور الصهيوني في حالة قَلَق وخوف مســتقبلي يبرر استمرار ارتفاع ميزانية الحرب من جهة، ومن جهة أخرى استنفاره لصالح أي حرب مستقبلية يبادر إليها الجيش.

٢ - حجم الضربة: هناك استبعاد لإقدام قوات الاحتلال

على حرب جديدة ضد غزة، بالشكل الذي كانت عليه الحرب السـابقة، وما دام هناك هدوء نسبي يسود المستوطنات في ظل وَقْف إطلاق الصواريخ عليها، ولم تنفِّذ المقاومة عمليات قتل أو أسـر، فسـيكون من الصعب على الاحتلال الخروج لحرب جديدة.

ومع ذلك؛ فليس من المسـتبعَد استمرار عمليات التوغل المحدودة على حدود غزة؛ لتحقيق عدة أهداف منها: الوقوف على جاهزية المقاومة، واستجلاب ردود أفعال منها قد تبرر الحرب مستقبلاً، والتواصل مع عملائها في الداخل.

حرب الكلمات:

ليس خفيـاً أن الإعلام الصهيوني لديـه خبرات كبيرة في مجـال «حرب الكلمـات»؛ حيث يضـع عناوين حروبه، ويستخدمها بدلالات محدَّدة تخدم هدف التخويف والترهيب بجانب أهداف فرعية، ويأتي اللجوء الإسرائيلي لهذه الحرب الكلامية في إطار «حرب نفسية» موجَّهة ضد الفلسطينيين. وبناءً على ذلـك؛ فإن كل من تابع العدوان الأخير على قطاع غزة، وحتى قبل أيام قليلة من بدئه الفعلي على الأرض، يصاب بالدهشة الفعلية من تلك المهارة التي تميز بها إعلام الاحتلال في تضليل ما يخفيه المسـتوى العسكري والأمني والسياسي الإسـرائيلي للقطاع، وهي الملامح نفسها التي نستنتجها من كل حرب يخوضها الاحتلال، وما نراه في مثل هذه الأيام.

هنا من الضرورة بمكـان أن نكشـف النقـاب عن قيـام تل أبيب بإنشـاء «هيئة الإعـلام القومي»؛ لتوضِّـح خلفية الحملات العسكرية على غزة لوسائل الإعلام والسياسيين، بالتنسـيق مع سـكرتير الحكومة، ومع قوى الأمن المختلفة، واعترف رئيـس الهيئة «ياردن فاتيـكا»، بأنها أعدَّت المواد الإعلامية التوضيحية والمقابلات والرسـائل، وبات الموضوع الإعلامـي يتوحد مـع عملية اتخاذ القـرارات في العملية العسكرية المفترضة.

وهكذا فـإن الحرب الإعلاميـة كانت وما زالـت من أهم الوسائل المصاحبة لأزيز الرصاص وهدير القذائف. وأهميتها في تهيئة أجواء الحرب والتفنن في إدارتها باتت أكثر سمات الفضاء المفتوح، وما لا يمكن أن ننكره جميعاً خلال الأيام التي سبقت هذا العدوان أن الإعلام الإسـرائيلي خاض غمار المعركة العسـكرية عبر صفحاته، قبل أن تدك عجلات الدبابات الإسـرائيلية أرض القطاع، وصواريخ طائراتها تحوِّل الجثث إلى أشلاء.

ومن غيـر مبالغة في القـول؛ فإن قـدرة الإعلاميين الصهاينة على قلب الحقائق وتسـويق الأوهـام، على أنها مسـلَّمات بطريقة فائقة تجعل الشـخص غير الملِم بحقيقة الاحتلال للأراضي الفلسـطينية ينحاز لوجهة نظرهم، ومن ثَمَّ يقع في الشَّرك الذي رسموه.

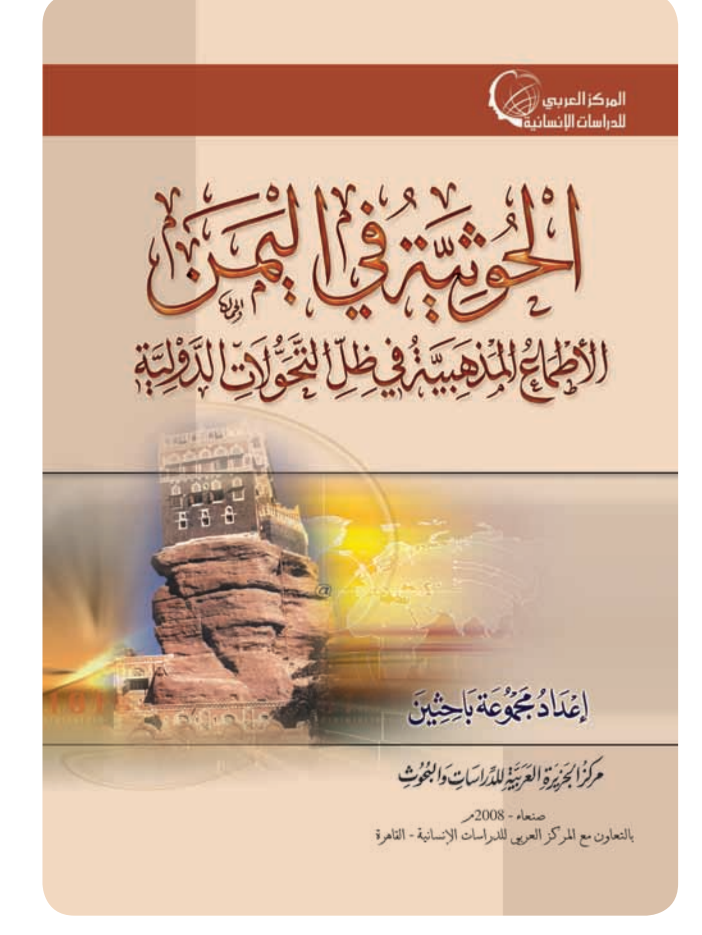
والسؤال الذي نكرره دائماً، في كل حادثة مشابهة للعدوان الإسرائيلي، هو: كيف يمكن أن نقرأ ما ينشره إعلام العدو؟ وما الذي يجعله إعلاماً فاعلاً حقاً لا سـيما أننا بتنا نعيش في فضاء العالم المفتوح عبر الأقمار الاصطناعية وشـبكة المعلومات الدولية «الإنترنت»؟

الأمـر الأكثر بروزاً في الأيـام الأخيرة، هو: أن الإعلام الصهيونـي يقود حملة تحريض واسـعة قبـل البدء فعلاً بالعـدوان؛ فقد حَملت صحيفة «معاريف» في أحد أعدادها عنواناً عريضـاً ملفتاً على صفحتها الأولى. يقول: «خائفون من حماس»، وهو ما يمكن أن يشـكِّل نوعاً من الاسـتفزاز، بينما نشرت «هآرتس» عنواناً آخر يقول: «في غزة مستعدون للحرب»، وهو ما يصور للجمهور الصهيوني أن غزة دولة قوية تستعد للحرب بامتلاكها أسلحة قادرة، ويجب محاربتها.

ولم يكتفِ الإعلام بقض مضاجع السياسـيين، بل تسلل إلى قلوب وعقول الجماهير، ممارساً نوعاً من «الإرهاب» عليه من خلال تصويره كضحية؛ فالعنوان الرئيسـي الذي حملته صحيفة «الأسـبوع» يقـول: «واحد من كل ثمانية إسرائيليين تحت مدى الصواريخ»، وإلـى جانب هذا الخبر خرائط تبيِّن مدى الصواريخ التي قد تنطلق من غزة باتجاه الكيان.

لهذا؛ فإن البعد عـن الواقع والذهاب للتحريض والتضليل جعل من توفير الخِيارات شـيئاً محـدوداً أمام صاحب القرار السياسـي والأمني في الكيان؛ فليس من الممكن أن يصمد أمام تعبئة داخلية هدفها الأساسـي هو الدفـع لتنفيذ المخططات العدوانية واقعياً، وما يمكن قوله: إن إعلام الاحتلال يعيش حالة من التجنيد الذاتي «للمصالـح» الخاصة بالكيان؛ فهناك دافع ذاتي داخل مؤسسـاته الإعلامية يجعل من كل فرد فيها يمارس دوره «الوطني» دون أن يكون هناك من يجبره على ذلك.





عرض كتاب:

الحوثية في اليمن... الأطماع المذهبية في ظِل التحولات الدولية

أنور قاسم الخضري

في ظل (الصراعات المسلحة) يذهب الكثيرون لمتابعة (ساحة المعركة)، محاولين الاصطفاف (مع أو ضد) طَرَف تجاه آخر، ومن ثمَّ قراءة الأمور بـ (عين الرضى) أو (عين السخط)، من أجل نيل مصالح ذاتية أو فئوية.

وقليلون هم أولئك الذين يقفون خارج أرض المعركة ليبحثوا عن (مصدر الفتنة)، متجردين فكرياً ونفسياً من أي تأثير (تضليلي)، قاصدين من ذلك الخروج من الأزمة وليس التَّعيُّش منها.

هذا ما يخرج به قارئ كتاب: (الحوثية في اليمن... الأطماع المذهبية في ظل التحولات الدولية)، والذي صدر عن مركز الجزيرة العربية للدراسات والبحوث بصنعاء بالتعاون مع المركز العربي للدراسات الإنسانية بالقاهرة.

> **إن الصراع الذي بدا محدوداً قبل خمس سنوات بين الدولة اليمنية وتمرُّد الحوثي، أصبح اليوم مثاراً لاهتمام الأنظمة الخليجية والعربية والدولية على الصعيدين: (السياسي والإعلامي)**

هــذا الكتاب الذي يمثــل بحثاً مطولاً ودراســة شــاملة حــول الحوثيــة كحركة والحــرب كأزمة، حتــى شــهر ذي الحجة مــن عام ١٤٢٩هــــ - كما تفيــد المقدمة - أعدَّه مجموعة من الباحثــين. وهو جريء في طرحه، مليء بالشــواهد والبيانات والمعلومات، عميق في تحليله، صادق في لهجته وخطابه، يربط بين التاريخ والدين والسياسة رغم سهولة طرحه وبساطة عبارته. وهو وإن لم يكن الجهد الأول على الساحة اليمنية الذي يتناول القضية، لكنه قدَّم الموضوع بشمولية تُنَاسب حجمه.

إن الصـــراع الذي بدا محدوداً قبل خمس ســـنوات بين الدولـــة اليمنية وتمرُّد الحوثي، أصبـــح اليوم مثاراً لاهتمام الأنظمـــة الخليجية والعربيـــة والدولية علـــى الصعيدين: (السياســـي والإعلامي) وإلى حدٍّ ما على الصعيد الديني. وهـــو - حســـب رأي الباحثـــين - نتيجة تراكمات ســـابقة وتفاعلات ماضية، وزَرْعٌ آتى أُكُله، فأصبح اليمانيون يجنون الشوك في (زمن الحصاد).

ورغم اســـتياء الباحثين من الدماء التي تُهراق والأنفس التي تُشـــرَّد والمصالح التي تُدَمَّر، إلا أنهـــم لم يترددوا في تقديم شـــهادتهم على الواقع وَفْقاً لـمـــا لديهم من معلومات وحقائق (للمسيء بإساءته وللمخطئ بخطئه)، حتى لا تتكرر الزلة وتتعاظـــم الفتنة ويغيب الحق؛ وحتـــى لا يلج الأعداء من الأبواب المشـــرعة؛ وحتى تُراجع الأطراف أنفســـها؛ لأن للمقدمات نتائج.

وقد أعطـــى الباحثون في مدخل الكتـــاب خلفية عامة حـــول الجغرافيا الدينيـــة والمذهبية لليمن خـــلال تاريخها بشكل موجز، باعتبار أن هذا الاستقراء التاريخي يقدِّم دليلاً علـــى أن اليمن - نظراً لموقعهـــا الجغرافي - تقع في دائرة الاستهداف (السياسي المؤدلج)، وهو ما جعلها تضم تشكيلة (فسيفسائية) من الأديان والفِرَق خلال تاريخها؛ إلا أن دخول الفِـرَق - الخوارج والشيعة تحديداً - إلى اليمن جعل منهـــا مســـرحاً للصر ا عـــا ت المسلحة المستندة إلـــى (العقيـــدة) و(المذهـــب). كما رســـم الباحثون ملامـــح المنطقة العربيـــة، التـــي أصبحت تعيـــش بين مطرقـــة الصراعات الداخلية وســـندان التآمر الخارجـــي؛ مبيِّنين كيف أن هذه الأوضاع، التـــي يصدق عليها وَصْـــف (الفوضى الخلاَّقة)، بالإضافة إلى أجواء يمنية محلية - أتى الكلام عنها في ثنايا البحث - هيأت لحركة الحوثي فرصة لا تُعوَّض.

الحوثية النشأة والمسار:

هذا هو عنوان الباب الأول من الكتاب، وقد شمل أربعة فصول:

الفصـل الأول: كان تمهيـــداً يبحث في مواطن الافتراق والالتقـــاء بين الزيدية والإمامية[1] (الإثني عشـــرية)؛ حيث يؤكـــد الباحثون على أن الاختلاف بين هذين الفريقين مثبَت تاريخياً وعقدياً؛ فقد كفَّر كلٌّ من الطرفين الآخر وَفْقَ أصول مذهبه، وحدثت بينهما مواجهات مســـلحة. لكن على الرغم مســـائل الخلاف بـــين الزيدية والإمامية (الإثني عشـــرية) فقد كان هناك آراء مشـــتركة بين الجارودية (وهي من فرق الزيدية، وينتمي إليها بدر الدين الحوثي وغيره من المرجعيات المذهبية في صعـــدة) وبين الإماميـــة (الإثني عشرية)، وهو ما جعل بدر الدِّين الحوثي يؤلف رسالة في هذا الشأن. ومن ثمَّ يرى الباحثون أن الجارودية شـــكلت بوابة للإثني عشرية، وهذا ما يفسر طبيعة الالتقاء بين فكر الحوثيين المنتمين إلى الجارودية والثورة الإيرانية (الإثني عشرية).

وفـــي مبحث آخر يتحدث الكتاب عن أثر ســـقوط دولة الإمامة على يد أتباع المذهب الزيدي في اليمن، والذي شكَّل منعطفاً مهماً في شـــعور أتباع المذهب الذين خاضوا معارك

(١) تُطلَق لفظة (الإمامية) في اليمن على كل ما له صلة بحكم الأئمة الزيديين؛ فهي تحمل معناً سياسياً وليس عقدياً، على خلاف مفهوم (الإمامية) في كتب العقائد. لذا جرى التمييز والتنبيه!

وفي مبحث ثالث يتناول الباحثون أثر (ولاية الفقيه) وقيام الدولة الإمامية (الإثني عشرية) في إيران

شرسة لاستعادة مركزهم السياسي الذي يمثل جزءاً من فكرهم السياسي ونظريتهم العقدية في السياسة. ويرصد الباحثون مجريات الأحداث التي تحوَّلت معها مشاعر بعض عناصر الزيدية من السلبية إلى الفعل والحركة والظهور.

وفي مبحث ثالث يتناول الباحثون أثر (ولاية الفقيه) وقيام الدولة الإمامية (الإثني عشرية) في إيران بإعادة الأمل لدى الزيدية لاستعادة دولتهم. وما ترتب على وجود القواسم الفكرية والمصلحية المشتركة بين الطرفين: من التقاء وتقاطُع سياسي انعكس في حركة الحوثي؛ حيث لم تُغفِل الثورة الإيرانية موقع اليمن من مشروعها التوسعي في المنطقة، في حين يرى الحوثيون فيها أسوة لهم لاستعادة مجدهم القديم.

وفي المبحث الرابع: يحلل الباحثون موقف الجمهورية اليمنية من المذهب الإمامي (الإثني عشري)، وكيف أن القوى الثورية لم تكن تملك مشروعاً فكرياً وسياسياً موحَّداً تتفق عليه غير القضاء على (حكم الإمام) بوصفه حكماً ظالماً مستبداً، ومن ثَمَّ فلم تكن الدولة الناشئة ذات بُعْد أيديولوجي مصادم للدين والمذاهب المنتسبة إليه. ويسجلون موقف اليمن الداعم للثورة الإيرانية في بداياتها ثمَّ اصطفافها إلى جانب العراق والدول العربية في مواجهة ما عُرف في ما بعد بتصدير الثورة الإيرانية. وهو ما سُجل على اليمن إيرانياً، وظل محفوراً في ذاكرة القيادة (الإثني عشرية) في إيران، وهي التي لا تنسى المظلوميات التاريخية. ومن ثَمَّ بدأت بالتبشير بأفكارها منذ مطلع الثمانينيات في اليمن ومن خلال مسار متصاعد أغفلته حكومة اليمن، ربما بِحُسن نية أو جهل.

الفصل الثاني: يتناول مولد ونشأة الحوثية، ويستوقفنا هنا ربط الباحثين بين ظروف المنطقة التي شهدت مولد الثورة الإيرانية، وكيف أن هذه الثورة بدأت تبحث عن موطن قَدَم لها في بقية المناطق التي يوجد فيها الشيعة، وكيف استطاعت التغلغل في اليمن؛ لِتُوجد نشاطاً ثقافياً وفكرياً يتقاطع معها ويلتقي في قواسم مشتركة من خلال ما عُرف بـ (تنظيم الشباب المؤمن). ويتطرق الباحثون إلى قضية مهمة، وهي حقيقة الخلاف بين الزيدية والحوثيين، عبر مناقشة فكرية وتقييم لمواقف الأطراف من بعضها البعض وتبادل الأدوار بينهم.

الفصل الثالث: يقابلنا فيه الحديث عن منهج الحوثية وفكرها ومسارها الحركي؛ حيث يقدِّم الباحثون في المبحث الأول لمحة عن الأبعاد المذهبية والطائفية في حركة الحوثي، وفي المبحث الثاني تحدثوا عن الانتماء الفكري والولاء السياسي للحوثية وطبيعة التعاطي (البراغماتي) الذي تمارسه الحوثية في الحركة والسياسة. أما المبحث الثالث فيَعرِض لأهداف وأجندة حركة الحوثي السياسية، والتي يمكن اختصارها في قيام تنظيم سياسي مذهبي ذي طابع حركي وفكري وثوري مسلح؛ ليكون قوة محلية وإقليمية على غرار (حزب الله) في لبنان. وفي المبحث الرابع يقدِّم الباحثون الملامح العامة لحركة الحوثي.

الفصل الرابع: يحدد الكتاب مصادر القوة التي امتلكتها حركة الحوثي في هذا الفصل، من خلال ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: يتناول نقاط القوة الذاتية والموضوعية التي توفرت للحركة، والفرص التي تهيأت لها. ومن ذلك - حسب رأي الباحثين - استناد الحركة إلى مذهب ينتسب لـ (آل البيت)، وانطلاقها من بيئة حضنت المذهب لأكثر من ألف عام، وتتميز بولائها له، وعاشت خارج سلطة الدولة، وتوفُّر السلاح وتجارة السلاح في منطقتها. ومنها أيضاً وجود غطاء سياسي، وحلفاء سياسيين، وتقاطُع سابق مع الحزب الحاكم، وقوى متغلغلة في السلطة موالية للتيار مؤمنة بأفكاره.

المبحث الثاني: يبيِّن نقاط الضعف التي وفرت للمتربصين أرضاً خصبة لزرع بذور التمرد على السلطة وتحريضهم ضدها.

المبحث الثالث: يشير الباحثون فيه إلى المخاطر التي تجاهلها الحوثيون في سَيْرهم الحركي ومواقفهم، ومنها - حسب رأي الباحثين - التوجُّه إلى ممارسة العنف، والذي يمثل في بيئة كاليمن ولوجاً إلى المنطقة المحرَّمة، ومنها أيضاً التركيبة السكانية للمجتمع اليمني، والتي تزخر بتنوُّع عِرقي ومذهَبي وسُلالي وطَبَقي، وذلك يجعلها قابلة للتفتت والتطاحن في حال أثيرت فيها فتنة؛ وهو ما قد يؤدي إلى حرب أهلية، لا سمح الله.

كما يرى الباحثون أنها تجاهلت الأطماع الأجنبية في التدخُّل في شؤون البلاد والمجتمع على حين صراع وغفلة من أهله؛ هذا إضافة إلى أن المؤشرات جميعاً (الاقتصادية والاجتماعية، الثقافية والتعليمية، الأمنية والسياسية) تدل على أنَّ أوضاع اليمنيين، وإن بدت في ظاهرها تتحسن؛ إلا

أنها تعود إلى الوراء؛ وليس ينقصها ما يزيد من تدهورها.

المواجهة والنتائج والمواقف والآثار:

تحت هذا العنوان جاء الباب الثاني، وهو كسابقه مليء بالمعلومات والنقولات، ويغطي جزءاً كبيراً من البحث. ويضم الباب الثاني تمهيداً وأربعة فصول:

الفصل الأول: يتحدث عن الحرب وجهود المصالحة؛ حيث تناول الباحثون في خمسة مباحث مجريات الحروب الخمسة، التي دارت رحاها خلال خمسة أعوام، بين الدولة والحوثيين، بشيء من الاستطراد والتتبع، وبصورة تربط بين الأحداث والمواقف والمجريات التي رافقت هذه الحروب، وهو ما يعطي القارئ رؤية شاملة وقدرة على التحليل الذاتي.

أما المبحث السادس فخُصِّص للحديث عن جهود الوساطة والمصالحة الداخلية والخارجية، والفشل المستمر الذي لحق بها. وقد عرض الكتاب للجان الوساطة والاتفاقيات والشروط التي كانت تطرح، والنتائج التي كانت تَعقُب كل مرحلة من مراحل الوساطة.

الفصل الثاني: تناول الباحثون فيه مواقف الأطراف الداخلية بشيء من التحليل؛ ومنها موقف الحزب الحاكم وحكومته في المبحث الأول؛ وموقف أحزاب المعارضة في المبحث الثاني.

المبحث الثالث: يَعرِض لمواقف علماء اليمن باعتبارهم قوة اجتماعية لها تأثيرها.

الفصل الثالث: يَعرِض لمواقف أطراف خارجية، ومنها: الموقف الأمريكي والسعودي والإيراني.

الفصل الرابع: تطرَّق إلى الآثار التي خلَّفتها الحرب على اليمن (سياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً).

من المستفيد؟ وما هو المستقبل؟

تحت هذا العنوان جاء الباب الثالث الذي توزع على خمسة فصول.

الفصل الأول: يتناول الأطراف المستفيدة من بقاء الأزمة؛ وهو أول سؤال يخطر للمتابع عند الحديث عن هذا الصراع.

ويناقش الكتاب الاحتمالات الواردة في الأطراف التي يمكن أن تستفيد من الحرب، سواء ما يُطرح حول وجود تيار مستفيد في السلطة اليمنية أو القيادة السياسية، أو الأطراف التي يتهمها الحوثيون، والتي تتأرجح من القيادة السياسية التي تهدف إلى إبادة (الهاشميين) والقضاء على (الزيدية) - بزعمهم - إلى أطراف ينعتونها بـ (الوهابية) تارة، و(السلفية) تارة أخرى، و(الإخوانية) ثالثة، باعتبارهم أعداء للمذهب ومتحالفين مع السلطة؛ وتمتد للتحدث عن الولايات المتحدة الأمريكية دولياً والسعودية[1] إقليمياً.

كما يناقش فكرة أن يكون الحوثيون أنفسهم - كحركة ترى في الحرب سبيلاً لتجييش القوى المذهبية والاجتماعية في مشروعها السياسي المسلح بحافز الدفاع عن وجودها ومصالحها - طرفاً مستفيداً من الحرب الدائرة عليهم.

كما يناقش الكتاب أيضاً فكرة أن تكون الولايات المتحدة الأمريكية طرفاً مستفيداً من الحرب؛ خاصة وأنها لم تَغِب عن الموضوع وهي المستهدَفة بشعار الحوثيين: (الموت لأمريكا... الموت لإسرائيل)، في حين أنها ترفض إدراج الحوثيين في قائمة الإرهاب حتى الساعة.

ثمَّ يناقش الكتاب مدى استفادة إيران الساعية إلى توسيع دائرة نفوذها السياسي في المنطقة؛ لتمتلك مزيداً من نقاط القوة في تفاوضها مع الغرب والتأثير على بُعدِها الإقليمي. وبالإضافة إلى إيران يناقش الكتاب مدى استفادة ليبيا كطرف جرى الحديث عنه بقوة في الأزمة؛ فليبيا تريد منذ زمن بعيد موطن قدم لها في اليمن، وتجمعها بإيران صِلات مشبوهة، ويدعو زعيمها في أكثر من مناسبة إلى إقامة «الدولة الفاطمية الثانية» وهي ترعى اليوم الطرق الصوفية والشيعية في إفريقيا.

الفصل الثاني: يتناول الكتاب العوامل المساعدة على بقاء الأزمة، والتي تتوزع بحسب الباحثين على الظرف الزماني والمكاني والبيئة والأطراف المتصارعة عموماً. وهي بمجموعها تتفاعل معاً لتعيد صياغة ذاتها بشكل أو بآخر؛ فالجهل، والفقر، والفساد الوظيفي، وتوفُّر السلاح، وضعف

---

(١) جرى إقحام السعودية في الصراع الدائر في صعدة في الخطاب التعبوي للحوثيين وعلى الصعيد الإعلامي لهم قبل استهدافهم لها بفترة طويلة، وكان الهدف من ذلك هو إشعار أتباع الحركة بوجود صراع (طائفي - سياسي) تتولى السعودية كِبْره إضافة إلى الولايات المتحدة. انظر - مثلاً - اتهام يحيى الحوثي للسعودية بأنها «احتلت بلدنا»، وبأن الحكومة اليمنية تتهرب من اتفاق الدوحة وتواصل متاجرتها بالدماء اليمنية «تنفيذاً لرغبة السعوديين؛ لذلك فإن التوقعات تقول بأن الحرب ستكون طويلة»، من مقابلة له مع وكالة «قدس برس» للأنباء، www.almenpar.com، في ١٢/٧/٢٠٠٨م. وانظر: قول عبد الملك الحوثي: «موقف السعودية - كما يبدو - سلبي وللأسف، وكما نلحظ: فإن السعوديين يستَعْدوننا، مع أنَّا لسنا أعداءً لهم، ولم يسبق منَّا أي اعتداءات عليهم، ولا يوجد لدينا أي مشاريع تآمرية عليهم، لكنهم يدورون في الفلك الأمريكي، ويتسابقون مع النظام اليمني أيهم يتقرب إلى الأمريكان واليهود أكثر » في حوار مع صحيفة الأهالي، www.almenpar.com، في ٢٤/٦/٢٠٠٨م.

سلطة القانون، وغياب الرادع الديني والأخلاقي، وغياب أو ضعف النظر إلى مصالح الوطن العليا. هذا بالإضافة إلى ضعف تقدير الوضع، أو تقديره خطأ، كل ذلك أوقع البلد في مصائد الحوثيين. كما أن هناك العوامل الخارجية التي كانت وستبقى سبباً في تأجيج الأزمة.

الفصل الثالث: يتحدث عن مستقبل الحرب وآثارها على المنطقة، وذلك في إطار موقف الأطراف المباشرة للصراع وتقييم أدائها، وفي ظل معطيات الجغرافيا والواقع الاجتماعي. ويقدِّم الباحثون رؤيتهم هذه في ظل مؤشرات الحروب السابقة، والتي أثبتت أن هناك سابِقَ إعداد من قِبَل الحوثيين وإصراراً على مواصلة القتال؛ لتحقيق الأهداف السياسية والعسكرية للحركة.

الفصل الرابع: يَعرِض الكتاب فيه لمستقبل الطائفية في اليمن، على خلفية الآثار التي نتجت عن حرب الحوثيين، وعلى خلفية بعض التصريحات التي بدأت تُطلِقها رموز زيدية. هي في الحقيقة موالية للحوثيين، والحملات الإعلامية التي تشنها صحف محلية حول بعض التيارات والمذاهب السُّنية في اليمن.

الفصل الخامس: يطرح الباحثون فيه الأسس الكفيلة بإنهاء الحرب ومعالجة الأزمة من وجهة نظرهم؛ لأن هناك شبه إجماع على أن تمرُّد الحوثي يقوم بالدرجة الأولى على أساس عقدي وفكري، وهو ما يعني أن المنتمي لهذه الحركة يرى أن ما يقوم به واجباً دينياً؛ لذلك فإن أوَلَى الأسس الكفيلة بحل الأزمة هو الحوار.

وهذه الأسس - بحسب الباحثين - تتوزع على القيادة السياسية التي يجب أن تُراجع حساباتها، وأن ترجع إلى العلماء والمفكرين وتوسع دائرة الشورى؛ وكذلك الأحزاب والقيادات الحزبية التي أهملت الإسلام كمرجعية عليا للأمة. وتتسع آليات هذه الأسس على الحوارات، والمناهج العلمية، وتفعيل القضاء كجهاز مستقل، والإعلام كوسيلة لِبَث الوعي وخَلْق حالة من الأُلفة.

السبيل للخروج من الأزمة:

يقدِّم الباحثون في الباب الرابع جملة من النتائج، وهي في نظرهم خلاصة ما توصلوا إليه، وهي تمثل منطلقاً يجب الأخذ به عند وَضْع الحلول المباشرة والتفصيلية للأزمة؛ فهي تمثل أساساً لفهم المشكلة وأبعادها، ومقدمة لإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح.

كما يرى الباحثون وهم يضعون جملة من التوصيات، أنه لا يمكن تقديم توصيات مباشرة، كون الأزمة الحالية أعمق مما هي عليه في السطح، لكنهم يقدِّمون حزمة من القواعد التي يجب التزامها لحل الأزمة. وهي حزمة يخاطب فيها الباحثون القيادة السياسية والسلطة والعلماء ومشايخ القبائل وعموم أبناء المجتمع، وحتى الدول المجاورة لليمن باعتبارها المتضررة من أي انفلات في اليمن.

لقد حاول الباحثون الإجابة عن الأسئلة المطروحة في الأزمة: مالدوافع مِن ورائها؟ مَن الأطراف الحقيقية اللاعبة فيها؟ وكيف جرت الأمور حتى بلغت حدَّ المواجهات المسلحة؟ وهل بُذلت مساعٍ لتفادي الحرب، أو إنهائها؟ ومن يتحمل مسؤولية ما يجري؟ ولماذا؟ وما هي النتائج المترتبة على هذا الحدث الذي استمر قرابة خمسة أعوام ما بين مدٍ وجزر؟ ومن المستفيد منه؟ وما مستقبل هذه الأزمة والحرب؟ وما هو السبيل إلى الخروج من هذه الأزمة؟

لقد جاء الكتاب في عمومه مليئاً بالمعلومات والبيانات؛ وجَمَع بين القراءة التاريخية والفكرية والسياسية للحدث؛ وهو - بدون شك - استفاد من كمٍّ المراجع والمصادر التي شملت كافة الكتب والتقارير والمجلات والصحف والمواقع التي تُقَابِلنا في هوامش البحث؛ لذا جاء أكثر شمولاً؛ بحيث يمثل مرجعاً مهماً في القضية.

ويُشهَد للكتاب أنه لم يقف مع أي طرف من أطراف النزاع ضد الآخر، بل انطلق من رؤية موضوعية حيادية مستقلة، باعتباره لا يمثل جهداً صادراً عن مصلحة ذاتية؛ لهذا توقع الباحثون ابتداءً عدم رضا بعض أطراف الصراع عنه.

ويؤكد الباحثون في نهاية البحث على أن جَهْل الكثيرين بأبعاد القضية واعتمادهم على ظواهر الأمور دفع بهم إلى تسطيح المسألة وتناولها في إطار من الإثارة أو المكايدات؛ وأن تغييب الكثيرين لجانب الفكر والتأثير الديني حصر زاوية النظر في الجانب العسكري والمسلح فقط؛ وأن تعتيم الدولة وحركة الحوثي لأبعاد المسألة وطبيعة الخلاف الذي على أساسه انطلقت الشرارة الأولى فتح أبواب التأويلات المتباينة.


ولا أسهل!
AL-WATANIA POULTRY
دواجن الوطنية
شنيتزل الدجاج
Chicken Schnitzel
8 pieces
Your Food is in Safe Hands
مقلاة
frying pan
Saudi Product
الآن.. منتجات دواجن الوطنية أصبحت أكثر تنوعاً وأكثر سهولة لتناسب كافة الأذواق، لتكون اختيار الأم الحقيقي
حب الأم الحقيقي.. متنوع حقيقي
AL-WATANIA POULTRY
دواجن الوطنية
غذاؤكم ترعاه أيد أمينة
HACCP
SGS
أعلى المقاييس الدولية للغذاء
MOODY
UKAS
ISO 9001-2000 REGISTERED COMPANY
إنتاج المملكة العربية السعودية • الرقم المجاني ٨٠٠١٢٤٤٦٦٦ • www.al-watania.com



المسؤولية الاجتماعية للشركات في المفهوم الإسلامي

د. هاني بن عبد الله الجبير

لقد شاع مؤخراً التأكيد على ما يسمى بـ: (المسؤولية الاجتماعية للشركات) الذي يعني: إسهام رجال الأعمال في الأعمال الاجتماعية والتطوعية والقيام بدور بارز حيال رعاية المجتمع بأفراده وبيئته، وكان انطلاق ذلك من دعوات وجَّهها الأمين العام للأمم المتحدة، لتقوم قِطاعات الأعمال بدورها في مجالات حقوق الإنسان والعمل والبيئة؛ لتكون جزءاً من الحل في مواجهة تحديات العولمة.

والالتزام بالمسؤولية الاجتماعية يقضي بأن أي منشأة يجب أن لا تكتفي باستغلال الموارد المتاحة لها بما يخدم أهدافها الاقتصادية فقط، بل إن مسؤوليتها تمتد إلى مواجهة المتطلبات الاجتماعية، والتي تؤدي لاكتساب ثقة الجمهور ورضا المستهلكين، وهو ما يساعد في خدمة أهداف المنشأة الاقتصادية. وبناءً على هذا لا بد أن تساهم المنشأة في تحقيق رفاهية المجتمع بتحسين الظروف البيئية، ورعاية شؤون العاملين، وتحقيق الرفاهية لهم، وتوفير الأمن والرعاية الصحية والاجتماعية، وهو ما ينعكس بدوره على خدمة نشاط المنشأة. وهو دور يتجاوز حدود الشركة وعامِلِيها إلى المجتمع والتأثير فيه، وهو في حقيقته التزام أخلاقي واعتراف بفضل المجتمع عليها في الرفاهية التي وصلت إليها.

وهذا الموضوع لم يحظَ بتأصيل شرعي، مع كونه من المعاني المتأصلة في الإسلام، وسأحاول في هذه الورقات أن أتلمس جوانب من تأصيل هذا المعنى.

رعاية الإسلام للمصالح العامة والخاصة:

إن الدور المطلوب من الشركات خارجٌ عن نطاق بحثها عن الربح، أو عن الهدف الخاص الذي أقيمت من أَجْله؛ إنه دور واسع متأكِّد في التشريع الإسلامي، وهو في تأكيده لهذا الدور ينطلق من مبدأ موازنته بين المصالح العامة والخاصَّة، التي تؤدي إلى استقامة المجتمع؛ فالحرية الفردية وحق التملُّك، وحق التصرُّف في المُلْك الشخصي ونحوها، مع أنها مكفولة في الإسلام، لكنها لم تُتْرك فوضى؛ فللمجتمع حسابه، وللأهداف العليا والمقاصد العظيمة قيمتها ومكانتها.

ولهذا التناغم بين المصالح نجد الإسلام يؤكد على معانٍ هي من آثار هذا التناغم؛ فإحسان العمل وإتقانه، عبادة لله؛ لأن ثمرة العمل تفيد الجماعة وتعود عليهم بالنفع.

وكل فرد مطلوب منه أن يراعي مصالح الجماعة كأنه حارس لها. يقول ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[1].

والتعاون بين أفراد المجتمع وهيئاته مطلوب، إذا كان مؤدياً لمصلحة المجتمع. قال - تعالى -: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

كما طلب من الأفراد والهيئات حماية الضعفاء ورعاية مصالحهم وصيانتها، وحِفْظ أموالهم، وإغنائهم. قال

(١) صحيح البخاري: (٢٥٥٤)، وصحيح مسلم: (١٨٢٩). عن ابن عمر، رضي الله عنهما.



- تعالى -: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧ - ١٨]، و قال ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سـبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار»[١].

ولم يحصر الإحسان في بذل المال فقط، بل كل مساعدة لمحتاج لها، وكل منفعة تعود على المجتمع أو البيئة، هي نوع من الصدقة التي يؤجر عليها. قال ﷺ: «كل سُـلامِي من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس؛ تعدل بين اثنين صدقة، وتُعين الرجل على دابته؛ فتحمله عليها أو ترفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة وتميط الأذى عن الطريق صدقة»[٢]، وقال ﷺ: «لقد رأيت رجلاً يتقلَّب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين»[٣]. ويؤكد فضل إعانة المسلمين ودعمهم المعنوي ومساندتهم النفسية، فيقول ﷺ: «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة من كُرَب الدنيا فرَّج الله عنه كربة من كُرَب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[٤]. فالمجتمع كله - في الإسلام - جسد واحد، يحس إحساساً واحداً، ويصور ذلك النبي ﷺ، فيقول: «مَثَل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد: إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٥]. ويصور أيضاً التعاون والتكافل بين المؤمن والمؤمن، فيقول: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً»[٦].

(١) صحيح البخاري: (٥٣٥٣)، وصحيح مسلم: (٢٩٨٢). عن ابن عمر، رضي الله عنه.
(٢) صحيح البخاري: (٢٧٠٧)، وصحيح مسلم: (١٠٠٩). عن أبي هريرة، رضي الله عنه.
(٣) صحيح البخاري: (٦٥٢)، وصحيح مسلم: (١٩١٤). عن أبي هريرة، رضي الله عنه.
(٤) صحيح البخاري: (٢٤٤٢)، وصحيح مسلم: (٢٥٨٠). عن ابن عمر، رضي الله عنه.

الحكم التكليفي لهذا الدور:

باعث القيام بالمسؤلية الاجتماعية في ظل الفلسفة المادية للحياة، هو ضمان استمرار الشركات في مجال عملها على المدى الطويل، كما أنها تساعد في تعزيز مصداقية المنشأة والثقة في أعمالها وتستقطب الكفاءات إليها.

أما في النظر الشرعي، فباعث هذا الدور هو التكليف الشرعي الرباني الذي يقوم به الإنسان طلباً لثواب الله ورجاء بركته، ومناطه الأخلاقيات الإسلامية التي تأخذ بزمام كل فضيلة، فتجعلها مطلوبة؛ فبعضها على سبيل الاستحباب، وبعضها على سبيل التأكد أو الوجوب على حسب المصالح المترتبة عليها في الدنيا والآخرة[٧].

ولذا؛ فإنه لا يمكن حصر الأعمال الداخلة في نطاق المسؤولية الاجتماعية وإن أمكن فرزها في مجالات؛ إذ كل المصالح التي حث عليها الشرع (إيجاباً أو استحباباً) داخلة في نطاق هذه الشركات وقُدُرَاتها وأحوالها. يقول ابن تيمية: (التنوع قد يكون في الوجوب تارة، وفي الاستحباب أخرى، فالأول: مثل ما يجب على قوم الزكاة، وعلى قوم تعليم العلم، وأما في الاستحباب فهو أبلغ... فكل شخص إنما يُستَحب له من الأعمال ما يقدر عليه ويفعله وينتفع به، والأفضل له من الأعمال ما كان أنفع، وهذا يتنوع تنوعاً عظيماً؛ فأكثر الخلق يكون المستحب لهم ما ليس هو الأفضل مطلقاً)[٨]. وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين[٩] في سبيل الله نودي في الجنة: يا عبد الله! هذا خير؛ فإن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، وإن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان»، فقال أبو بكر: فهل يدعى أحد من هذه الأبواب كلها؟ قال: «نعم! وأرجو أن تكون منهم»[١٠].

قال ابن عبد البر: (في هذا الحديث: أن أعمال البر لا يُفتَح في الأغلب للإنسان الواحد في جميعها، وإنَّ مَنْ فُتح له في شيء منها حُرِم غيرها في الأغلب، وأنه قد

(٥) صحيح البخاري: (٦٠١١)، وصحيح مسلم: (٢٥٨٦). عن النعمان بن بشير، رضي الله عنه.
(٦) صحيح البخاري: (٤٨١)، وصحيح مسلم: (٢٥٨٥). عن أبي بردة، رضي الله عنه.
(٧) انظر: قواعد الأحكام، للعز بن عبد السلام: (١/ ٧٥).
(٨) مجموع الفتاوى: (١٩/ ١١٩).
(٩) معناها: أنفق شيئين من نوع واحد، نحو: درهمين، أو دينارين أو صلِّ ركعتين، والمراد أقل التكرار.
(١٠) صحيح البخاري: (١٨٩٧)، وصحيح مسلم: (١٠٢٧).

تُفتح في جميعها للقليل من النـــاس)[١]. وكذلك؛ فإن الدور الاجتماعي المطلوب مقيَّد بقيود الشـــرع؛ فليس منه مخالفة الواجب الشرعي ولا تقحُّم المحرمات.

أُسُس المسؤولية الاجتماعية في الإسلام:

المسؤولية الاجتماعية في الإسلام التي يدخل في نطاقها كل هذا الرصيد الضخم من الأعمال، تقوم على ثلاثة أُسُس تظهر فيها فلســـفة التشريع الإســـلامي لهذا الدور، وهذه الأسس، هي: الإيمان، والقسط، والتكامُل.

١ - الإيمان:

إن الإيمان يثير الضمير الإنساني ويوجِّه وجدانه ويُحيي شـــعوره بالواجب؛ فيكون هو الدافع الأصلي الذي يدفع إلى القيام بالمســـؤولية الاجتماعية، ثم يأتي التشـــريع والنظام ليؤكد هذا الدور المطلوب، كما أن الإسلام يترك المجال رحباً لمن أراد أن يزيد ما يشـــاء في دَورِه؛ فإنَّ كل ما يقدمه يزيده قرباً من الله، تعالى. ومـــا يبذله فـي الدنيـــا، يعوضـه اللـه - تعالـــى - عنه في الدنيا والآخرة: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَـيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُـهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سـبأ: ٣٩]؛ فيكون القيام بالمسؤولية الاجتماعية مرتبطاً بسرور الإنسان في أنَّه يقوم بعبادة يثاب عليها ويحقق بها رضى الله والزلفى لديه.

وإن العبـــادة في الإســـلام ذات مفهـــوم واسـع؛ فهـــي لا تقتصـــر علـى أداء أنســـاك فقـــط، بل كل عمـل يقوم به الإنسان يقصد به تحقيق هدف نبيل طالباً به رضا الله، فهو عبادة؛ فالعبادة هي الحيـــاة. قال ﷺ: «وفي بُضْع[٢] أحدكم صدقة». قالوا: يا رســـول الله! أيأتي أحدنا شـــهوته ويكون لـــه أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعهـــا في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال فله عليها أجر»[٣].

ورأى بعض الصحابة رجلاً قويـــاً يعمل، فقالوا: لو كان هذا في ســـبيل الله، فقال رســـول الله ﷺ: «إن كان يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على ولده فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه فهو في ســـبيل الله»[٤]. وكان هذا المعنـــى حاضراً عند الفقهاء؛ فنجدهم يقررون أن الأعمال الدنيوية: كالتجارة والصناعة، هي من فـــروض الكفايات. يقول ابن تيميـــة: (الناس لا بد لهم من طعام يأكلونه، وثياب يلبسونها، ومساكن يسكنونها... ولهذا قال غيـــر واحد من الفقهاء من أصحاب الشـــافعي وأحمـــد بن حنبل وغيرهم: إن هـــذه الصناعات فرض على الكفاية؛ فإنه لا تتم مصلحة الناس إلا بها)[٥].

فـــكل عمل يترتب عليه مصلحة وأراد به عامِله وجه الله - تعالى - كان عبادة يثاب عليها ويؤجر، وهذا المعنى هو أول الأُسُس التي تقوم عليها المسؤولية الاجتماعية.

٢ - القسط والاعتدال:

لهذا القسط مظاهر عديدة؛ فالإسلام يبني تكليفه على الواقع، لكنه يصعد بالإنسان إلى الدرجات العلى، ويوزِّع هذه الواقعيـــة والمثالية؛ بحيث يقوم المكلَّف بما يســـتطيع ويمكِّن الراغب في الازدياد من الخيـــر؛ فالقاعدة الأصلية ﴿فَاتَّقُوا اللَّـهَ مَا اسْـتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. ويقـــول للمتطلعين للمعالي: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمـران: ١٣٣]؛ فقد فرض الزكاة - مثلاً - كحد أدنى، مع أنَّه ليس كل شـــيء وإنمـــا هو الحد الواقعي الذي يفعله الإنســـان، ثم يبقى الباب واسعاً أمام الإنسان للإنفاق الذي يجازى عليه بأضعاف مضاعفة.

وهو أيضاً راعى الجوانب المادية والروحية؛ فلم يغفل عن أيهما، بل أخذ بميزان القسط فيهما؛ فلم يغلِّب المادة، والتي تؤدي غلبتها إلى تفـــكُّك الروابط الاجتماعية وتطرد معاني التعاطـــف والتراحم من القلوب، ولم يغلِّب الروحانية المهمِلة للحس والجسد المؤدية لضعف النمو في بناء الحضارة.

ونتيجة لهذا القســـط فـــي مراعاة الواقعيـــة والمثالية، واحتياجات الروح والجسد، نجده يربط بين التجارة والعبادة مُدخِـــلاً الاحتياطات الروحية النفســـية ضمن الاحتياجات الجســـدية المادية في تناسق مبدع: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٧].

ومـــن آثار هذا التـــوازن والاعتدال، نجـــده يرفض منطق الاقتصـــاد الحر الذي لا يفرق بين الطيب والخبيث من الـــرزق ولا يهمه إلا تحقيق الثروة، ولو على حساب الخُلُق والفضيلة[٦]، بل هو يدعو إلى اكتســـاب المال وتنميته وتحصيله: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّـهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، لكنه ابتغاء مشـــروط بالحلال في كســـبه وفي إنفاقه. قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم

---

(١) التمهيد: (٧/ ١٨٤).

(٢) البُضع بضم الباء: هو الجماع قاله النووي في شرح صحيح مسلم، ص: ٦٤١، وقال: (وفيه دليل أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات؛ فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله - تعالى - به أو طَلَبِ ولد صالح أو إعفاف نفسه أو إعفاف الزوجة أو غير ذلك من المقاصد الصالحة).

(٣) صحيح مسلم: (١٠٠٦) عن أبي ذر، رضي الله عنه.

(٤) سنن البيهقي الكبرى: (٧/ ٤٧٩)، وشعب الإيمان: (٦/ ٢٩١٢)، الطبراني في الكبير: (٩/ ٢٨٢)، والأوسط: (٦٨٣١)، وكلهم عن ابن عمر، رضي الله عنهما. وأخرجه سعيد بن منصور: (٢/ ٢٦١٨) عن أبي المخارق. قال الهيثمي في مجمع الزوائد، (٤/ ٣٢٥): رجاله رجال الصحيح.

(٥) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٧٩).

(٦) انظر: الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة، يوسف كمال، ص: ١٣٦.

القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ماذا عمل فيه، وعن ماله: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيما أبلاه»[1].

٣ - التكامُل:

المسؤولية الاجتماعية قامت طلباً لرضى الله، وأُدخل في نطاقها كل ما يحقق مصالح الناس، مراعية حاجات الجسد والروح، موازنة بين طلباتهما، متنبهةً لاختلاف القدرات وتنوُّع الرغبات، لتعمل كلَّ ذلك في تكامل عجيب.

فالمسؤولية الاجتماعية يُنظر لها أحياناً نظرة مادية تتناول الاحتياجات الجسديَّة؛ بينما تقوم في الإسلام بأبعد من ذلك لتشمل الحاجات النفسية والإحساس بكل ما يصيب المجتمع والاهتمام بالسلوك، والبيئة.

إن المسؤولية الاجتماعية في الإسلام تولي الحاجات النفسية: من الحاجة للتقدير والتعليم والإرشاد والتطوير والتعاطف، والتواصل الجيد مع الآخرين؛ بالقيام بعيادة المريض وحضور الدعوات والاجتماعات ونحوها وسائر أنواع التعامل الحَسَن، تولي كلَّ ذلك اهتمامها بحيث يصبح جزءاً منها. قال ﷺ: «إن أبواب الخير لكثيرة: التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتميط الأذى عن الطريق، وتُسمع الأصم، وتهدي الأعمى، وتدل المستدل على حاجته، وتحمل مع الضعيف؛ فهذا كله صدقةٌ منك على نفسك»[2]، وقال أيضاً: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه، ولو أن تؤنس الوحُشان بنفسك»[3]. وعن عمرو بن حزم - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة إلا كساه الله - عز وجل - من حُلَل الجنة»[4]. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «حق المسلم على المسلم خمس: ردُّ السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس»[5]. وقال ﷺ: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى»[6].

وفي السُّنة نصوص كثيرة تحث على إقالة البائع وإنظار المدين المعسر والتجاوز عنه، والأمر بالحكم بالعدل وستر المسلم إذا فعل شيئاً سيئاً وغير ذلك، والتكامل لا يقف عند ذلك، بل يتجاوزه ليشمل الإحسان إلى غير المسلمين. قال - تعالى -: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

ويتجاوز أيضاً الحاضر للمستقبل فيضع أُسُسَ المسؤولية مراعياً حاجات الأجيال القادمة، كما فعل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في أرض السواد؛ إذ أبقاها في أيدي أهلها وضرب عليهم الخراج[7].

وهكذا تتكامل مصالح الحياة بمراعاتها؛ بحيث تستقيم الحياة في تناسق يصعد بها إلى أهدافها العليا.

التطبيق العملي للمسؤلية الاجتماعية:

كان للتجار قيامٌ بهذه المسؤلية بما أدَّوه من دور رائد في الدعوة إلى الله، سواء كانت الدعوة مباشرة أو عن طريق التزامهم بأخلاقيات الإسلام في البيع والشراء، والتي أثارت إعجاب الناس؛ فمعلوم أن الإسلام دخل إلى بلاد وانتشر فيها (مثل إندونيسيا) عن طريق التجار[8]، وكذلك كان انتشار الإسلام في بلاد النوبة وغرب إفريقيا بهذه الأخلاقيات، سواء عن طريق التجار أو الحجاج في رحلتهم للحج[9].

يقول غوستاف لوبون: (والمسلم حيث يمر يترك خلفه دينه، وقد بلغ (المسلمون) ملايين كثيرة في البلاد التي دخلها العرب بقصد التجارة كبعض أجزاء الصين وإفريقية الوسطى وروسيا)[10].

ولا يمكن إغفال دور الأوقاف التي قامت بدعم العلماء وتحقيق الاستقلالية لهم، ونَشْر العلم ورعاية الشأن الاجتماعي في المجتمع المسلم.

والوقف، هو: أن يتبرع المسلم بعين تبقى لجهة معينة شريطة عدم التصرف في العين مع الاستفادة من منافعها وغَلاَّتها، وقد عُرف الوقف في التاريخ الإسلامي بكثرته وتنوُّع مصادره وتعدُّد أهدافه وجهاته؛ حيث شكَّل مرفقاً حيوياً للمجتمع يقوم حتى اليوم بالوظائف العامة والأمن والرعاية الاجتماعية للفئات المحتاجة.

وكذلك كانت الزكاة والصدقات أنموذجاً رائداً في المسؤولية الاجتماعية؛ فالزكاة فريضة واجبة، وهي ركن من أركان الإسلام. ورعاية الحُجاج وخدمتهم، وهو أمر موروث من قَبْل الإسلام، من النماذج التي تمثِّل صورة من صور المسؤولية الاجتماعية.

---

(١) سنن الترمذي: (٢٤١٧) عن أبي برزة، رضي الله عنه.
(٢) صحيح ابن حبان: (٨/١٧١) عن أبي ذر، رضي الله عنه.
(٣) مسند أحمد: (٣/٤٨٢) من حديث أبي تميمة الهجيمي، رضي الله عنه.
(٤) سنن ابن ماجة: (١٦٠١)، سنن البيهقي: (٤/٥٩) وفيه ضعف، وله شاهد من حديث أنس بن مالك وأبي برزة، رضي الله عنهما. قال في إرواء الغليل، (٣/٢١٧): حَسَن بمجموع الطرق.
(٥) صحيح البخاري: (١٢٤٠)، و صحيح مسلم: (٢١٦٢).
(٦) صحيح البخاري: (١٩٣٤) عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه.
(٧) صحيح البخاري: (٣١٢٥)، وانظر: فتح الباري: (٦/٢٥٩).
(٨) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ص: ٤٠٣.
(٩) المرجع السابق، ص: ٣٩١.
(١٠) حضارة العرب، ص: ٧٣٤، وما بين القوسين أصله : (أشياع محمد)



الدعوة على بصيرة

قـال - تعالى -: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] معنى البصيرة يُفهم من خلال السورة الكريمة وأحداثها؛ فقد تجلت معاني البصيرة في أعلى درجاتها في يعقوب - عليه السلام - الذي فَقَد بصره ولم يفقد بصيرته، فقال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]، وقال: ﴿إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤]، ومنها أن يوسف - عليه السلام - كان بصيراً بالله وبأسمائه وصفاته؛ لذا كان التوجيه هنا إلى التأسي بيعقوب ويوسف - عليهما السلام - في السيرة، وفي حُسْن الظن بالله، وفي النظر إلى عواقب الأمور، وفي الدعوة إلى الله، وعلى الداعي أن يكون ذا بصيرة، وتسبق بصيرته دعوته؛ فإن لم يكن ذا بصيرة، فكيف يكون داعيةً على طريقة النبي ﷺ؟

ويستلزم تحقيق البصيرة ما يلي:

١ - أن يكون الداعية بصيراً بمن يدعوا إليه، وهو الله، سبحانه. يقول ابن القيم - رحمه الله -: (البصيرة على ثلاث درجات، من استكملها، فقد استكمل البصيرة: بصيرة في الأسماء والصفات، وبصيرة في الأمر والنهي، وبصيرة في الوعد والوعيد)(١).

٢ - أن يكون بصيراً بمن يدعوه؛ من حيث حالُه وسِنُّه وعلمه أو جهله وثقافته، ومسلم أم غير مسلم؛ لأن الداعي كالطبيب، لا بد قبل أن يصف الدواء أن يُشخِّص الداء ويراعي التدرج في العلاج، والبدء بما يكون صالحاً مفيداً متقبَّلاً مستساغاً.

٣ - أن يكون بصيراً، محدِّداً لأهداف دعوته (الكلية والجزئية ،القريبة والبعيدة).

٤ - أن يكون بصيراً بالأساليب والوسائل المشروعة الموصلة إلى الأهداف المرسومة؛ ذلك أن الدعوة إلى الله عبادة.

٥ - أن يكون ذا بصيرة ببيئة الدعوة وطبيعة المرحلة

أمين بن يوسف الدميري
دكتوراه في الدعوة والثقافة الإسلامية

(١) مدارج السالكين: ١/ ١١٨.

مشروع العمر

الحديث عن المشروعات حديث من نوع خاص.

إن بإمكان الواحد منا أن يكون مشروعاً في ذاته وأسرته ومجتمعه وأمته. يقول د. عبد الكريم بكار وهو يتحدث عن مشروع العمر للإنسان: يستطيع كثير من أفراد هذه الأمة أن يتخيَّل أن حياته عبارة عن مشروع أنشأته أمة الإسلام، واستثمرت فيه، ثم أوكلته إليه ليديرَه ويتابعَه.

ولعلك تود أن تتعرَّف على مشروع العمر ما هو ؟ إن مشروع العمر هو مشروع تتضح في ذهن صاحبه أهدافه، وتستولي فكرته على فكره وعقله، ويبذل له جميع طاقاته. هذا هو مشروع العمر، مشروع يتناسب - أولاً - مع قدراتك وإمكاناتك، ثم تعيش هَمَّه في كل لحظة من حياتك، ثم تبذل له جميع ما تملك: من فكر وعمل ومتابعة.

أودُّ أن أقرِّب لك - أخي القارئ - الصورة أكثر، في السنَّة النبوية ورد ذِكر امرأة كان لها مشروعها الخاص، أتدري ما هو مشروعها؟ (كانت تَقُمُّ المسجد) هذا هو مشروعها. كانت تحرص على أن يكون مسجد رسول الله ﷺ نظيفاً، وهي بهذا تشارك في خدمة هذا الدين.

وهذا رجل آخر كان له مشروعه الخاص به؛ إذ فتح الله - تعالى - عليه ورزقه مالاً، فأراد أن يكون شيئاً، فصار يداين الناس وييسر عليهم في القضاء؛ فيرسل رسوله ليأخذ دينه، لكنه كان يرسله ويذكِّره بقوله: (خذ ما تيسر واترك ما عسر وتجاوز لعل الله - تعالى - أن يتجاوز عنا)، ثم مرت الأيام ومات الرجل، فلقي الله - تعالى - وسأله الله - سبحانه - وهو أعلم به: هل عملت خيراً قط؟ قال: لا؛ إلا أنه كان لي غلام وكنت أداين الناس؛ فإذا بعثته يتقاضى، قلت

دعوة للمراجعة

إنها دعوة لأولئك الذين سبحوا في بحر من الأمنيات، حتى إذا ما وصلوا إلى الشاطئ تغيرت تلك الأمنيات ولم يبقَ منها إلا أطلالها، ومنهم:

- ذلك الشاب الذي يمنِّي نفسه إن تزوج وصار رب أسرة وله ذرية، أن يهتم بهم ويربيهم تربية إسلامية شاملة، أو ذلك المربي الذي كان يرجو أن يصبح مسؤولاً عن مجموعة من المتربين... ثم يتخلى كلٌّ منهم عن تلك الآمال، محتجاً بأن الزمان تغيَّر والانفتاح الحضاري يستلزم إعادة النظر في البرامج التربوية مسايرة للواقع.

- وذلك الموظف الذي ما إن تحين له الفرصة ليصبح مديراً حتى نجده قد تخلى عن جميع تلك البرامج والخطط الطموحة، ولم يذكر منها إلا حلم تَقلُّد المنصب ونشوة بريقه الخادع. فأصبح شؤماً على موظفيه بعد أن كانوا يتفاءلون به ويؤمِّلون عليه.

- وذلك الرجل الثري نراه بعد ما أعطي حظه من الدنيا مُعْرِضاً عن أوجه الخير، بحجة أن هذا المال لم يأتِ بيسر، وإنما أتى بعد مشقة وعناء.

- وذلك العالِم الذي كان يوماً من الأيام طالب علم؛ إذا به بعد أن يبلغ مناه يكتفي بذلك اللقب والوسام الرفيع، ويكون عاراً على أهل العلم وحَمَلَة الشريعة، فيدلِّس على الناس ويلبِّس عليهم الحق بالباطل، ويكون عوناً لهدم الدين ومحو روح الشريعة بفتاويه وبياناته، محتجاً بأن المصلحة الشرعية

لـه: (خذ ما تيســـر واترك ما عســـر، وتجـاوز لعل اللــه - تعالى - يتجاوز عنا)، فقال الله - تعالى -: «قد تجاوزت عنك». وخذ سيرة أبي هريرة - رضي الله، تعالى عنه - لقد كان مشروعه حِفْظ حديث رسول الله ﷺ.

لم تكن المشـــروعات حصراً على أفراد في ذاكـرة التاريخ، وإنما هي ممتدة إلى تاريخنا الحاضر. خذ - على سبيل المثال - الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - رحمه الله، تعالى - فإن مشـروعه لا يغيب عن ذاكرة أي إنســان في عصرنا الحاضر، فقد كان مشـــروعه تحقيق الحديث النبوي، وخذ مثالاً آخر، هو: د. عبد الرحمن السميط الذي كان طبيباً كويتياً، وأراد أن يكون له مشروعه الخاص في الدعوة إلى الله.

لعلك تسأل: ما هي المشروعات التي يمكن أن يبدأ بها الإنسان ويحقق بهـا أمثال هذه الأحلام؟ ولعل من نافلة القول أن أذكِّرك بمشـــروع تربية الأبناء في البيت وجَعْلِهم مشروع الإنســان الشخصي (تعليماً وتربية) وما يدريك أن يكون منهم عَلَم الأمة ومجدِّدها في الأيام القادمة، وكذلك خدمة الناس وتفريج كربهم. وأيضاً تعليم الناس كتاب الله، تعالى.

أرجــوك أن تبدأ من هــذه اللحظة بالتفكير في مشـروعك الخاص، مشـــروع العمر... المشـــروع الذي يمكن أن تكون من خلاله شيئاً كبيراً في تاريخ نفســك، وأرجوك ثانية ألا تقزِّم نفسك وترى أنك لست أهلاً لذلك، فقط أدعوك للتفكير بصدق، والتأمُّل حقيقة، ثم ابدأ الخطوة الأولى مهما كانت ظروفك... وقريباً ستعانق الأفراح بإذن الله، تعالى.

مشعل عبد العزيز الفلاحي

Mashal001@hotmail.com

تقتضي ذلك والفتوى قد تتغير ولكل عصر علماؤه واجتهاده ومصطلحاته.

إنها في الحقيقة قضية تســتدعي منـــا المراجعة والتفكير ملياً، كي نصحح مســـار طريقنا نحو الاستخلاف، لنخرج بنتائج طيبة مثمرة تؤتي أُكلها علينا في أنفسنا ومجتمعاتنا، ومن ثَمَّ على غيرنا.

بَيْدَ أن أمة التوحيد وأمة خاتم المرســلين هـي الأمـة التي تســتحق - حقاً - الاستخــلاف في الأرض، وعودة الخــلافة إليها قـادمة - بـإذن اللــه، تعالــى - ولكن يبقى أن تعـي الأمة أن طريق الخلافــة يبدأ بتلك الخطوات الجادة الصادقة الثابتة، التي لا تتغير ولا تتراجع إلى الوراء، بل تمضي قُدُماً بثبات وجِد واجتهاد، متمسكةً ببرامجها وخُطَطها الفعالة في التغيير والإصلاح، مســـتنيرةً بكتاب ربها وسُنة نبيها ﷺ من أجل أن تقطع ذلك المشوار بيســـر واطمئنان. وحينئذ تنال الأمة استخلافاً أكبر ونصراً وتمكيناً أكثر؛ لأنها قد أرت الله من نفســها أنها أهلاً لنيل ذلك، ببرامجها الإسلامية العملية الذي تحمل للناس جميعاً سعادة الدنيا والآخرة.وسوف تعود إليها دفة القيادة، وسنكون في الصدارة والريادة، إن شاء الله.

تميم بن محمد بن عبد الله الأصنج

alasng1427@hotmail.com

بين الرقي والانحطاط

كثير مما يحـــدث في حياتنا يأخذ نظامـــاً قريباً من المتوالية الحســـابية؛ فإذا حدث عطل في الســـيارة - مثلاً - وأُهمِل، تطور إلى عطل أكبر، فإذا استمر إهماله، تطور إلى أكبر منه، وكلما تأخَّر العلاج كلما زادت المشكلة.

يلاحـــظ الناس عمـــل المتوالية في الماديات، لكنهم لا ينتبهون له في غيرها. في الســـلوك - مثلاً - يجرُّ الانحراف البسيط إلى أكبر منه، ويتطور تدريجياً إلى ما يشبه كرة الثلج التي تبدأ صغيرة لتصبح ضخمة في ما بعد.

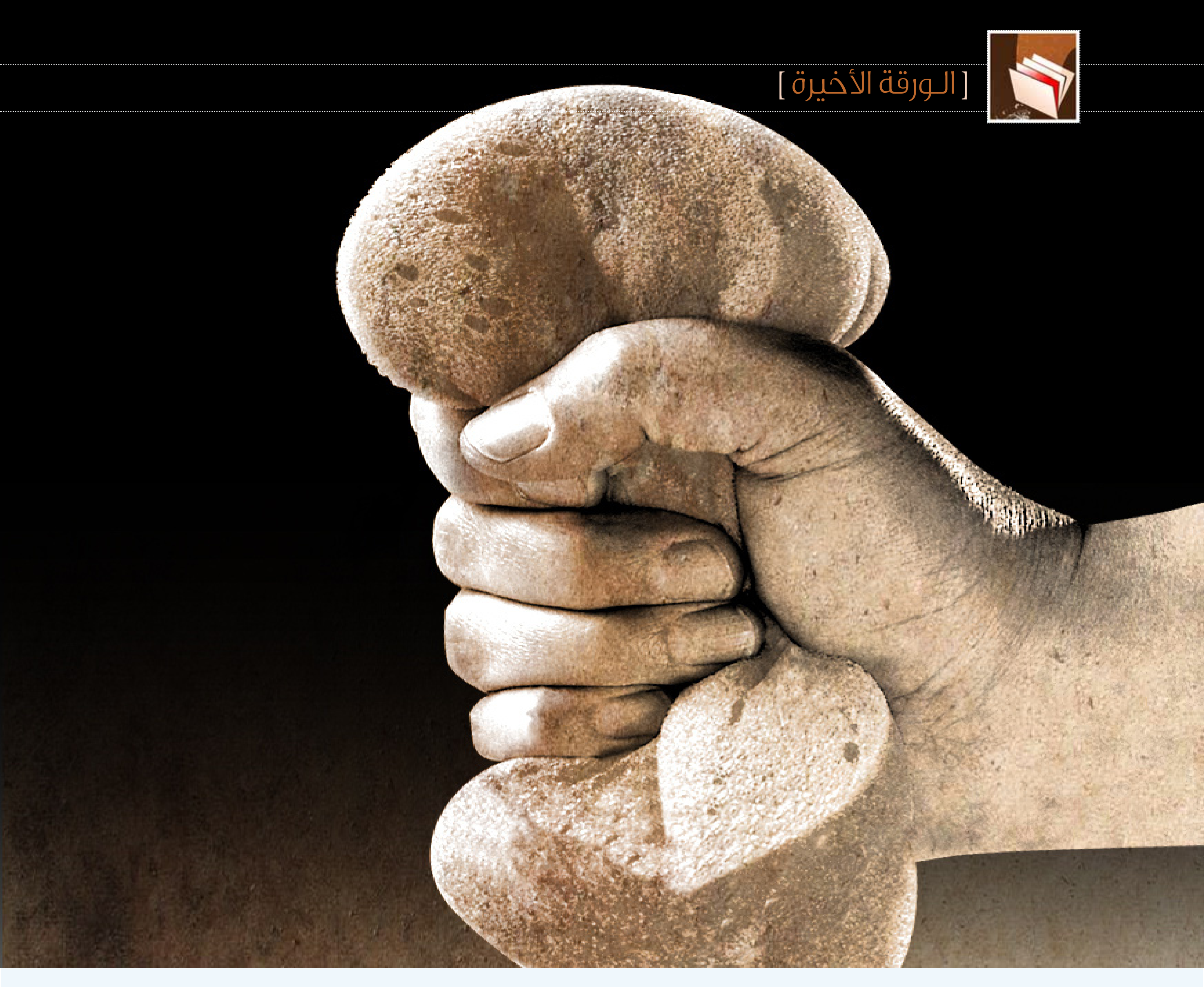
وفي مقابـــل هذا التقـــدم المتدرج في طريق الخطأ يكون هناك انســـحاب متدرج من طريق الصواب؛ فلا يُتوقع من شخص - مثلاً - أن يزداد انغماساً في الفكر الإلحادي ويبقى على درجة إيمانه بالله، تعالى.

أي مؤثِّر نواجهه في حياتنا لا يخرج - غالباً - عن أحد تيارين: إما تيارٌ راقٍ يشد للأعلى وإما منحط يدفع للقاع.

والمشكلة أن النوع الثاني أسرع وأكثر تأثيـــراً من النوع الأول؛ لذلك يســـتغل العاقـــل فرصة تعرُّضه لـــلأول ليرقى، ويتجنب الآخر قَدْر اســـتطاعته ليسلم؛ فإن ابتلي بـــه كان حتماً عليه مقاومته؛ لأن بقاءه ســـاكناً تجاهه يعني انجرافه دون أن يشعر.

عبد اللطيف بن بريك الثبيتي

nmnm15@gmail.com



أُسُّ الفساد

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

من الأخبار الجديرة بالتأمل قول جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما -: لَمَّا رَجَعَت مهاجرة الحبشة إلى رسول الله ﷺ قال: «ألا تحدثوني بأعجب ما رأيتم بأرض الحبشة؟». قال فتية منهم: يا رسول الله! بينما نحن جلوس مرت علينا عجوز من عجائزهم، تحمل على رأسها قُلَّة من ماء، فمرت بفتىً منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها على ركبتيها، فانكسرت قُلَّتُها، فلما ارتفعت التفتت إليه ثم قالت: ستعلم يا غُدَر إذا وضع الله الكرسي، وجمع الأولين والآخرين، وتكلَّمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم أمري وأمرك عنده غداً، فقال رسول الله ﷺ: «صدقت، ثم صدقت، كيف يُقدِّس الله قوماً لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟»[1].

(١) أخرجه: ابن ماجه، رقم: (٤٠١٠) وابن حبان، رقم: (٥٠٥٨) وحسَّن إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة: (٤/١٨٣) وقواه الأرنؤوط بشواهده في تحقيقه لابن حبان.

إن دين الإسلام دعوة جادة لمواجهة الظلم بكل صوره وأشكاله، ابتداءً من أيسر صوره

الظلم من أسـوأ الأدواء الإنسـانية التي قد تنتشر في أي مجتمع من المجتمعات، وهو أُسُّ الفسـاد ورأسُه، وسبب تصدُّع كيان المجتمع وتمزُّق أوصالـه. وهو بيئة خصبة لنمو كل ألوان الفجور وانتهاك كرامة الإنسان.

إنَّ الحياة المادية المعاصرة جعلت الإنسـان يعيش في غابة موحشـة، القوي فيها هو الذي يصنع القيم، وهو الذي يشـرِّع النظم والقوانين التي تحقِّق مصالحه وأهواءه، وهو الذي يعتدي بعصاه الغليظة؛ لينتهب لقمة الضعيف، ويسرق ابتسامة الفقير. قال الله - تعالى -: ﴿ **وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ** ﴾ [**البقرة**: ٢٠٥].

وإن الدعـاة وهم يحملون راية الإصلاح في مجتمعاتهم ينبغي أن يكون من أُولَى أولوياتهم الانتصار للمسـتضعفين، ورَفْع الظلم عنهم. وإذا كان من واجبهم أن ينشروا التوحيد، ويدعوا إلـى أصول الإسـلام وأركانه، ويطالبـوا بتطبيق الشريعة في شـأن الأمة كلِّه؛ فإن الدعوة إلى إقامة العدل بين النـاس وردِّ الحقوق إلى أصحابها من أعظم مقتضيات ذلك. ولهذا كانت شـعائر الإسـلام حتى في عهدها المكي ومنذ بداية البعثة النبوية تنهى عن الظلم وتذم أهله، وتنتصر للمستضعفين، وتأمر بزجر الظالم وردعه، قال - جل وعلا -: ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣)** ﴾ [**إبراهيم**: ٤٢ - ٤٣] وذكر القرآن العظيم صوراً من ممارسـات الظلم التي كانت منتشرة في العصر الجاهلي، وحذرهم منها. قال الله - تعالى -: ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [**المطففين**: ١ - ٥]، وقال الله - تعالى -: ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ** ﴾ [**الماعون**: ١ - ٣].

وذمَّ - سـبحانه وتعالى - المشـركين بقوله: ﴿ **كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ** ﴾ [**الفجر**: ١٧ - ١٨]. ولهـذا كانت العقوبة شـديدة، كما قال - تعالى -: ﴿ **خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ** ﴾ [**الحاقة**: ٣٠ - ٣٧]، بل إن قريشـاً لَـمَّا تحالفت في جاهليتها على ردع الظالم والسعي لنصرة المظلوم، قبل البعثة بعشرين عاماً، تحالف معهم رسـول الله ﷺ، ثم قال لَـمَّا أوحي إليه: «شـهدت حلف المطَّيبين مع عمومتـي وأنا غلام، فما أحب أن لي حُمْرَ النعم، وإني أنكثه»[١]، وقال أيضاً: «لقد شـهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت به في الإسـلام لأجبت»[٢].

إن دين الإسـلام دعوة جـادة لمواجهة الظلـم بكل صوره وأشكاله، ابتداءً من أيسر صوره (وليس في الظلم شيء يسير): كظلم الخـادم أو العامل، ومروراً بكل أنواع الطغيان التي تنخر في كيان المجتمع.

والأمة التي لا تؤسس أركانها على إقامة العدل، لا خير فيها؛ فعن أبي سـعيد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه لا قُدِّست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع»[٣].

إن السـكوت عن تطاوُل المفسـدين على حقـوق العباد، والتهـاون في الإنكار على المنتهكين لحرمـات المجتمع، خيانة للأمة، وخذلان للمسـلمين، وقد صـحَّ عـن رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه»[٤].

وعَجْز الصالحين وتفريطهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد الأسباب الرئيسة لانتشار البغي، واتساع أبوابه. قال - تعالى -: ﴿ **لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [**المائدة**: ٦٣]، وقال رسـول الله ﷺ: (إنَّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشـك أن يعمهم الله بعقابه)[٥].

والدعوة إلـى مواجهة التظالم الاجتماعي ليسـت شعاراً سياسـياً مجرَّداً، أو مزايدة حزبية أو انتخابية، بـل هي ديانة وقربة يتقرب بها الدعاة لنيل مرضاة الله وفضلـه، وكلما كان الدعاة أقرب إلـى المجتمع وتبنِّي قضاياه وهمومه، والذب عـن مصالحه وحقوقه؛ كانوا أقـدر على تحقيق الإصلاح، ونشـر معالم العدل، ومن العلم الذي ينبغي أن يشدَّ الدعاة رحالهم لطلبه ودراسته، قول الفضيل بن عياض: (إني لأستحي من الله أن أشبع حتى أرى العدل قد بُسِط، وأرى الحق قد قام)[٦].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/١٩٣ و ٢١٠)، رقم: (١٦٥ و ١٦٧٦) والبخاري في الأدب المفرد: (٥٦٧) وأبو يعلى، رقم: (٨٤٤ و ٨٤٥ و ٨٤٦). وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، والأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

(٢) عزَاه ابن كثير في البداية والنهاية: (٣/٤٥٦) إلى الحميدي، وإسناد الحميدي إسناد صحيح.

(٣) أخرجه: ابن ماجه، رقم: (٢٤٢٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: (٢٤١٧).

(٤) أخرجه: البخاري، رقم: (٢٤٤٢) .

(٥) أخرجه: أحمد (١/٢٠٨) رقم (٣٠) والترمذي رقم (٢١٦٨ و ٣٠٥٧) وقال: حسن صحيح، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٦) حلية الأولياء: (٨/١٠٨).



Nawazi
نوازي الفندقية
الفندق مصنف بأربع نجوم فئة (أ).
يبعد عن الحرم ٢٥٠ متر.
صالات استقبال واسعة و متعددة.
غرف واسعة ، بتأثيث فاخر.
مطل على الحرم.
دورة مياه مستقلة.
أسعار مناسبة جداً.
قناة هادفة تليق بالمكان .
فندق نوازي
مكة المكرمة - أجياد السد - بجوار فندق مريديان هاتف : ٠٢٥٧٤٦٦٦٦ / فاكس : ٠٢٥٧٢١٧١٦ / جوال : ٠٥٠٥١٥٥٥٨٨